تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس

الدكتور خالد بن محمد مبارك القاسمي

الدار الثقافية للنشر

تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس

الدكتور خالد بن محمد مبارك القاسمي

الدار الثقافية للنشر

القاسمي، خالد بن محمد مبارك.
تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس.
خالد بن محمد مبارك القاسمي ـ ط١ ـ القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠٨.
١٧٦ ص، ٢٤ سم
تدمك ٠ ـ ٢٤٣ ـ ٣٣٩ ـ ٩٧٧
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٠٨/٥٤٧٥
١ ـ الحضارة الإسلامية
تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس.
٩٥٣

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م

صندوق بريد ١٣٤ بانوراما ١١٨١١

تليفاكس ٢٤٠٢٠٥١٥ ـ ٢٤١٧٢٧٦٩

www.dar-althakafia.com
Email: info@dar-althakafia.com

مقدمة

كيف يمكن أن نقيّم حضارة عربية دامت ثمانية قرون؟

وماذا يمكن أن يدوّن التاريخ عن العرب في الأندلس؟

كثيرون من الحاقدين الغربيين وصفوا العرب بالوحشية والتخلف وهدم الحضارات. وكثيرون من المنصفين جاوروا الحقيقة حين رأوا أن دخول العرب إلى الأندلس يعني دخول الحضارة والثقافة إلى عالم معتم ظالم متخلف جاهل.

وحين يقيّم المنصفون هذه الحضارة يجدون أن العرب الفاتحين لم يأتوا ليهدموا حضارةً كانت قائمة، ولم يأتوا ليجلبوا الجهل والتخلف إلى شعوب كانت متعلمة متقدمة. فبناء الحضارة يحتاج أولاً لإنسان مستعد في عقله ونفسه وجسده وعقيدته. لإنسان غير متحجر قابل للتطوير والتطوّر. وقد كان العرب الفاتحون بما حملوه من روح للانطلاق، وعقيدة بنّاءة وعقل منفتح غير متحجّر، مؤهلين لمسابقة الزمن في صنع حضارة عظيمة ما تزال آثارها شاهدة للعيان في مدن أسبانيا الحالية.

لقد تجاذب الإنسان مع التطور ومع النظرة المتفحّصة للمستقبل، ومع الواقع الجغرافي والإنساني لبلاد الأندلس، فصنع حضارة ساهمت فيها كل العوامل البشرية والجغرافية وكل العوامل العقيدية والنفسية والعقلية. جاءت محصلة رائعة لهذا المزيج من المادة والروح. وكان لابد لعصور الظلام الأوروبية من أن تفتح ذراعيها لتستقبل هذا العطاء الإنساني الخالد. وإن بدت لأول وهلة معادية لها بسبب عدائها للعرب أصحابها.

تلك هي قصة التبادل أو قصة التأثير. وقد يكون القانون القائل بأن الضعيف يقلّد القوي ويأخذ منه صحيحًا إلى حدّ بعيد. فلِمَ الإنكار ولِم الإجحاف ولمَ الاستكبار؟ إن من ينكرون تأثير الحضارة العربية الأندلسية في أوروبا هم كالذين يضعون على أعينهم حجابًا أسود ويقولون نحن لا نرى الشمس على الرغم من أنها في كبد السماء ساطعة للناظرين.

وإذا كان المؤرخون وعلماء علم الاجتماع يختلفون شيئًا ما في تعريفهم للحضارة فإن القاسم المشترك الذي يجمعهم جميعًا يؤكد أن الحضارة هي ما بلغه الإنسان من تقدم عمراني وفكري وثقافي وعلمي. ولعل الحضارة العربية في الأندلس قدمت العمران والفكر والثقافة والعلوم، والعلماء.

وهـذه شـهادات المنصفين مـن العـلماء والمفكـرين تقـف في وجه الذين حاولوا تزييف الحقـائق التاريخـية. لقد أدلوا بتلك الشهادات مدعمة بالبراهين المادية والثقافية فأنصفوا العـرب. واعتـبروا سـقوط الأندلـس مـن أكـبر الكـوارث الـتي لحقت بالحضارة الأوروبية وثقافـتها. وكـم كـانوا محقّـين عـندما رأوا أن خـروج العـرب مـن الأندلـس يعـني انهيار الحضارة التي كانت تتمناها أوروبا في تلك العهود.

وإذا اعتـبر بعـض الغربـيين أن العرب دخلوا الأندلس غزاةً مهما جلبوا من حضارة أو صـنعوا فـيها مـن تقـدم عـلمي وعمـراني. ويـبقون غـزاة، تجـاوزوا حدود بلادهم العربية واعـتدوا عـلى أوروبـا إذا كـانوا يعتـبرون ذلـك كذلـك، فلـيعودوا إلى مقارنـة الفـاتحين بالفاتحين والغزاة بالغزاة.

لقـد دخـل العـرب الأندلـس لـيس حبًا في العدوان والتدمير ولم يعتدوا ولم يدمروا بل حملـوا معهـم عقيدة نادت بالمساواة والتسامح وبالبناء في كل المجالات. فلينظروا إلى غزو التـتار لـبلاد العـرب، وغـير بـلاد العرب. لينظروا إلى الغزو الإفرنجي الذي استغل غفلة الـزمن وزحـف إلى الشـرق ليقـيم المذابـح المروعة في إنطاكية والقدس وغيرهما. ألم تعترف مصادرهم أن الصليبيين أجروا مذبحة في القدس راح ضحيتها سبعون ألف مسلم بين طفل وامرأة ورجل؟ فهل قام العرب بمثل هذه المذابح عندما دخلوا الأندلس؟

بـين فـاتحين وفـاتحين فـروق كـبيرة، فـروق في العقـائد والعقول والنفوس، وفروق في الأهـداف والغايـات. مـاذا كانـت علـيه الأندلـس قـبل دخـول العـرب إلـيها. ألم تكـن إقطاعـياتٍ وفلاحين عبيدًا ليس لهم أية حقوق؟ ألم يكن السحر والشعوذة يحكمان العقل الإفـرنجي واسـتغله ذوو السـلطان في تحقـيق أطمـاعهم وسيادتهم؟ ألم يطلق علماء الغرب أنفسهم على ذاك العصر عصر الظلام الأوروبي وعصر النور الإسلامي العربي؟

وحـين ننصـف حضـارة العـرب في الأندلـس لابد لنا أن نضع الحقائق أمام الآخرين، وتلـك الحقائق كثيرة لا تعد ولا تحصى. وإذا كان لنا أن نذكر بعضًا منها، لابد أن نقول إن العـرب قبل دخولهم الأندلس كانوا قد هضموا الثقافات والحضارات الكبرى ودمجوها في حضـارة العـرب الـتي مـا إن وصـلت بداية العصر العباسي حتى أصبحت محط أنظار الإفـرنج وبـيزنطة، وحين أتاحت الظروف لهم أن يشقوا الطريق إلى الأندلس حملوا معهم هـذا الـركام بـل هـذا التراكم الكبير من المعارف والعلوم. حملوها ليصبوها في قالب جديد

وعصر جديد. وما إن اندمجوا بتلك الأرض الجديدة حتى راحوا يشيدونها ويصنعون فيها كل ما يبهر العين ويسر النفوس. وكل ما يشهد على عبقريتهم. ولم يطل الوقت حتى ينهل الغرب من هذا المعين الذي لا ينضب. راح الشعراء يقلدون العرب وشعرهم. فظهر الشعر الغنائي البروفنسالي. ونقلوا فلسفة الشرق عن ابن رشد ومحيي الدين بن عربي وابن حزم الظاهري. وتعلموا أصول الطب ممن طورها من عرب الأندلس. وأخذوا عن أمة العرب علوم البحر وأدوات الملاحة الفلكية وغيرها. وأدخلوا في قصورهم ما شاهدوه من قصور العرب وعظمة بنائها. حتى أنهم راحوا يقلدونهم باللباس والمأكل والمشرب.

ولم يكتفوا بذلك، بل إن صقلية اعتمدت على رجال العرب في تسييس الدولة وحمايتها وصنع إدارتها. ومن ثم الدفاع عن شواطئها. حتى أن ملوك هذه الجزيرة تسموا بأسماء العرب والمسلمين تيمنًا بهم وبجدارتهم التي أثبتوها على مرّ العصور.

اعتز الغرب بدانتي وبالكوميديا الإلهية على اعتبارها عملاً أدبيًا فلسفيًا رائعًا. وجاء عصر اكتشف فيه الغرب أن العمل الإبداعي العظيم استند على ما ألّفه الفيلسوف العربي المتصوف محيي الدين بن عربي من كتبٍ، خاصة كتاب المعراج.

وتأتي زيغرد هونكه العالمة الألمانية لتثبت للعالم أن شمس العرب سطعت على أوروبا فأهدتها العلوم والمعارف وأسس الحضارة والتحضر المدني والاجتماعي، ومثلها من أنصف هذه الحضارة كأرنولد توينبي. وغوستاف لوبون وغيرهم كثيرون.

والآن وبعد مضي مئات السنين على سقوط الأندلس وخروج العرب منها تقفز الحضارة المادية الأوروبية قفزات مذهلة مدهشة وتترك العرب خلفها متخلفين يلوكون الماضي دون الاستفادة منه. هذا الغرب الذي يتسيّد بحضارته المادية يغفل أو يتغافل عن أثر العرب الأندلسيين في حضارته.

ومع كل ذلك فإن طبيعة حياة الدول كما رآها ابن خلدون وغيره من علماء التاريخ والاجتماع لابد أن تمر بمرحلة البناء ثم القوة ثم الضعف وتلك هي سنّة الحياة. فإذا كان العرب في الأندلس خضعوا لهذا القانون فعلى الغرب أن يثبت أنه إنساني وليس عنصريًا متعصبًا. عليه أن يثبت أن ما يسمّونه الثقافة الإنسانية هي ملك للجميع. وهذا ما كان عليه العرب عندما امتلكوا زمام المبادرة وكانوا أقوياء بالقدر الذي مكّنهم من منح العالم الغربي كل علومهم وثقافتهم وآدابهم. فلينظر الغرب إلى تلك المعادلة بعين الإنسانية وإلاّ

فـإن حضـارة العـرب ستبقى الشـاهد الـذي يصـمهم بالضـعف والتقليد وسرقة الحضارة والتراث.

إن نظـرتنا كعـرب لا تـتغير بتغيّـر الظـروف والمعـادلات الدولـية. فالعرب يشهد لهم تـاريخـهم وحضـارتهم أنهـم مـا بخلـوا يـومًا في العطـاء الإنساني العظيم، وما حجبوا عن الشعوب علومهم وأفكارهم وترجماتهم المشهورة.

والله ولى التوفيق، إنه نعم المولى ونعم النصير

الدكتور خالد بن محمد مبارك القاسمي

القاهرة فى ٢١ من جمادى الأولى ١٤٢٩ هـ

المـــوافـــق ٢٦ من مايو ٢٠٠٨ م

الفصل الأول

الأندلس والفتح العربي الإسلامي

خضعت الأندلس للدولة الرومانية زمنًا طويلاً حتى اجتاحتها القبائل الجرمانية في موجات متتالية إلى إن استقر بها القوط الغربيون. واضمحلت الأندلس في السنوات الأولى من القرن الثامن الميلادي إذ أن ملوكها القوط استنفذوا كل موارد البلاد، وأما الشعب فقد كان يحيا حياة الفقر الشنيع على نقيض ما كان يتمتع به النبلاء.

ومع أن الملكية القوطية كانت تجمع بين الوحدة الدينية والسياسية فقد ظهر المجتمع الأسباني إذ ذاك مفككًا وانقسم إلى طبقتين تفصل بينهما هوة سحيقة. الأولى طبقة الحكام النبلاء المتمتعين بكافة المزايا والامتيازات الاجتماعية والثانية قوامها العناصر الشعبية التي تأصلت فيها الصبغة الرومانية.

أما من حيث النظام السياسي فقد ساد العنصر الجرماني، أما العنصر الروماني فقد ساد في نظامه الفكري والفني. وما لبث القوط أن نسوا لغتهم أمام قوة اللغة اللاتينية، ونبذوا المذهب الآري وامتثلوا للمحافل الكنسية لقاء القوة المعنوية التي كانت تعوزهم. ولم تجد محاولات الملك غيتشه اليائسة في نشر السلام والرخاء لإصلاح المجتمع الأسباني، بل أصبح تفكك البلاد أمرًا محتومًا لابد من وقوعه أمام انعدام القيادة السياسية وانهيار البناء الاجتماعي.

انتهى الأمر بوثوب أحد قادة الجيش ويعرف بلذريق (رودريجو) على العرش وتودّده لمجلس البلاد الذي أفتى بخلع الملك الشرعي غيفشة وتولية لذريق أمر الملك. وأدى ذلك إلى إثارة النفوس بين النبلاء الذين أخذوا يترقبون الفرصة المواتية للقضاء على لذريق المغتصب [1].

وبذلك فقد فقدت أسبانيا قوة الوحدة بين زعماء القوط مما سهل على العرب الفاتحين دخول الأندلس. ومن الطبيعي أن يجد المرء أن الوضع الذي آلت إليه بلاد الأندلس آنذاك فتّت القوة وجعل بعض النبلاء يستعينون بأي قوة تخلّصهم من الملك لذريق الذي اعتبر بنظرهم خارجًا عن القانون ومغتصبًا للشرعية الملكية في البلاد. وهذا ما جعل لذريق

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، صـ٨ – ٩.

يواجه العرب وحده في ميدان المعركة فيخسرها رغم ما بذله من جهود عسكرية للصمود أمام الزحف العربي القادم من المغرب.

وتقول المصادر إن مدينة سبتة المغربية كانت خاضعة لحاكم قوطي غربي يدعى يليان. وعند اغتصاب لذريق لعرش أسبانيا هرب ابن الملك المخلوع غيتشة إلى سبتة ويدعى (وقلة). وحث يليان على مساعدته لاسترجاع ملك أبيه. وكان يليان ضعيفًا لا يستطيع مواجهة لذريق فاضطر للاتصال بطارق بن زياد والى طنجة من قبل موسى بن نصير. فما كان من طارق إلا أن أبلغ موسى بن نصير بذلك. فرحب موسى بذلك إذ كان يطمع بمزيد من الفتح والجهاد فكتب موسى إلى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك يبلغه بما ذكره يليان من تذليل مهمة موسى في فتح الأندلس. لكن الوليد تردد في الأمر وخاف على المسلمين أن يغرر بهم موسى في بحر شديد الأهوال [1]، وأمر موسى أن يتروّى في الأمر وأن يختبر هذه البلاد أولاً بالسرايا فسيّر موسى أولاً قائدًا من قواده يقال له طريف بن مالك المعافري على سرية من خمسمائة مقاتل أعد لهم يليان السفن فعبروا الزقاق ونزلوا بجزيرة لاس بالوماس والواقعة على مقربة من مدينة طريف الحالية التي سميت باسمه لنزوله فيها وذلك في رمضان سنة ٩١ هـ / ٧١٠م. وعاد طريف من غزوته ظافرًا غانمًا، فأمن موسى بن نصير إلى يليان واستوثق منه واشتد عزمه على فتح الأندلس.

اختار موسى على الحملة التي أعدها لفتح الأندلس قائدًا من قواده المعروفين بحسن القيادة والبلاء هو طارق بن زياد فأمَّره على سبعة آلاف رجل جلهم من البربر. وأبحرت حملة طارق من ميناء طنجة في ٥ رجب سنة ٩٢ هـ. نيسان سنة ٧١١م، في السفن التي وضعها يليان تحت تصرف المسلمين، وبعض السفن التي أنتجتها دار الصناعة بتونس. وامتلأت السفن بالرجال والخيل ما بين شاطئ طنجة وجبل كالبي على الشاطئ الجنوبي من أسبانيا الذي عرف منذ ذلك الحين بجبل طارق. ولما توافت جموعه زحف بحذاء الشمال على الساحل فاستولى على جزيرة قرطاجنة، ثم اتجه غربًا إلى الجزيرة الخضراء. وكان لذريق وقتها مشغولاً بإخماد ثورة في شمال أسبانيا قام بها البشكنس في بنبلونة. فترك هذه العمليات الحربية سريعًا وبادر بالعودة إلى عاصمته طليطلة وخرج من هناك

---

(١) المقري: نفح الطيب، جـ١، ص٢٣٧.

بجيوش كثيفة بلغت عدتها نحو مائة ألف مقاتل وقيل سبعون ألفًا وقيل أربعون ألفًا. فلما علِم طارق بذلك كتب إلى موسى يستمدّه فأمدّه بخمسة آلاف من المسلمين كملت بهم عدة من معه اثني عشر ألفًا (١).

ثم اشتبكت قوات لذريق مع قوات المسلمين في ٢٨ من رمضان سنة ٩٢هـ حزيران ٧١١م. في موضع يقع على وادي لكة بالقرب من شذونة في قتال عنيف دام أيامًا وانتهى بهزيمة لذريق. وأحدث انتصار طارق في وادي لكة دويًا هائلاً في المغرب والمشرق. واندفعت جيوش المسلمين في إثر فلول القوط تستولي على المدن وتفتتح المعاقل حتى وصلت إلى طليطلة العاصمة فدخلتها سنة ٩٣هـ. ثم عبر موسى بن نصير إلى الأندلس بجيش ضخم يتألف من ١٨ ألف مقاتل من العرب وتعاون هو وطارق على افتتاح بقية الأندلس، حتى أشرف القائدان على جبال ألبرت المطلّة على بلاد الغال. وبينما كان يتأهب لاختراق هذه الجبال وصله رسول من الخليفة الوليد يستدعيه إليه في دمشق. فلم يجد موسى بدًا من إجابة الخليفة إلى طلبه. فقفل عائدًا إلى دمشق بعد أن استخلف على الأندلس ابنه عبد العزيز. واختار له أشبيلية عاصمة له. وفي عهد عبد العزيز تم للمسلمين فتح بلاد غرب الأندلس سنة ٩٥ هـ / ٧١٤م، وشرق وجنوب شرق الأندلس في سنة ٩٦ هـ. واتجه بعد ذلك إلى تنظيم البلاد وإدارة شؤونها. ولكنه قتل على أيدي قواد جيشه عندما اتهموه بالخروج على الدولة الأموية (٢).

وقدّر لمن خلفه من ولاة الأندلس أن يتوسّعوا في جنوبي فرنسا ويبسطوا سلطانهم على إقليم سبتمانيا المتاخم لشبه جزيرة أيبريا.

ويذكر المؤرخون أن المند ورملة وأرطباش أبناء الملك المخلوع انضموا هم وأتباعهم إلى جيوش طارق بن زياد في موقعة وادي لكة التي أشرنا إليها.

لقد ذكرنا أن عبد العزيز بن موسى بن نصير تولى الأندلس فضبط سلطانها وسد ثغورها وافتتح في ولايته بعض المدن التي لم يتم فتحها في عهد أبيه وكان متسامحاً في الدين فشجع مصاهرة الأسبان بتزوجه أم عاصم زوجة لذريق. ويعد عبد العزيز من خيرة ولاة

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٢٤١.

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص١١٢ ـ ١١٥.

المسلمين. إلا أن مدة حكمه لم تطل. وقد ذكرنا أن قادته وثبوا عليه فقتلوه وذلك بإيعاز من الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك [1].

وتعاقب على ولاية الأندلس بعد عبد العزيز سبعة عشر واليًا من قبل صاحب إفريقية وذلك في ستة وأربعين عامًا أولهم أيوب بن حبيب اللخمي الذي نقل حاضرة الأندلس من أشبيلية إلى قرطبة [2].

والواقع أن عدد الولاة الكثير في هذه المدة الزمنية القليلة يعتبر مؤشرًا على وجود النزاعات العربية العربية. وليس مستغربًا على الذين دخلوا الأندلس لأنهم حملوا معهم من المشرق العصبية القبلية التي قسّمتهم إلى قيسية ويمنية، إضافة للبربر الذين شكلوا عنصرًا قويًا في الفتوحات ومن ثم الاضطرابات. وأصبحت القبليّة العصبية طاغية على الحياة في الأندلس في عصر الولاة. وعلى الرغم من ذلك فإن بعض الولاة لم ينقطعوا عن الغزو. وضم بعض الأراضي للدولة الأندلسية. وقد عمد بعضهم إلى غزو فرنسا ومنهم السمح بن مالك الخولاني الذي استشهد غازيًا بأرض الفرنجة سنة ١٠٢هـ. بعد أن هزمه دوق أكيتانيا في تولوز. ثم تولى الأندلس بعده عنبسة بن سحيم الكلبي سنة ١٠٣ هـ / ٧٢١م. وغزا الفرنجة وتوغل في أراضيهم وفتح إقليم بروفانس واستمر في تقدمة حتى فتح مدينة ليون الفرنسية. إلا أن الفرنجة قطعوا عليه خط الرجعة وهزموه واستشهد في المعركة سنة ١٠٧هـ / ٧٢٥م.

وتتابع الولاة في الأندلس من قبل أمراء إفريقية حتى تولى عبد الرحمن الغافقي الأندلس سنة ١١٣هـ / ٧٣١م. وغزا الفرنجة وكانت له معهم وقائع انتصر فيها عليهم في أربونة وبرديل عند مصب نهر الجارون. فاستنجد دوق أكيتانيا بأمير القصر في الدولة الميرفنجية ويسمى شارل مارتل وتعاونا على صد الهجوم العربي داخل الحدود الفرنسية وهُزم المسلمون في المعركة التي حدثت ما بين مدينة تور ومدينة بواتييه واستشهد فيها عدد كبير من المسلمين وعلى رأسهم عبد الرحمن الغافقي قائد الجيش والوالي على الأندلس وتعرف المعركة باسم بلاط الشهداء.

---

(١) د. سيد عبد العزيز: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، ص١٥ – ١٦.

(٢) المرجع نفسه، ص١١.

وتوقفت الفتوحات العربية في الأندلس بعد هذه المعركة وصارت أرض المعركة حدودًا فاصلة بين الدولة العربية الأندلسية وبين فرنسا.

سقوط الدولة الأموية في المشرق

نجحت الدعوة العباسية بالثورة على بني أميّة مستعينة بالموالي والمعارضين لبني أمية وما إن حل عام ١٣٢هـ / ٧٤٩م، حتى سقطت الخلافة الأموية في دمشق وراح العباسيون يطاردون بني أمية في جميع الأمصار ويفتكون بهم. واستطاع أحد الأمويين وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام أن يهرب من وجههم ويخترق الحدود حتى يصل إلى إفريقيا. ويعبرها إلى الأندلس سنة ١٣٨هـ / ٧٥٥م، وقد أُطلق عليه الداخل. وقد كان ذكيًا واعيًا خاصة عندما وجد الصراع على أشده بين اليمنيين والقيسيين، واستطاع بحكمته أن يستميل الطرفين ويبايعه الكثيرون من الجنود والقادة. وتضخم عدد أنصاره واستمال قلوب الرعية بحسن سياسته حتى انقاد له كافة العرب هناك. وقد وقعت معركة بينه وبين والي الأندلس آنذاك يوسف بن عبد الرحمن الفهري، واستطاع أن يهزمه فيها قرب قرطبة سنة ١٣٨هـ. وما أن استتب له الأمر حتى أخذ ببناء مسجد قرطبة الجامع والقصور الضخمة والمنشآت العمرانية الأخرى.

وقد حاول أبو جعفر المنصور خليفة العباسيين أن ينال من الأمويين في الأندلس فبعث بجيش كثيف عن طريق إفريقية إلى الأندلس بقيادة العلاء بن مغيث. ولكن عبد الرحمن الداخل استطاع أن يهزمه. وبذلك توقف العداء العملي بين العباسيين ودولة بني أمية في الأندلس والواقع أن ذلك كان بداية النقلة النوعية لهذه الدولة حيث بدأ الأمراء الأمويون بتوطيد أركان الدولة. وبناء الحضارة بجميع أشكالها العمرانية والعقلية والعلمية وما إلى ذلك.

ولعل أهم هؤلاء الأمراء عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل الذي حكم ما بين ٢٠٦ – ٢٣٨هـ. وقد نجح بسبب طول مدة حكمه أن يقيم علاقات قوية مع الدولة البيزنطية وأن ينطلق بالدولة إلى آفاق حضارية عظيمة، فاهتم بالبناء والتشييد وأقام المساجد في جميع أنحاء الأندلس. وعرفت الأندلس في عهده لأول مرة فنًا جديدًا هو فن الموسيقى والموشّحات الغنائية. وقد أصبحت مدن الأندلس مهوى أفئدة المشرقيين من

علماء وموسيقيين ومن هؤلاء المغني المعروف زرياب. وعباس بن فرناس المعروف بخبرته بعلم الكيمياء والطيران.

وتميّز عصره بإنشاء دور الصناعة في موانئ الأندلس في أشبيلية والجزيرة الخضراء والمرية، وقد اهتم بدعم الأسطول الأندلسي بعدما ذاقت الأندلس مرارة هجوم الأساطيل الغازية وخاصة أساطيل النورمانديين غزاة الشمال.

وكان الأمويون يخطبون لأنفسهم بالإمارة حتى إذا ما تولى عبد الرحمن بن محمد المعروف بالناصر لدين الله ٣٠٠ - ٣٥٠هـ. واستقامت له الأندلس واستقرت أوضاعها السياسية لقب الأمير بالخليفة خاصة أن الدولة العباسية بدأ يدب فيها الضعف [١].

وفي عصره أصبحت الأندلس لا تقل حضارة عن بغداد أو القسطنطينية إذ اشتهرت في هذا العصر قوته وحكمته وقضاؤه على المتمردين والثوار الذين أرادوا النيل من قوة الدولة واستطاع هذا الخليفة أن يقيم علاقات ودية مع عدة قوى دولية، وأجرى معهم الهدايا والسفارات. وبلغت الأندلس في زمنه ذروة التقدم والرقي فارتفع فيها مستوى الحياة وكثرت ثروات البلاد، وأصبحت قرطبة مهد الحضارة الرفيعة ومصدر الحضارة السامية وموطن الفلاسفة والشعراء ومركز الفنون والآداب، وشهدت عصرًا من الرخاء والثراء لم تشهده حاضرة من قبل.

وكان الناصر مولعًا بالبناء محبًا له، فرأى أن يبني له قصرًا يليق بالخلافة فبنى مدينة الزهراء سنة ٣٢٥هـ / ٩٣٦م، على بعد خمسة أميال غربي قرطبة على سفح جبل العروس وشيد فيها القصور الفخمة وكسا جدرانها بالرخام المذهب.

وخلف الحكم المستنصر الخليفة المنصور سنة ٣٥٠هـ، في الوقت الذي بلغ فيه الازدهار السياسي والاقتصادي في الأندلس ذروته. وبلغت الحضارة الإسلامية أوجها، ووصلت قرطبة إلى قمة المجد والعظمة وأخذت تنافس عواصم أكبر الإمبراطوريات.

وكان المستنصر محبًا للعلوم جامعًا للكتب في أنواعها، وكان يستجلب المصنفات من شتى الأقاليم باذلاً فيهاأغلى ما يملك من الأموال حتى ضاقت عنها خزانته. كما كان جامعًا للتحف المشهورة وظلت قرطبة تتمتع بهذه الحياة الرفيعة زمنًا طويلاً حتى توفي

---

(١) المرجع السابق، ص١٤.

الحكم المستنصر وخلفه ابنه هشام المؤيد، وكان طفلاً فقامت أمّه السيدة صبح بالوصاية عليه واتخذت محمد بن أبي عامر حاجبًا للدولة [1].

وفي هذا الوقت بالذات انتهى حكم بني أميّة حيث أصبح بيد العامريين. وقد نجح ابن أبي عامر في كسب محبة الناس كما نجح في حجب الخليفة عن الشعب والاستئثار بالسلطة دونه فلم يعد للخليفة من النفوذ سوى إثبات اسمه في السكة وذكره في الخطبة.

وحينما نرى ذلك نتذكر الخلافة العباسية عندما ضعفت وتحكّم فيها السلاطين والقادة العسكريون، غير أن الفارق يكمن في ضعف وقوة هؤلاء. فابن أبي عامر استولى على السلطة لكنه استمر بقوة في الحفاظ على حدود الدولة واستمر في البناء الحضاري. بينما سلاطين الدولة العباسية تحكّموا بالدولة فأضعفوها وتنازعوا على أموالها ومواردها وقهروا الشعب مما أطمع الأعداء الرومان وغيرهم فيها وفي أراضيها.

وقد عمد ابن أبي عامر إلى الاتجاه بالبلاد اتجاهًا عسكريًا لاعتماده على الجيش في حروبه وغزواته فصار يغزو في كل عام غزوتين في الربيع والخريف، وقيل إنه غزا بنفسه ستًا وخمسين غزوة طوال سني عمره، وهو حاكم لم تنتكس له راية ولا فل له جيش وتلقب ابن أبي عامر بالمنصور، وفي عهده عرفت قرطبة للمرة الأخيرة مجدًا يشبه الوهج المتألق الذي يغمر الأفق عند الغروب. وقد احتفظت قرطبة بهذا المجد في زمن ابنه عبد الملك ٣٩٢ – ٣٩٩هـ الذي ورث عن أبيه صفات الشجاعة والقوة.

ثم خلفه أخوه عبد الرحمن وكان مستهترًا ماجنًا فطمع في الخلافة وكتب له هشام بولاية العهد وتلقب بالناصر لدين الله وقيل بالمأمون. فكان ذلك سببًا في نهاية العامريين وانقراض دولتهم. إذ نقم عليه الناس وقتلوا صاحب شرطته وخلعوا هشام المؤيد وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار ولقّبوه بالمهدي. فلما بلغ هذا النبأ عبد الرحمن وهو بالثغر يحارب الأعداء قفل عائدًا إلى قرطبة وعند اقترابه منها تخلى عنه جنده فقبض عليه المهدي وقتله [2].

---

(١) المرجع السابق، ص١٥.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص١٦.

ومنذ هذا الوقت تولى أمر الخلافة خلفاء ضعاف فانقسمت البلاد وتفكّكت وحدتها واستحكمت الفوضى واشتد الصراع العنصري بين العرب والصقالبة والبربر وكان كل فريق يستعين على خصومه بنصارى الشمال.

استحوذت الفئات الثلاثة العرب والبربر والصقالبة على المدن الأندلسية، ودارت حروب بينهم إذ خص كل منهم منطقة من المناطق بحكمه، وكان أبرز هؤلاء بني عباد في أشبيلية وبني ذي النون في طليطلة وبني جهور في قرطبة وبني حمود بغرناطة وملقة والجزيرة الخضراء وبني صمادح بالمرية وبني الأفطس في بطليوس وبني هود بسرقسطة وبني عامر والصقالبة بشرق الأندلس. وانتحل هؤلاء الملوك الألقاب الخلافية.

وفي ظل حكم ملوك الطوائف برز التنافس بين الشعراء والعلماء فأصبح كل شاعر وعالم يحظى عند هؤلاء بمكانة رفيعة. وقد اهتم ملوك الطوائف بالفن والأدب فصاروا يقربون الأدباء والمفكرين. وهذا ما أدى إلى ازدهار الحركة العلمية والثقافية والأدبية. على الرغم من الضعف السياسي والتفكك.

وبلغ من التعقيد الفني أن انعكس على مجال العمران والزخرفة وأسرف الفنانون في الحشو الزخرفي وأسرفوا في التعقيد الفني، مما تشهد به آثار قصر الجعفرية بسرقسطة وقصر بني حمود بمالقة.

هذا هو حال الأندلس تحت ظل حكم ملوك الطوائف. أما على الجانب الآخر فكان الأسبان يحشدون قواهم ويرتدون باتجاه المناطق الإسلامية يسقطونها منطقة بعد أخرى حتى أصبح ملوك الأندلس يدفعون الجزية لألفونسو السادس ملك قشتالة. وسقطت طليطلة سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م. فكان ذلك نذيرًا للعرب والمسلمين بأن الأندلس جميعها ستسقط إن لم يفعلوا شيئًا. لكن وقائع التاريخ تقول إنهم لم يتعلموا الدرس وظل الملوك والأمراء غارقين بالترف واللهو.

في هذا الوقت بالذات كان المرابطون ينشؤون دولة قوية في المغرب بقيادة يوسف بن تاشفين. وظن ملوك الأندلس أن المرابطين يطمعون في الأندلس، فوقعوا بين نارين، في الشمال الفرنجة القشتاليين، وفي الجنوب الدولة المرابطية. وعندما داهمهم الخطر ارتأوا وعلى رأسهم المعتمد بن عباد أن يستعينوا بالمرابطين علّهم يصدّون القشتاليين، وقد تم لهم ذلك حيث عبرت جيوش المرابطين بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) والتقت جيوشهم

بجيوش ألفونسو السادس ملك قشتالة وانتصروا عليها في معركة حامية هي معركة الزلاقة. ومضى الجيش العربي يطارد فلول جيوش ألفونسو السادس. وعاد ابن تاشفين إلى المغرب وهو ناقم على ملوك الطوائف الأندلسيين الذين فرطوا بالأرض واستهانوا بالعدو وغرقوا في الملذات.

وما لبث أن دخل الأندلس وراح يخلع هؤلاء الملوك واحدًا بعد الآخر حتى دخل غرناطة سنة ٤٨٣هـ. ولم تأت سنة ٤٩٥هـ / ١١٠١م، حتى تمت للمرابطين السيطرة على كافة أنحاء الأندلس وضموها لدولتهم.

ولما توفي يوسف بن تاشفين تسلم الأمر بعده ولده فسار على سنن أبيه في الجهاد والفتح لكنه أهمل الجانب العسكري، فاسترخى الناس وبدأ القشتاليون بالهجوم مرة أخرى على البلاد الأندلسية. مما أثار أهل الأندلس ضد الحكام من المرابطين الذين استرخوا وساروا على أهوائهم. وخلعوهم وحل محلهم بعض الأمراء الموالين لدولة الموحدين التي قامت على أنقاض المرابطين في المغرب [1].

وتعود الأندلس إلى ما كانت عليه من فوضى، واحتدم الصراع بين القادة والأمراء حتى بات واضحًا أن الفرصة أصبحت سانحة لتقدم القشتاليين والبرتغاليين نحو مدن الأندلس وقراها. إلا أن الموحدين دخلوا الأندلس تلبية لدعوة أهلها وردوا القشتاليين على أعقابهم وضموا إلى مملكتهم عددًا من المدن الأندلسية الهامة. واختاروا أشبيلية عاصمة لهم لبعدها عن الحدود مع الأسبان.

وولي أبو يعقوب يوسف الخلافة في أشبيلية سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٤م. فجاز إلى الأندلس كلها واستولى على أملاك بعض الأمراء. لكنه كان محبًا للآداب والفنون والفلسفة وكان يؤثر أشبيلية على مراكش فجمّلها بالقصور وأقام فيها مسجدًا عظيمًا أتمّه ابنه أبو يوسف يعقوب من بعده عام ٥٩٣هـ / ١١٩٦.

واحتدم الصراع مرة أخرى مع القشتاليين وحاول الموحّدون إنقاذ الكثير من أراضي الأندلس وحدثت بينهم وبين الأسبان معارك طاحنة كانت أبرزها معركة الأرك التي انتصر فيها العرب على القشتاليين بالقرب من بطليوس.

---

(١) المرجع السابق، ص١٩.

وفي عهد أبي يوسف يعقوب ٥٨٠ – ٥٩٥هـ / ١١٨٤ – ١١٩٨م. بلغت أشبيلية ذروة مجدها وكان أبو يوسف يحب البناء والتشييد فما كاد يظفر بالبيعة حتى أكمل بناء جامع أشبيلية وأتم بناء صومعته المعروفة بالحيزالد بعد انتصاره في موقعة الأرك.

وعاود الأسبان الكرّة وهاجموا المدن الأندلسية العربية واستطاعوا في إحدى المعارك هزيمة الموحّدين وهي معركة العقاب المعروفة بـ لاس نافاس دي تولوزا. ويرى الدارسون أن العرب لم تقم بعد هذه المعركة لهم قائمة، وأخذوا يتراجعون أمام الزحف القشتالي، وقد حاول بعض الموحّدين كأبي العلاء إدريس أن يعيد القوة في أشبيلية فحصنها وجدد أسوارها وبنى فيها الأبراج الحربية. لكن موته عجل بنهاية أشبيلية فقد استولت جيوش قشتالة على قرطبة الحاضرة القديمة للأندلس، ثم تبعتها بالسقوط بلنسية ومرسية واجتاحت الأندلس موجات عاتية من الاضطرابات والفوضى. وفي عام ١٢٤٨م، وبعد حصار دام نحو سبعة عشر شهرًا دخلت جيوش قشتالة مدينة أشبيلية حاضرة الموحدين وانتهت بذلك دولتهم بالأندلس.

وفي سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م، استطاع بنو الأحمر الاستيلاء على بعض المدن الأندلسية، واستولى محمد بن يوسف بن نصر على غرناطة وجعلها حاضرة دولته.

وعقد أهل الأندلس الآمال عليه وعلى دولته. وقد لجأ إلى غرناطة كثيرون من العرب الذين فقدوا ديارهم في المدن الأخرى. وأصبحت هذه المدينة ملجأً لكافة الراغبين بوقف الزحف الإفرنجي القشتالي. وظهرت بعض التحالفات بين بني الأحمر وحكام مريّة في رد جيوش قشتالة. وقد نصرهم بنو مرين عدة مرات. وعندما آل الأمر لمحمد الثالث بنى قصرًا بالحمراء وبنى مسجدًا جامعًا بالقصر. ثم استولى على الحكم أبو الوليد إسماعيل فرج بن نصر حيث استقر الوضع في زمنه وانتصر على جيوش قشتالة قرب مدينة البيرة. وتوالت الأحداث حتى تولى أبو الحجاج يوسف الأول السلطنة وكان محبًا للعلوم والفنون والآداب. فأقام أول نواة لقصر الحمراء بما فيه برج قمارش والحمام الملكي وباب الشريعة ومصلى البرطل وظل يحكم سنين كلها رخاء. إلا أنه قتل وهو يصلي عام ١٣٥٤م، في جامع الحمراء وبقي القشتاليون على زحفهم حتى استولوا على معظم المدن والمناطق الأندلسية.

وحدث أن وقع النزاع في العائلة الحاكمة في غرناطة مما أدى إلى إضعاف الصف والموقف بين أهلها. مما أتاح للقشتاليين الانتصار على العرب ودخول غرناطة. وخرج أبو عبد الله من المدينة بعد أن سلم مفاتيحها لفرناندو الرابع الكاثوليكي [١].

وبذلك مضت ثمانمائة سنة من الحكم العربي في الأندلس ذلك الحكم الذي تنوّعت أساليبه وكثرت أشكال حكمه. فبدأت من الولاة ثم إلى الخلفاء ثم إلى ملوك الطوائف، ثم جاءت الضربة القاضية بعد أن أصبحت مقومات القوة مفقودة.

وثمانية قرون حفلت بالبناء الحضاري كما هي في البناء السياسي لكن السياسيين يتغيرون والحضارة تبقى شاهدة على ذلك العقل العربي المتطور الذي لم يترك فرصة للبناء والتحضّر إلا وعبأها بما صنعه عقله وبما صنعته الأيدي في البناء والتقدم [٢].

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، ص١٥ – ١٦.

(٢) اقتباس وتصرف من كتاب في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس. للدكتور: السيد عبد العزيز سالم.

الفصل الثاني

المدن الأندلسية ومعالمها الحضارية

عناصر التكوين الاجتماعي

من المعروف أن العرب أخذوا بفتح إفريقية بعد أن انتصروا على البيزنطيين الغرباء في عـدة مناطق من الساحل الأفريقي، وقد أقام بعض الولاة مدنًا في تلك المناطق كانت مراكز انطلاق وحضارة. ومن أهمها مدينة القيروان في تونس، بيد أن العرب الذين حملوا معهم الديـن الجديد عرضوه على البربر الذين تقبلوه بحب ورضى وأصبحوا قوة لا يستهان بها في صفوف الجيش الإسلامي. وبرز منهم قادة كبار كان لهم الأثر الواضح في الانتصار على الإفرنج والأسبان أثناء فتح الأندلس.

وعـندما دخلـت الجـيوش الإسلامية الأندلس، كانت تستند على عنصرين أساسيين، عنصـر العـرب وعنصـر الـبربر. وقـد بقي أكثر أهل المناطق السابقة في بلادهم وأراضيهم، ومـنهم من أسلم ومنهم من بقي على نصرانيته. لكنهم اندمجوا مع العرب والبربر وشكلوا مجتمعًا جديدًا.

وقـد كـان الفـاتحون من قبائل العرب المختلفة فمنهم العدنانيون الهاشميون والأمويون ومـنهم اليمنـيون كقبـيلة كهـلان والأزد. وانضـم إلى هـؤلاء في الفـتح مصـريون وشـاميون وعراقـيون وجمـع كـبير مـن الـبربر. وقـد امـتزج هؤلاء جميعًا ببعض أهل البلاد من قوط وأسبان وغيرهم إما بالمصادقة أو المصاهرة.

ويمكن أن نقول إن العناصر التي سادت الأندلس أربعة:

١- العـرب وكـانوا يحسـون إحساسًـا قويًا بأرستقراطيتهم لغلبتهم على الأسبانيين والبربر وإدخالهم في الإسلام وبلغتهم التي تفوق غيرها.

٢- البربر وهم يشاركون العرب في البداوة والإسلام والعصبية القبلية والشجاعة.

٣- الأسـبان وهـم مسـيحيون كاثولـيك يرون أن العرب والبربر دخلاء عليهم وأنهم أحق بملك بلادهم.

٤- المسـلمون المولدون. من تزاوج العرب والبربر أو العرب والأسبان والصقالبة وكان لذلك السبب كبير وهو أن الجيش الفاتح كان من الرجال النازحين من الشرق الذين قطعـوا مسـافات بعيدة حتى وصلوا إلى الأندلس، فكان طبيعيًا ألاّ يرحل معهم عدد

كبير من النساء فاضطرتهم الحاجة إلى أن يتزوجوا من الأسبانيات، أو من البربر ويستولدوهن. وقد خرج من هذا الازدواج بين عربي وبربرية أو عربي وأسبانية جيل جديد مولَد يشبه ما كان في الشرق من تزاوج بين عربي وفارسية أو تركية وقد عرف المولَدون من النساء الأسبانيات بالذكاء والشجاعة والجمال وكان لهم في تاريخ الأندلس تاريخ طويل.

وقد دخل كثير من أهل البلاد في الإسلام وتكلموا العربية وتعصبوا لها ضد لغتهم وديانتهم. ولما رأى البرابرة والعرب الأندلس أعجبوا بها وافتتنوا بمحاسنها.

واختلف أهل الأندلس عن أهل المشرق، فبيئة الأندلس الطبيعية والاجتماعية مختلفة عن بيئة المشرق في كثير من الشؤون وبذلك اختلف النتاج الأندلسي عن النتاج المشرقي.

من ذلك مثلاً أن الخليفة عبد الرحمن الناصر أنشأ جيشًا من الصقالبة المماليك. وهو اسم كانوا يطلقونه على أسرى الحرب مع جميع البلاد الأوروبية وعلى من وقع في أيدي المسلمين من الرقيق حيث كان اليهود أهم من يقومون بتجارة الرقيق في ذلك العصر.

وعظم شأن الصقالبة وصار منهم الإقطاعيون الكبار وتجار المال، حتى أن عبد الرحمن الناصر عهد قيادة الجيش إلى واحد منهم دون العرب والبربر.

لقد حمل العرب والبربر إلى الأندلس عقيدة الإسلام ولغة القرآن حتى دخل كثير من الأسبان في الدين الجديد وتقمصوا النفسية العربية ونسوا لغتهم اللاتينية وتعاليمهم النصرانية. وقد تعددت شكوى القسّيسين من أن الأسبان ينسون دينهم ولغتهم ويقبلون على الإسلام ولغته.

وعُرف للأندلسيين صفات خاصة فمثلاً اشتهروا بالنظافة حتى إن بعضهم ليفضل أن يكون نظيفًا في ملبسه ومأكله ولو كان بسيطًا. على أن يأكل أكلاً فخمًا قذرًا.

وقد امتازوا بتعصبهم لبلادهم نلحظ ذلك في تراجم علمائهم فهذا يلقب بالمالقي وهذا بالقرطبي وهذا بالغرناطي أو بالشاطبي أو الجياني.

وقد امتازت الأندلس بأنها كانت بدخول العرب والمغاربة مسكن كثير من الأوروبيين والآسيويين ويهود أمم مختلفة، وبعبارة أخرى تجمّع فيها العنصر الآري والعنصر السامي. وأسبانيا هي كذلك إلى اليوم. ويظهر ذلك في اللغة والموسيقى والعادات والتقاليد.

وقد تلاقى في الأندلس جملة أمم فمنهم الإيبيريون والسلتيون واللاتينيون واليونانيون من العنصر الأوروبي. والقرطاجيون والفينيقيون واليهود من العنصر الآسيوي وطرأت على

أسبانيا أمم جرمانية مثل الفندل والقوط وهؤلاء القوط كانوا الطبقة السائدة عندما فتحها العرب. كل ذلك كان له الأثر البالغ في الإبداع في مجالات عدة. وقد جارت مدن الأندلس مدنَ المشرق بكثرة أبنيتها وفخامتها. وبكثرة علمائها وأدبائها. وتنوع الإنتاج الإبداعي حتى فاق الأندلسيون به أهل المشرق على الرغم من أنهم اعتمدوا على ثقافة الشرق وعلمائه وأدبائه الذين سافر قسم منهم إلى الأندلس، ونقلت كتب بعضهم الآخر إلى البلاد الجديدة فصاروا يتمثلونها ويؤلفون على نمطها بروح جديدة ورؤية جديدة أيضًا.

بعد أن عرفنا باختصار التكوين الاجتماعي السكاني لبلاد الأندلس تستوقفنا أهم المدن الأندلسية التي شهدت تطورًا حضاريًا ملموسًا على مدى قرون عديدة.

فهذه المدن أو المراكز البشرية الأساسية في الأراضي الأندلسية كانت وما زالت الشاهد على ما وصل إليه الأندلسيون من تقدم حضاري كبير في حياتهم.

ويجدر بنا أن نلاحظ هنا أن بعض هذه المدن كانت حاضرة الدولة بمعنى أنها كانت عاصمة للدولة والسلطة الأندلسية على اختلاف حكامها. فلم تكن قرطبة وحدها عاصمة للدولة بل أصبحت أشبيلية مثلاً عاصمة لهذه الدولة بسبب ظروف سياسية واجتماعية طرأت. وقد ينطبق الأمر على مدن أخرى مثل غرناطة أيضًا.

ولهذا لا يمكن دراسة الحضارة الأندلسية بمعزل عن دراسة هذه المدن الكبرى، وما كان لها من أثر في التطوّر الحضاري والثقافي والعلمي في حياة الأندلسيين.

وإذا كانت بغداد ودمشق وحلب وغيرها من المدن قد شهدت جل المعالم الحضارية زمن الدولة العباسية، وخاصة زمن الرشيد وابنه المأمون فإن مدن الأندلس كقرطبة وغرناطة وأشبيلية وغيرها شهدت أيضًا نفس التطور الحضاري. وأصبحت محط أنظار كثير من العلماء والأدباء والتجار. وأصبحت في زمن عبد الرحمن الناصر تنافس المدن المشرقية بكثرة مبانيها ومكتباتها وقصورها وأسواقها.

وقد قلنا فيما سبق إن التنوع السكاني العرقي كان له دور فعّال في تنوع الأذواق الحضارية والعمرانية والثقافية. تمامًا مثلما كان هذا التنوع في المشرق. وقد عرفنا أن الحضارة العربية استوعبت كافة الحضارات الهندية والفارسية والرومية والتركية وخلقت منها حضارة إسلامية عربية عظيمة.

إن مـدن الأندلس على الرغم من كثرتها شهدت ذلك التنوع الحضاري الثقافي الجديد. وبسـبب اسـتمرارها ثمانـية قـرون زاهية متقدمة فقد قدمت تراكمات حضارية لم تشهدها مدن كثيرة في العالم.

وقـد لعـب الحكام والخلفاء دورًا كبيرًا في إضفاء الأهمية البالغة على هذه المدن. حيث عملـوا عـلى جلب المعماريين والمهندسين ليشاركوا في بناء المعالم المادية كالقصور والمساجد وبعـض الأسـوار والقـلاع. وكانـت طبـيعة العلاقـة بـين العرب والأسبان تقتضي أن تسوّر المديـنة بسـور يحمـيها مـن الغزاة والجيوش. ولعل مهمة ذلك كان يتكفّل بها الخليفة أو الحاكم. باعتباره رأس السلطة فيها. وعلى اعتبار أن هذه المدن وخاصة قرطبة تعتبر مركز الدولة وعاصمتها فإنها أصبحت مركز العلوم والآداب والثقافة والدين ففيها مركز القضاء. ومركـز عـلماء الفقـه والدين. وفيها مركز الصناعة على اختلاف أنواعها وفيها أيضًا مركز التجارة بـين المقاطعـات الأندلسـية مـن جهـة، وبيـنها وبـين العالم الخارجي من جهة أخرى.

ولعل أهم هذه المدن قرطبة. وأشبيلية وطليطلة. وغرناطة.

١- قرطبة حاضرة الولاية ثم الخلافة

يـبدأ تـاريخ قرطـبة الإسـلامية منذ عهد السمح بن مالك الخولاني الذي ولي الأندلس سنة ١٠٠هـ / ٧١٩م، وهـو الـذي رفعهـا إلى مصـاف الحواضـر الكبرى. وأهم ما يمكن التعرض له في هذه الفترة بناء السور القديم المهدم المقام حول المدينة.

وكـان هـذا السـور الـروماني القديـم قـد هـدم في بعـض جوانبه وصارت المدينة مباحة للداخلـين والخـارجين فأعـاد السـمح بـن مـالك بـناءه بمـادة اللـبن. واسـتخدم الحجارة الضـخمة المتخلفة من الأجزاء المهدمة في إعادة بناء قنطرة قرطبة التي تعتبر من أهم الآثار في هذه المدينة.

فقـد سـقطت عقـود هـذه القـنطرة وكانت تبلغ سبعة عشر عقدًا، فجددها السمح بأمر الخلـيفة الأمـوي العـادل عمر بن عبد العزيز. وكانت هذه القنطرة تصل بين مدينة قرطبة وضـاحيتها عـلى الضـفة اليسـرى لـنهر الـوادي الكـبير وبعـد إصـلاحها توسعت المدينة وتجـاوزت سـورها وأصـبحت أكثر مدن أوروبا من حيث عدد السكان وعدد المساكن. وقد بلغت المدينة أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر من بعده مستوى من

الرخاء والثراء لم تبلغه حاضرة أخرى من قبل وظلت تنعم بهذا التفوّق على سائر مدن أسبانيا زمنًا طويلاً حتى سقطت الخلافة الأموية فتُركت بعدئذ لمصيرها المشؤوم وفتحها البربر عام ١٠١٠م. وهدموا آثارها وسلبوا خيراتها، ومنذ ذلك الحين صعد نجم مدينة أشبيلية، وتخلّت قرطبة عن مكانتها السامية، ورغم ذلك فإنها استطاعت أن تحتفظ ببعض عظمتها وتفوقها في المجال الفني والصناعي والأدبي حتى سقطت بيد فرناندو عام ١٤٣٦م. الذي حول مسجدها الكبير إلى كنيسة كبرى وهجرها عدد كبير من سكانها المسلمين فاستبدل فرناندو بهم سكانًا آخرين من قشتالة وليون وقطالوينة وغيرها من أقاليم أسبانيا النصرانية.

وكان المسجد الجامع في قرطبة أساس التنظيم العمراني للمدينة والمركز الديني الذي تلتف حوله بقية مراكزها العمرانية. ويسيطر هذا المسجد على حياة المدينة الاجتماعية والاقتصادية فكانت تقام حوله أو حول ساحته الأسواق والحوانيت. كما كانت للمسجد أهميته في الحياة السياسية. ففيه كانت تعقد الاجتماعات وتوزع ألوية الجيش وبنوده وتقرأ المنشورات وكذلك كانت له أهميته في الحياة العلمية إذ كان يؤمه الطلبة لتحصيل العلوم الدينية وكان يحيط بالمسجد الدور والقصور والفنادق والحمامات وغيرها. وكان قصر الإمارة يقع غربي المسجد الجامع ويصله بالمسجد شبه جسر يمر من تحته الناس.

أما دور قرطبة فقد كانت تقام حول فراغ مركزي هو الصحن الذي تتوزع حوله الغرف. وكان مظهرها الخارجي على عكس مظهرها الداخلي. فالواجهة الخارجية كانت بسيطة لا تثير الانتباه بينما الداخل يعج بالزخارف الجميلة. وهذا يذكرنا بيوت دمشق القديمة التي بنيت على النمط نفسه. ولا يخفى علينا أن العرب حين دخلوا الأندلس حملوا معهم كل موروثاتهم العمرانية في عقولهم وتصوراتهم.

أما قصور قرطبة فكانت تقام في الضواحي خارج المدينة ما عدا قصر الإمارة. وقد أجرى فيه الأمراء المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة في قنوات الرصاص التي تصب في البحيرات والصهاريج وأحواض الرخام.

وكان قصر الرصافة من أوائل القصور التي بناها الخلفاء وقد بناه الأمير عبد الرحمن الداخل لسكناه ونزهته شمالي المدينة وقد زرع في حدائقه كثيراً من الأشجار والمزروعات المجلوبة من الشام.

ومن قصور قرطبة أيضًا قصر الزهراء، وقصر آخر شيّده بنو أميّة وتمثّلوا فيه قصور بني أميّة في المشرق،وبنى أحد ملوك الموحّدين قصرًا آخر قرب نهر قرطبة وما تزال آثاره باقية إلى هذا الوقت.

واهتم الأندلسيون بالحمامات حتى بلغ عددها في قرطبة وحدها تسعمائة حمام ويقع الأكثر منها قرب المسجد حتى يسهل على المصلّين الاستحمام والتوجه إلى المسجد للصلاة.

وكذلك فقد بنيت المساجد بكثرة في هذه المدينة، حتى بلغت حسب بعض الأخبار ٣٨٧٧ مسجدًا وقيل ١٦٠٠ مسجد. ولم يتبق إلى اليوم سوى ثلاث مآذن هي اليوم أبراج كنائس. ويرجع الفضل الأول في حضارة قرطبة للأمير عبد الرحمن الداخل. ففي عصره تفتحت قرطبة لتيارات حضارية مختلفة بعضها من الشام والحجاز والبعض الآخر من العراق. ونشطت فيها حركة عمرانية قوية وخاصة منذ عام ٣٢٥هـ، واستمرت في عهد المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر فأنشئت في زمنه مدينة الزهراء واتصلت المباني بين قرطبة والزهراء وبقية المدن المنتشرة في الضواحي المجاورة لقرطبة وكان الخليفة الناصر شغوفًا بالبنيان فخصص له ثلث أموال جبايته، وبهذه الأموال أسس الأسوس، وغرس الغروس. واتخذ المصانع والقصور [1].

٢- مدينة أشبيلية

وتعتبر من المدن التي استوطنها العرب. بعد أن هاجموها أول الفتح وحاصروها لعدة شهور بسبب حصانة أسوارها ومناعتها. وقد اختارها موسى بن نصير حاضرة للأندلس لوقوعها على البحر وارتباطها بيسر بسائر المدن الأندلسية الأخرى، وسهولة اتصالها ببلاد المغرب قاعدة الجيوش الإسلامية في حالة قيام الأندلس بالثورات والحروب.. وتولى على الأندلس عدة ولاة ثم قَدِمَ عبد الرحمن الداخل واستقرت أوضاع هذه البلاد. وظلت أشبيلية على حياتها وعلى ما كانت عليه زمن القوط. وسكنها عدد قليل من العرب إذ نزح أكثرهم إلى قرطبة عاصمة الدولة.

---

(١) ابن عذارى، جـ٢، ص٣٣٤.

وبعـد أن استقر فيها جند حمص سنة ٧٤٢م، ازداد عدد سكانها العرب ونزلت فيها عـدة قبائل عربية. واتبع المسلمون مع النصارى سياسة التسامح، وأتاحوا بذلك لكثير من النصـارى أن يسـلموا. وكـان هـؤلاء النصارى يتمتعون بحرية في أداء شعائرهم. وكل ذلك كـان له الأثـر في الـتزاوج بين المسلمين والنصرانيات. وقد سكن قسم من اليهود في المدينة وكانوا يعملون بالتجارة.

وقـد اعتـلى عـبد الـرحمن بن معاوية سرير الملك بقرطبة سنة ٧٧٥م، وعلى الرغم من ذلـك ظلـت أشبيلية ذات مركـز هـام بين المدن الأندلسية. وقد تمتعت في عهد بني أمية بازدهـار شـامل في حـياتها وأقـام فيها أمراء بني أميّة المنشآت العظيمة. وكان عصر عبد الـرحمن الأوسـط العصـر الـذي اتصلت فيه الأندلس الإسلامية بالمشرق العباسي لأول مرة اتصـالاً مباشـرًا ذلـك أن الأندلـس في عهدهـا الأول كانـت تحـافظ عـلى مثـلها وتقاليدها الشامية.

وأقـام عـبد الـرحمن الأوسـط في أشـبيلية مسـجدًا جامعًـا سـنة ٨٤٩م. وقـد أحـرقها الـنورمانديون في إحـدى غاراتهم عليها وحرقوا سقف مسجدها ثم أخرجهم الأمير عنها، ثم شرع ببناء سور حولها وأقام فيها دارًا لصناعة السفن الحربية لأن الأندلس لم يكن لها أسطول بحري سابقًا يرد الغارات عن مدنه وقراه.

وفي عهد الأمير عبد الله بن محمد أعلنت أشبيلية الاستقلال واستبد بها أحد زعمائها وهو إبراهيم بن الحجاج. وكان زعيمًا قويًا. وظلت أشبيلية خاضعة لأولاده وأحفاده حتى عصـر عـبد الـرحمن بن محمد أمير قرطبة. وقد نجح هذا الأمير في إخضاع حكام أشبيلية بعد أن قضى على مناوئيه. وبعد ذلك ضم أشبيلية إلى إمارة قرطبة.

وفي عهـد ملـوك الطوائف استأثر بها المعتمد بن عباد سنة ١٠٤٢م، وجعلها بنو عباد حاضـرة لمملكـتهم الصغيرة. ولكن المدينة شهدت في عصرهم ازدهارًا عظيمًا وبلغ بها الأمر أن أصـبحت أهـم مـدن الأندلس بعد أن تخلّت لها قرطبة عن زعامة المدن والبلاد. وكان للمعـتمد بـن عـباد دور في تقدمهـا الأدبي والحضاري حيث استقبل فيها الشعراء والأدباء والمهندسـين الذيـن تفنـنوا بالعمـارة والمنشـآت. فشيدوا العمارات الضخمة وأقاموا القصور الجمـيلة. ولم يـتح لأشـبيلية أن تـنعم طويلاً في ظل ابن عباد إذ سرعان ما عبر المرابطون الـزقاق لـنجدة الأندلسـيين ضـد القشـتاليين، وراحوا يقضون على الممالك ومدن الطوائف واستطاعوا ضم غالبية مدن الأندلس لحكمهم. واستولوا على أشبيلية سنة ١٠٩١م.

وعندما ضعف المرابطون وجاء الموحّدون بايعهم أهل أشبيلية واختار الموحدون أشبيلية عاصمة لملكهم. واستطاع أبو يعقوب يوسف سنة ١١٦٤م، أن يشيد القصور والمساجد، وحرص على تجميل حاضرة ملكه في الأندلس. وكان من شأن ذلك أن انطلقت حركة التعمير والبناء في هذه المدينة واتسمت أبنيتها الجديدة بطابع أصيل جميل، واجتمعت في الأبنية البساطة من الخارج والزخرفة من الداخل. وبلغت أشبيلية ذروة مجدها وعظمتها في عهد أبي يوسف يعقوب المنصور وأصبحت بحق حاضرة الأندلس في عهد الموحدين، فعمرت فيها الأسواق والمتاجر والقصور وازدهرت فيها كل معالم الحضارة، وقد أقام المنصور مئذنة لمسجدها الجامع.

ولما عاد الخليفة إلى أشبيلية بعد بانتصاره على جيوش قشتالة في موقعة الأرك عام ١١٩٥م. واستحق لقب المنصور أمر بصنع أربع تفاحات مذهبة لتكلل المئذنة.

وقد حاول بعض خلفاء الموحدين أن يعيد لهذه المدينة بهاءها أيام المنصور فعمدوا إلى تحصينها وتجديد أسوارها، لكنها سقطت أخيرًا بيد القشتاليين.

لقد حوت المدينة مسجدين جامعين الأول مسجد ابن عدبس الذي بناه القاضي عمر بن عدبس بأمر الأمير عبد الرحمن الأوسط سنة ٨٢٩م، والثاني المسجد الجامع بالقصبة الذي أسسه أبو يعقوب يوسف من ساحة هذا المسجد الكبير كانت تتشعب كل طرق المدينة مؤدية إلى الأبواب المفتوحة بالأسوار.

أما المركز الصناعي والاقتصادي بأشبيلية فيتبع في أهميته المركز الديني مباشرة. فقد كان لموقع المدينة الجغرافي على مصب نهر الوادي الكبير وسط إقليم غني بمنتوجاته الزراعية أثر كبير في اعتبار أشبيلية أعظم مدن الأندلس في التجارة، وكانت الحياة الاقتصادية مزدهرة على الأخص حول المسجد الجامع الذي كانت تحوطه الأسواق. ومن هذه الأسواق. سوق الصباغين والخياطين وسوق باعة الأثواب وسوق العطارين والزجاجين والفخارين والنجارين والقصابين وسوق الصاغة. ومن أهم الملامح الاقتصادية في مدينة أشبيلية الإسلامية الفندق، إذ كان يقصده التجار الغرباء وكانت تحفظ فيه البضائع قبل توزيعها على التجار.

وتعد دار الصناعة من أهم الأبنية الاقتصادية في أشبيلية في العصر الإسلامي. وكانت تقوم ببناء القطائع الحربية والسفن وما يختص بآلات الملاحة. وكانت هذه الدار تقع على نهر الوادي الكبير قرب برج الذهب خارج الأسوار.

وكانت المياه ترد إلى المدينة عن طريق جسر كبير يبدأ من عين ماء بالقرب من قلعة وادي أبرة، وينتهي عند باب قرمونة من أبواب أشبيلية. وكانت المياه تتوزع في شبكات مائية في جوف الأرض إلى القصور والدور للسقاية وري الحدائق والمزارع.

٣- مدينة غرناطة

كانت غرناطة حتى بداية الفتح الإسلامي قرية صغيرة لم يهتم بها المسلمون وذلك بسبب وجود مدينة البيرة قريبًا منها. وقد استقر جند دمشق في هذه المدينة الأخيرة. لكن غرناطة أخذت تنمو شيئًا فشيئًا منذ القرن العاشر الميلادي وأصبحت في أيام الفتنة التي تبعت سقوط الخلافة في قرطبة مدينة كبيرة إذ استولى البربر على البيرة وأحرقوها، فانتقل سكانها إلى غرناطة. ثم أصبحت حاضرة منطقة البيرة حتى أخذ اسمها يسيطر تدريجيًا على الإقليم كله، وأخيرًا حل محل البيرة.

وكان لموقع غرناطة على الضفة اليمنى لنهر شنيل واختراق نهر حورة لها أثر كبير في إحاطتها بالبساتين. وكانت تشرف من الناحية الجنوبية الغربية على سهل فسيح، ويطل عليها من الشرق والغرب جبل شلير الذي يغطيه الثلج طوال أيام السنة تقريبًا.

لما سقطت غرناطة في أيدي البربر جعلها زاوي بن زيري عام ١٠١٣م، عاصمته ومدَّنها حبوس الصنهاجي وحصّن أسوارها وبنى قصبتها العظيمة، وخلفه ابنه باديس فكملت في أيامه وعمرت. وكان لحكمه الطويل أثر كبير في ازدهار المدينة واتساعها. وظلّت غرناطة عاصمة بربر صنهاجة حتى استولى عليها المرابطون سنة ١٠٨٩م. وفي عهد الصنهاجيين أقيم القصر الملكي المرتفع المشرف على البيازين. ويغلب على الظن أن غرناطة أصبحت عاصمة للمرابطين في الأندلس ثم فتحها الموحدون سنة ١١٤٦م، وفي نهاية عهدهم نجح ابن راهود ملك هرسية في ضم غرناطة إلى ملكه، وبعد وفاته ضمها إليه محمد بن يوسف بن نصر سيد حصن أرغونة ووادي آش وجيان ومالقة وجعلها عاصمة ملكه.

وكانت الأندلس الإسلامية قد انكمشت رقعتها إذ بدأ الزحف القشتالي يستولي على المناطق الإسلامية. فسقطت قرطبة ومرسية وأشبيلية وكانت الأحوال السياسية تقتضي تأليف جبهة قومية تقف أمام الخطر الأسباني القادم. فقامت مملكة غرناطة وعقد أهل الأندلس عليها الآمال. وردت غزوات الأسبان ودامت مدة قرنين إلى أن سقطت أخيرًا في أيدي الأسبان.

والواقع أن غرناطة أصبحت مركز تجمّع المسلمين الذين نزحوا من المدن الأخرى، وهذا ما جعلها تضم المفكرين والأدباء والعلماء. ونهض على أيديهم فن الزخرفة. وبُني فيها بعض الأبراج الضخمة وحُصن سورها بشكل قوي.

وقد حرص خلفاء محمد بن يوسف على اتباع سياسة انتهاز الفرص وكانوا لا يترددون في الاستنجاد ببني مرين كلما أحسوا شبح التقدم الأسباني.

وبلغت غرناطة عصرها الذهبي في زمن أبي الحجاج يوسف الأول، حيث كان حاميًا للفنون والآداب. فأقام أول نواة لقصر الحمراء بما فيها الأبراج المعروفة، والحمّامات. وظلت غرناطة صامدة حتى دخلت جيوش قشتالة سورها عام ١٤٩٢، ورفعت راية القديس إلى جانب الصليب وخرج ملكها وكثير من أهلها باتجاه المغرب العربي.

كانت غرناطة تنقسم إلى حي مركزي منبسط في اتساع يعرف بالمدينة. وكانت المدينة تشتمل على المسجد الجامع الذي تتفرع حوله شبكة طرق ودروب، وإلى جانب الجامع تقع القيسارية التي ما تزال قائمة. وكان يباع فيها الأقمشة والمنسوجات الحريرية وأدوات الزينة. وكان يحيط بالمدينة سور فتحت فيه أبواب. وبالقرب من المسجد الجامع كانت مدرسة غرناطة التي لا تختلف عن مدارس فاس في عهد بني مرين، وبالقرب من المدرسة يوجد الفندق الكبير القديم. ويحيط بالمدينة عدة أحياء منها حي السقاطين، وحي انتقيرة، وحي مورو، وخارج المدينة يوجد ربطان في الأول منها قصر الحمراء المشهور.

وقد ترك المسلمون في المدينة آثارًا هامة منها قصر الحمراء. وقصر جنة العريف ومنها مسجد البيازين ومئذنة جامع التوابين والحمام المعروف بحمام اليهود وقصور أخرى. ويشهد قصر الحمراء بغرناطة الأحداث التي مرّت به. وتعد حمراء غرناطة متحف الحضارة الإسلامية الأندلسية ففيها وضع رجال الفن من مسلمي الأندلس خلاصة فنّهم المعماري.

ومن أهم مزايا الفن الغرناطي أنه فن دنيوي على نقيض فن المرابطين، ولم يكن بناء بني نصر للمساجد إلا نتيجة للتوسع الاجتماعي الذي فرضته هجرة سكان المدن التي سقطت تباعًا في أيدي القشتاليين وحلفائهم. وحتى هذه المساجد كانت تزخر بالزخارف التي تُلهي المسلم عن صلاته وتجعل من هذه المساجد قصورًا خيالية.

ويكشف فن غرناطة عن رغبة شعب قد بلغ ذروة التطوّر في التمتع بحاضرهِ والشك في غَدِهِ.

٤- مدينة طليطلة

وهي مدينة قديمة ويغلب على أساسها الغموض. واستطاع طارق بن زياد فتحها من يد القوط الذين فر معظمهم منها. وظلّت طليطلة بعد الفتح الإسلامي تتمتع بتفوقها السياسي على سائر بلاد الأندلس، ولكنها فقدت هذا التفوّق إزاء ما وصلت إليه قرطبة من الحضارة والعلو.

وكانت طليطلة تضم أكبر طائفة من المستعربين والمولدين واليهود. وقد ساهم موقعها الاستراتيجي على نهر تاجه في أهميتها. وقد أحاط هذا النهر المدينة من ثلاث جهات فلم تسور في جهة الشمال، وفُتح في هذا السور الشمالي بابان. وكانت قنطرة المدينة المعروفة باسمها من أهم المعالم الحضارية إذ كانت تتألف من قوس واحد فيه فرجتان من كل جانب، وفي نهايتها ناعورة ارتفاعها تسعون ذراعًا. ترفع الماء إلى أعلى القنطرة ويجري الماء على ظهرها ليصل إلى المدينة ويسقيها. وقد هدمت هذه القنطرة في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن حين ثار أهل المدينة ضده. ثم جددها أحد القادة العامريين، وكان لموقع المدينة وطبيعة سكانها أثر كبير في حركاتهم الثورية المتعددة، وميولهم الانفصالية عن سلطان قرطبة. وفي عهد محمد بن عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٣٣ هـ خرج أهل طليطلة على الحاكم فبرز لهم بنفسه. ثم انضوت المدينة تحت حكم لواء الخليفة في قرطبة عام ٩٣٠م، بعد سنوات طويلة من الثورات. وهدأت أمورها في ظل عبد الرحمن الناصر. فازدهر فيها فن العمارة وانخرطت في الأسلوب المعماري الشائع في قرطبة. وازدهرت ازدهارًا ملفتًا للنظر تدل عليه آثارها العمرانية وأهمها المسجد المعروف بباب مردوم الذي بناه موسى بن علي من مال أحد أعيانها المدعو أحمد بن الحديدي.

وفي عصر الطوائف استقل بنو ذي النون في طليطلة وهم أسرة من البربر الذين كانوا في خدمة المنصور بن أبي عامر. وارتفع شأنهم بها. ولما تولى عبد الملك بن متيوه أمرها وأساء إلى أهلها خلعوه ووضعوا مكانه عبد الرحمن بن ذي النون، وعندما تولى القادر بالله يحيى ثار عليه أهل المدينة بسبب قتله ابن الحديدي الزعيم لديهم وأرغموه على مغادرتها فاستعان بألفونسو السادس ملك قشتالة لاسترداد ملكه وجاء ألفونسو وحاصرها ودخلها واغتصبها من القادر بالله.

وقد بلغت أسرة ذي النون من البذخ والترف الغاية. وأقام ملوكها القصور والآثار الجليلة ومن بينها القصر الذي بناه المأمون يحيى. وقد تأنق في بنائه وأنفق فيه المال الكثير وبنى فيه بحيرة في وسطها قبّة وسيّل الماء إلى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون، فكان الماء ينزل من أعلى القبة حولها. وكانت من قاعات هذا القصر قاعة تعرف بالمجلس المكرم. كُسيت جدرانها بالمرمر الأبيض ونقشت جميعها بالتوريقات المحفورة في الجص. وبنى قصرًا آخر عرف بمجلس الناعورة، وهو قصر ريفي ينساب الماء حوله بين الأعشاب، وأمام إحدى هذه القاعات بركة كالمرآة نصب عليها تماثيل أُسُود تمجّ الماء من أفواهها.

وقد اشتهرت المدينة في عهد أسرة ذي النون بعلمائها في الفلك والرياضيات، كما عرفت بصناعة الأسلحة وصناعة الاصطرلابات المستخدمة في الملاحة البحرية.

كان يتوسّط المدينة جامعها الكبير الذي تقوم على بقعته اليوم كاتدرائية طليطلة. وإلى الشمال الشرقي من المسجد يقع سوق الدواب، وكان يلي باب القنطرة غربًا. وقد تبقى منه اليوم عقد كبير على شكل حدوة فرس. كان أحد عقودٍ أربعة تنفتح في جدران هذا السوق المربع. وإلى جانب البابين اللذين ذكرتهما فيما سبق واللذين ينفتحان في السور الشمالي بابان جنوبيان آخران يشرفان على نهر تاجه هما بابا الحديد والدباغين، واسم هذا الباب الأخير محفوظ إلى يومنا هذا باللغة الأسبانية وقد ذكره المقري في كتابه نفح الطيب عند ذكره لحوضين أقامهما الخليفة عبد الرحمن الناصر في بيت مشيد داخل النهر العظيم.

وكان للمدينة حومات ودروب ومن أهمها حومة الجامع وكانت تتوسط المدينة وبداخلها حارة الصبّاغين، وحارة البئر المرّ التي كانت تسمّى في القرن الحادي عشر باسم رحبة القشتالي، وكان بداخل هذه الحارة حمّام يعرف بحمّام (يعيش).

ويقع حي العشّابين بالقرب من المسجد الجامع. ويمتد ربض الإفرنج من المسجد الجامع جنوبًا، وكان بهذا الربض أسواق كثيرة منها سوق العطارين والكمادين والصدافين والحصارين واللجامين. ويقع مسجد المسلمين -وكان مسجدًا يؤدي فيه المدجنون شعائر دينهم- بالقرب من سوق الكمادين. وما زال هذا المسجد قائمًا حتى يومنا هذا، أما ربض اليهود فكان يقع غربي المدينة وكان يعرف بالربض البراني لأنه يتجاوز المدينة.

ويقع بشمال المدينة ربضها الشهير، ويقع فيما بين بابي مردوم وشاقرة. وكان بطليطلة مساجد كثيرة يذكر منها مسجد ابن ذني القاضي. وكان قائمًا بالحزام من طليطلة ومسجدان أقامهما فتح بن إبراهيم الأموي المعروف بابن القشاري أمدهما بالجبل البارد والثاني بحي الدباغين.

٥- مدينة المريّة

مدينة المريّة إسلامية البناء مستحدثة الإنشاء أمر ببنائها الخليفة عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر لدين الله سنة ٣٤٤هـ - ٩٥٥م، واسمها مشتق من وظيفتها، إذ كانت تُتخذ مرأى ومرصدًا بحريًا لمدينة بجانة القريبة منها والتي لا تبعد عنها سوى أربعة أميال غربًا، ويسكن في بجانة منذ الفتح الإسلامي للأندلس بعض القبائل العربية اليمنية. فلما قامت دولة بني أميّة في الأندلس كان لابد أن تظهر بأنها دولة بحرية بسبب طبيعتها الجغرافية وعزلتها بالنسبة للعالم الإسلامي. وظلت فيها القبائل اليمنية حتى جاء البحريون المولّدون، وتغلبوا على ما كان فيها من القبائل العربية وصار الأمر لهم. جمعوا الحارات المتفرقة بهذه المدينة وبنوا سورها وما لبثت بجانة أن أصبحت منذ أن استقر فيها البحريون سنة ٢٧١هـ / ٨٨٤م، مدينة عظيمة فأمها الناس من كل مكان فرارًا من الفتن التي اشتعلت نيرانها وقتئذ في الأندلس. وكانت الميرة وضروب المرافق والتجارات تجلب إليها من العدوة. وكان ذلك سببًا من الأسباب الداعية إلى قصدها واستيطانها ثم أصبح لها أسطول يرسو على شاطئ المرية.

وقد أصبحت المريّة قاعدة لإقليمها وأقام فيها المسلمون في عهد عبد الرحمن الناصر كثيرًا من المنشآت العمرانية وحتى اتخذت في أيامه طابع المدن وحاطها بسور منيع وأقام بها القلعة الحصينة المعروفة بقلعة خيران نسبة إلى خيران العامري الذي ولّاه عليها المنصور بن أبي عامر فيما بعد. كذلك أقام بها عبد الرحمن الناصر دار الصناعة لقطع الأسطول.

وأصبحت في عهد المستنصر أهم موانئ الأندلس الإسلامية في القرن العاشر الميلادي. وكان يرسو في خليجها العميق أغلب وحدات الأسطول الأندلسي في العصر الأموي. واتخذها قائد البحر في الأندلس عبد الرحمن بن الرمامس قاعدة له للإرساء والإقلاع.

والواقع أن خلفاء بني أميّة اهتموا باصطناع سياسة بحرية، وعملوا على إعداد الأسطول القوي الذي يدفع عن الأندلس الأخطار الناشئة من غارات النورمانديين، وقد اهتم عبد الرحمن الناصر خاصة بتجهيز هذا الأسطول. وأمر عبد الرحمن سنة ٣٠٢هـ بإنفاذ هذا الأسطول إلى مضيق جبل طارق ليمنع تلقي ثوّار الجنوب الإمدادات من الساحل الأفريقي، وكان لهذا الأسطول الفضل الأكبر في الاستيلاء على مليلة وسبتة. وأمر الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٤هـ ببناء مركب كبير للغاية في دار الصناعة بالمرية وخصص هذا المركب لنقل البضائع إلى المشرق، واستطاع بحّارة هذا المركب أن يستولوا على مركب آخر من صقلية كان يحمل بريدًا للخليفة الفاطمي مما اضطر المعز لإرسال أسطول بقيادة حاكم صقلية على المريّة فنزل شاطئها وأحرق ما كان راسيًا من المراكب، ونزل فريق من البحّارة الفاطميين إلى المدينة فأحرقوا ودمروا كل ما صادفهم في طريقهم، وأسروا عددًا كبيرًا من الأهالي وحملوهم معهم إلى صقلية. وقد رد الناصر بحملة بحرية على مرسى الخرز ودمّر كل منطقة سوسة.

واحتفظت المرية في عصر ابن أبي عامر بالمركز السامي في السيادة البحرية، واستخدم المنصور بعض وحدات هذا الأسطول في حملاته على ساحل قطلونية وجليقية سنة ٣٧٤هـ، وكانت المرية مركزًا للسفن القادمة من المشرق، وكانت تقصدها السفن التجارية من جميع بلاد البحر المتوسط.

واشتهرت المرية بصناعة المنسوجات الحريرية بشتى أصنافها ما يصنع فيها من صنوف أنواع النحاس والحديد إلى سائر المصنوعات.

وانفردت المرية بصناعة الزجاج والفخار المذهب. وكان ميناؤها يزخر بالمراكب الغزوية الخاصة بالحروب والغارات والمراكب التجارية المختلفة.

أما دار الصناعة في المرية فقد ظلت في أتم حالات نشاطها حتى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي على الأقل.

وفي عصر ملوك الطوائف تغلب على المرية وأعمالها خيران العامري فتى المنصور بن أبي عامر، وقد كان قد نال الرئاسة على الصقالبة وحظي بالشهرة على سائر ممالك الأمويين والعامريين بعد انقراض الدولة العامرية. وكان خيران قد هرب من قرطبة إلى شرق الأندلس واستقر بقصر أريولة ثم تقدمت جيوشه من مرسية إلى المرية عام ٤٠٥هـ —

١٠١٤م، واستولى على القصبة وقتل حاكمها واتخذ المرية حاضرة له وقاعدة لسلطانه. ثم تسلم الحكم بعده زهير العامري فرضي به الناس وامتدت حدود المرية ومملكتها إلى قرطبة وضواحيها ثم سقطت بيد معن بن صمادح ثم تبعه ولده أبو يحيى محمد بن معن فارتقى ذروة الإمارة وتلقّب بألقاب الخلافة. لكنه أخلد إلى حياة السلم وقنع بمملكته الصغيرة. لكنه استقبل الشعراء وشجعهم وكان محبًّا للعلوم والفنون والعمران فأقام الكثير من المنشآت وابتنى قصرًا سمّاه بالصمادحية، واستغرق في حياة الترف حتى ضعف وضعفت مملكته، حتى تعرضت للقشتاليين فاستنجد أهل المرية بالمرابطين الذين ردوا عنهم خطر القشتاليين إلى حين. وعندما قدم يوسف بن تاشفين على رأس جيش المرابطين وضم إليه المدن جاهر ابن صمادح بالعصيان لكن جيوش المرابطين اقتحمت المرية سنة ٤٨٤هـ، ومات ابن صمادح أثناء الحصار فاستسلم ابنه الذي تسلم حكم البلد أثناء الحصار لاسيما أنه سمع بسقوط ابن عباد. وتقول بعض الروايات إن هذا الابن خرق سور المدينة وهرب منها في بعض السفن مع ما حمله من الذهب والمتاع.

ظلت المرية تابعة للمرابطين حتى ضعف أمرهم فثار عليهم أهلها وطردوا من كان فيها منهم، ثم عيّنوا عبد الله بن محمد الرميمي حاكمًا عليها إلى أن دخلها القشتاليون عام ٥٤٢هـ / ١١٤٧م، فقتلوا أهلها وسبوا نساءها ونهبوا أموالها. وحاول الموحدون دخولها وإنقاذها لكنهم لم ينجحوا في تخليصها من العدو ثم وبعد عشر سنوات من احتلال القشتاليين لها خلّصها الموحّدون من أيديهم. وظلت المدينة في تجاذب بين القشتاليين والموحّدين. وفي أواخر حكم الموحّدين قام في المرية أبو عبد الله بن الرميمي بدعوة محمد بن يوسف بن هود الجزامي ملك مرسية سنة ٦٢٥هـ فولاّه ابن هود وزارته في مرسية. إلاّ أن الرميمي كان يطمع بامتلاك المرية ثم غدر بابن هود وقتله غيلة واستلم حكم المرية. ولما استولى بنو الأحمر على بعض المدن الأندلسية هاجمت قواتهم المرية، فهرب الرميمي منها إلى تونس ودانت إلى حكم الغالب بالله محمد بن نصر سنة ٦٣٥هـ.

واتسعت المرية بمن وفد إليها من مسلمي الأندلس الذين هربوا من المدن التي احتلها القشتاليون، وظلت المرية المنفذ الوحيد الذي تصل إليه الإمدادات والمؤن من بلاد المغرب إلى مملكة غرناطة حتى تقدمت إليها جيوش فرناندو وحاصرتها، ولم تطل مقاومتها فسلمت وذلك عام ٨٩٥هـ / ١٤٩٠م.

تنقسم المرية إلى المدينة القديمة وكانت تتوسط المنطقة وقد شملت على الجامع الكبير ودار الإمارة والفنادق والحمامات. ويخترق المدينة طريق يمتد من باب بجانة حتى البحر مارًا بالمسجد الجامع. وكان يحيط بالمدينة سور منيع بناه الخليفة عبد الرحمن الناصر وكان ينفتح من هذا السور باب يعرف بباب بجانة وتقع في خارجه مقبرة تعرف بمقبرة باب بجانة. وإلى شرق المدينة كان ربض المصلى، وكان أكثر مراكزها ازدحامًا بالسكان، وقد حاطه خيران العامري بسور منيع بناه من التراب عام ١٠١٥م، وأوصل إليه الماء من جبل لاهم وأجراها في ساقية حتى المدينة. وكان ينفتح في سور الربض باب يعرف بباب موسى. وإلى غرب المدينة يوجد الربض الثاني وهو ربض الحوض وكان كبيرًا عامرًا بالأسواق والدور والفنادق.

ويحمي المدينة ذاتها من الشمال مرتفع تتوجه القصبة التي تشرف على المجموع العمراني للمدينة وقوام بناء الأسوار خليط من الملاط وتسندها أبراج تتجاوز السور في ارتفاعها. وبالجزء الأعلى منها غرفات داخلية وتعلو الأبراج والأسوار شرفات رؤوسها هرمية مدببة. وفي الجزء الجنوبي من قصبة المرية خزان للمياه يتكون من ثلاثة أروقة.ولم يبق من آثارها إلا القليل خاصة بعد أن حوّل مسجدها إلى كنيسة بعد الاحتلال القشتالي لها.

٦- مدينة مرسية

وتقع هذه المدينة على وادي شقورة قرب مصب نهره. وتقع هذه المدينة شرق الأندلس وهي محدثة أسسها عبد الرحمن الأوسط سنة ٢١٦هـ / ٨٣١م، لتقوم مقام مدينة إلّة الحاضرة القديمة لكورة تدمير. وقد خططها جابر بن ملك بن لبيد واتخذها منزلاً للولاية. ولما ضعفت السلطة المركزية بقرطبة في عهد الأمير عبد الله بن محمد، وقامت الثورات في سائر الأندلس استقل ديسم بن إسحق المولد بمرسية ولورقة. ولم تدخل مرسية في فلك الخلافة القرطبية إلا بعد أن أرسل عبد الرحمن الناصر وزيره إسحق بن محمد القرشي على رأس جيش كبير فانتزعها من الثوار.

وازدهرت مرسية في عصر الخلافة وعمرت وأصبحت من حواضر الأندلس الكبرى حتى سقطت الخلافة الأموية بقرطبة وتمزّقت وحدة الأندلس وقامت دويلات وطوائف فأصبحت مرسية من نصيب خيران الفتى العامري الذي استقل بها واستولى على قلعة

أريولة ونازع الموفق مجاهد العامري صاحب دانية. ولما هزمه مجاهد استنجد خيران بمحمد بن المظفّر بن عبد الملك بن أبي عامر وتنازل له خيران عن مرسية وأريولة.

وظلت تنتقل سلطة مرسية من أمير لآخر حتى استولى عليها ابن عمار وحاول الاستقلال بها لكنها آلت إلى المعتمد بن عباد ومن بعدهم للمرابطين الذين قضوا على ممالك الطوائف ولما ضعف أمرهم ثار أهل الأندلس عليهم وطردوا ولاتهم، وضبطوا أمور بلادهم بأنفسهم وعندما تولى مرسية الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد الجزامي المعروف بابن مردنيش سنة ٥٤٢هـ، استقل بشرق الأندلس وضم إليه الحصون المجاورة فعظم شأنه واشتهر ذكره.

وعندما دخل الموحّدون الأندلس حاول ابن مردنيش التصدي لهم فاستبقهم لاحتلال بعض المناطق واصطدم بهم حتى هزموه أخيراً سنة ٥٦٠هـ / ١١٦٤م، وحاصروا مرسية لكنهم أقلعوا عنها ثم عاودوا الهجوم على مرسية فانتصر الموحدون على جيش ابن مردنيش. ثم استسلمت المدينة ودخلها الموحّدون. لكن الأمور لم تلبث أن تغيّرت ضد الموحدين.

فلما ضعفوا استأثر بمرسية أبو محمد عبد الله بن أبي يوسف. وأطلق على نفسه أميراً على مرسية ولكن المغاربة قتلوه. وثارت الفتن بين الحكام حتى قام أمير من الجزاميين أصحاب سرقسطة بالاستيلاء على مرسية ودانت له جيان وقرطبة وماردة وبطليوس وملقة والمرية وأشبيلية بالطاعة. وبعد موت هذا الأمير ويدعى أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود. استغل الأسبان الفرصة فغزوا بلنسية واحتلوها. ولم يجد أهل مرسية بدًا من تولية أمير قوي عليها للتصدي للنصارى. فعيّنوا أبا بكر عزيز بن أبي مروان بن الخطاب إلا أنه لم يستطيع إدارة مرسية والتصدي للنصارى. ثم حكم مرسية أبو جميل بن مردنيش. لكن العهد لم يطل به حيث آثر أهل مرسية الاستسلام لملك قشتالة ودخل النصارى إلى مرسية صلحًا عام ٦٤١هـ / ١٢٤٣م.

كانت مرسية مدينة كبيرة في العصر الإسلامي واشتهرت بصناعة الديباج، واختصت دون غيرها بصناعة البسط التنتلية التي كانت تصدر منها إلى سائر بلاد المشرق كذلك اشتهرت بصناعة الحصر المزخرفة التي تغلف بها الجدران، وكان فيها جامع جميل وحمامات عدة وأسواق عامرة. كما كان فيها ربض تحيط به الأسوار المنيعة وتشقه مياه

جـدول. أما المدينة نفسها فتقع على ضفة نهر شتورة ويصل إليها العابر عن طريق قنطرة تقوم عـلى مراكـب. وكـان لها عدة أبواب وأهمها الباب الذي ينفتح من سورها الغربي. وكـان في المديـنة كـثير مـن المساجد، منها مسجد محمد بن سكرة ومسجد الجرف بجوار باب ابن أحمد ومسجد ابن أبي جعفر.

وكانـت مرسـية بلـد العـلم والأدب وقـد وفـد مـن علمائها عدد كبير من المشرق وعلى الأخـص مـن مصـر من بينهم أبو عبد الله محمد بن يوسف المرسي المتخصص بعلم الكلام والفقـه. وقد زار الديار المصرية ونزل الإسكندرية في سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م، ومنهم الشيخ الـزاهد الكـبير أحمد أبو العباس المرسي وكان من أكابر الأولياء ووارث شيخه أبا الحسن الشاذلي وقد وفد أبو العباس إلى الإسكندرية وأقام بها حتى مات فيها.

٧- مدينة مالقة

دخـلـها المسـلمون سنة ٧١٣م، على يدي عبد الأعلى بن موسى بن نصير وقيل إنه لَمّا حاصـر مالقـة وكـان ملكها ضعيف الرأي قليل الحيلة. وقد وقع في الأسر بعد أن استطاع المسلمون محاصرة مالقة. ولما سقطت الخلافة الأموية استقل فيها بنو حمود وجعلوها مقرًا لحكمهـم. ولـما جـاء يوسـف بـن تاشـفين إلى الأندلـس. اسـتطاع أن يعـزل أميرها وينفيه وينصـب خلفًا له مواليًا للمرابطين. وظلت تدين مالقة للمرابطين حتى ضعف أمرهم واتفق الـناس عـلى خلع ولاتهم. ثم استقل بها القاضي أبو الحكم حسون. حتى سُلّمت أخيرًا لـلموحدين. ولـما سقط الموحّدون ضمّها محمد بن يوسف بن هود إلى مملكته مرسية وأخيراً استولى يوسف بن نصر ملك غرناطة على مالقة وظل أبو محمد يحكم ملقة -هو صخر بن يوسـف بـن نصـر- إلى أن تُـوفي فـتملكها أبـو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف الملقب بالفقـيه، وقـد حـاول ملك قشتالة سنة ١٣٤١م، أن يستولي على المدينة من البحر ولكنه فشـل في حملته وتكرّرت المحاولة برًا في بسائط مالقة سنة ١٤٣٥م، في عهد إنريكي ملك قشتالة دون جدوى.

وفي عـام ٨٨٧هـ / ١٤٨٢م، تقدمت جيوش قشتالة نحو مالقة الثغر الوحيد الذي بقي للمسلمين والذي تصل الإمدادات إليه من المغرب، وقد دارت معارك مع القشتاليين الذين هُـزموا أمـام جـيوش مالقـة. لكـنهم أعادوا الكرة فاحتلوا مدنًا كثيرة حول مالقة واستولوا عـلى الحصـون المحـيطة بالمدينة. وحاصروا المدينة لكنَّ قائدها حامد الثغري استبسل في

الدفاع عنها ورفض المسلمون المحاصرون فيها تسليمها وشدد القشتاليون الحصار حتى انقطعت الأقوات وفتك بالناس الجوع والمرض، ولم ير أهلها بدًا من التسليم فسلمت. ثم استلمها آل حمود الذين احتلوا قرطبة. لكن النزاعات العائلية أضعفت مالقة حتى انقرض ملكهم ثم استولى عليها ملك غرناطة وتعاقب أحفاده على حكمها. لكن القشتاليين استطاعوا أخيراً احتلال المدينة.

كانت مالقة في العهد الإسلامي إحدى القواعد الكبرى بالأندلس. وكانت مدينتها تمتد ما بين القصبة ورملة (وادي المدينة) الذي ينبع من المرتفعات المجاورة. ويتوسّط المدينة جامعها بالقرب من البحر وتقوم عليه اليوم كنيسة ويرجع بناء هذا المسجد إلى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط، وكان بيت الصلاة فيه يحتوي على خمس بلاطات وكان في المدينة مساجد كثيرة منها مسجد العطارين، ومسجد الغبار. وكان للمدينة باب رئيسي. أما قصبة المدينة فتقع شرقيها، ويحيط بها سور من الحجر وهي في غاية الحصانة والمناعة. ويحيط بالمدينة سور فتحت فيه خمسة أبواب منها باب يعرف بباب البحر، وباب شرقي يعرف بباب الوادي، وباب جوفي يعرف بباب الخوخة. وكانت المدينة تزخر بالمباني الفخمة والحمامات والأسواق الجامعة الكثيرة.

وكان يصنع بمالقة الفخار المذهب ويُجلب منها إلى أقاصي بلاد الأندلس كما يُصنع فيها الزجاج الملون. ومن أهم آثارها الإسلامية القصبة وبداخلها قصر باديس وبقايا دار الصناعة من عهد بني الأحمر. وقد وصفها ابن بطوطة الرحالة العربي. كما تحدّث عنها الشقندي فوصف ما بها من مواضع وكروم متصلة وبروج عالية وبساتين التين المشهورة فيها. إضافة لما ذكرناه عن المدن الهامة في الأندلس فإن مدنًا أخرى لا تقل أهمية عنها عرفت أسس الحضارة ولكنها مرّت عليها الظروف نفسها في كافة العهود التي مرّت بها الأندلس، ومن هذه المدن لشبونة الواقعة غرب الأندلس على المحيط الأطلسي. ومدينة بطليوس الواقعة في وادي آنة أو يانة وكانت حاضرة بلاد الجوف بغرب الأندلس في عهد ملوك الطوائف. ومن المدن أيضًا سرقسطة وهي مدينة كبيرة في شمال شرقي الأندلس على الضفة اليمنى على نهر أبرة. وكانت قاعدة الثغر الأعلى بالأندلس.

وكذلك مدينة بلنسية التي تعتبر قاعدة شرق الأندلس وأعظم مدائنه وهي مدينة سهلية خصبة كثيرة الخيرات وكانت تعرف بمدينة التراب لخصوبة تربتها.

ومدينة ماردة التي تقع على وادي (آنَة) قرب بطليوس. ومدينة الزهراء التي أسسها المسلمون ولم يكن لها وجود قبل الفتح الإسلامية.

وأخيرًا فهناك جزر شرقية ثلاث في البحر المتوسط تقع شرقي بلنسية. وأكبرها جزيرة ميورقة، وأوسطها منورقة، وأصغرها يابسة، وتعتبر الأولى من أخصب بقاع الأندلس، ويبدأ التاريخ الإسلامي لهذه الجزر الشرقية سنة ٧٩٨م، وهي العام الذي فتحها فيه عبد الله بن موسى بن نصير [١].

---

(١) المعلومات الواردة عن المدن مقتبسة من كتاب في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم.

الفصل الثالث

معالم الحضارة العربية في الأندلس

لا شك أن أية حضارة من حضارات العالم تقوم على جانبين مادي وروحي. ويتكامل الجانبان لدى العقل البشري أو الشخصية البشرية، بحيث لا يغلب جانب على جانب لأن طغيان جانب على آخر يعني تدمير هذه الحضارة مهما بلغت من التحضر والرقي والتقدم. وحضارة الأندلس التي دامت حوالي ثمانية قرون حفلت بالجوانب المادية وإلى جانبها الجوانب الروحية والعقلية، وخضعت مثل غيرها من الحضارات لقانون التغيير من القوة إلى الضعف، ومن الضعف إلى القوة مرة أخرى، حتى كان سقوطها الأخير على أيدي القشتاليين والبرتغاليين.

والحقيقة أن هذه الحضارة لم تختلف في كثير عن حضارة العرب في العصر العباسي، بما حفلت به من عمران وبناء وعلم وعلماء وشعر وشعراء وموسيقى وغناء بل إننا نجد أن المشرقيين يرحلون إلى الأندلس حاملين معهم مخزونًا من العلوم والآداب وعلوم الدين والدنيا ليصبوها في حضارة الأندلس العربية.

ومنذ البداية نرى أن الذين تدفقوا يفتحون مدن الأندلس كانوا عربًا يحملون معهم ذلك المخزون العربي من الثقافة والفكر والدين، ذلك المخزون الذي جلبوه في عقولهم ووجدانهم من دمشق حاضرة الأمويين.

ومما ساعدهم في بناء هذه الحضارة وجود أرض صالحة للبناء صالحة للإبداع. وقد ذكرنا سابقًا كثرة العناصر البشرية المختلفة في هذه الأرض بحيث امتزجت وشكلت عنصرًا جديدًا. صنع الحياة والحضارة، فللعرب حضارتهم وأذواقهم، وكذلك البربر الذين دخلوا الإسلام بشكل سريع وكذلك أهل البلاط الأصليين من الأسبان، إن هذا الامتزاج خلق لدى العنصر الجديد مصلحة واحدة مشتركة هي بناء المنطقة حضاريًا وثقافيًا.

إن موقع الأندلس وطبيعتها الجغرافية ساعدا في تأسيس الحضارة الأندلسية. فالحياة وفيرة لوفرة الأنهار، وتطل سواحلها على المتوسط من الشرق، وعلى المحيط من الغرب، وفيها مجموعة من الجبال الخضراء المجملة للطبيعة والمانحة للناس الراحة والإبداع والطمأنينة. وإلى جانب ذلك كله لا يفصلها عن المغرب وإفريقيا سوى مضيق جبل طارق، وهذا ما سهل انتقال الكثير من المعارف والعلوم وأسباب العمران في أراضيها، ومع ذلك

فقد كان لسفنها دور كبير في التجارة الخارجية مع بيزنطة وبلاد المشرق العربي. وبشكل عام فإن مناخها المتوسطي لم يختلف عند العرب عن مناخ الشرق، وهذا ما ساعد على التأقلم السريع مع بيئتها، ويعتبر العمران من أهم المعالم الحضارية في أية حضارة قديمة. فجميع الحضارات القديمة قيست قوتها وتقدمها بما قدمته من عمارة ومنشآت معمارية.

وفي الأندلس كان من الطبيعي أن تنقسم العمارة إلى أقسام، وأهمها: العمارة الدينية التي كانت تركز على بناء المساجد وزخرفتها، والعمارة المدنية بما تحويه من قصور وأسواق وجسور وقناطر ومنشآت مدنية أخرى.

لقد حمل العرب معهم دينهم الإسلامي، وكان يستلزم هذا الدين بناء المساجد لما لها من أهمية في حياة المسلمين. فهي دور للعبادة بالدرجة الأولى، وهي منطلق الجيوش ومراكز التخطيط الحربي والقضائي وغيرها. وقد رأينا في الفصل السابق كيف صب الملوك والأمراء أول جهودهم في بناء المدن على بناء المساجد الجامعة. وهذا طبعًا جريًا على سنّة الرسول ﷺ، وجريًا على سنة الصحابة والخلفاء، وقد حوى المجتمع الأندلسي عناصر مختلفة غير العنصر الإسلامي. فقد وُجد المسيحيون واليهود. وكان لابد من وجود أماكن العبادة الخاصة بهم. فوجدت الكنائس ودور العبادة اليهودية المسمّاة الكُنُس.

المساجد

ومن أهم المساجد التي عرفتها الأندلس المسجد الجامع في قرطبة. وهو من أعظم الآثار الإسلامية، ومن أروع الأمثلة على العمارة الإسلامية والمسيحية على السواء في العصور الوسطى. وقد حظي هذا المسجد بعناية كبيرة من مؤرخي المغرب والأندلس، لما حواه من أساليب العمارة الأندلسية التي اندمجت فيها أذواق عدة، حتى استطاعت أن تعبر عن العمارة الأندلسية الخاصة المتميّزة.

وعندما وسَّعه عبد الرحمن الداخل أصبح يشمل تسعة أروقة عمودية على جدار القبلة الرواق الأوسط وهو أكثرها اتساعًا وارتفاعًا. وتتألف الأروقة من صفوف متوازية من أحد عشر قوسًا على شكل حدوة الفرس. وظيفتها ربط الأعمدة فيما بينها. ويتناوب في هذه الأقواس الآجر الأحمر، وقطع الحجارة الصفراء، مما يكسب المسجد مظهرًا زخرفيًا بسيطًا. وتقوم هذه الأقواس على أعمدة رخامية تعلوها تيجان قديمة من الكنائس الخربة

في قرطبة. وتعلو الأقواس المذكورة صفوف أخرى من أقواس نصف دائرية قائمة على دعائم مربعة. ووظيفتها حمل الأسقف، ويسند جدران المسجد من الخارج ركائز قوية تضفي على المسجد مظهر القلاع.

وكان فناء المسجد مغروسًا بالأشجار، شأنه في ذلك شأن جميع المساجد في الأندلس، ولم يبق المسجد على حاله، بل وسع وطُور بناؤه عدة مرات فبنى مئذنته هشام بن عبد الرحمن. وتوسع المسجد في زمن عبد الرحمن الأوسط. وقد زاد عليه رواقين جانبيين إلى الأروقة التسعة السابقة. وقد شرع عبد الرحمن الناصر ببناء مئذنة كبيرة. أما ابنه المستنصر فقد وسع المسجد وزاد في أقواسه وأقام فيه قبة كبيرة إلى جانب القبة الأصلية. وقد زين المسجد بالفسيفساء خاصة بجانب المحراب وأجرى الماء إلى سقايات الجامع، وأقام منبرًا مركبًا.

وفي زمن المنصور بن أبي عامر، زاد ثمانية أروقة جديدة وهي في الجهة الشرقية، وذلك حين ضاقت قرطبة بمن وفد إليها من البربر.

وتتمثل الأصالة المعمارية في قباب المسجد وقوامها هيكل من الأقواس البارزة، تتقاطع فيما بينها، بحيث تترك فراغًا تشغله قبّة مفصصة، وقد كُسيَ ما بين تقاطع الأقواس بالزخارف الجميلة، وقد انتشر نظام الأقواس المتقاطعة في القباب بأسبانيا المسيحية انتشارًا كبيرًا.

أما المسجد الجامع الثاني الذي يعتبر من أهم المعالم المعمارية في الأندلس، فهو جامع عمر بن عدبس بأشبيلية. وقد أمر بتشييده الأمير عبد الرحمن الأوسط بأشبيلية، وقد بناه القاضي عمر بن عدبس سنة ٢١٤هـ / ٨٢٩م، وقد سجّل انتشار الجامع في نقش كوفي على عمود من الرخام. وهذا الجامع لم يتعرّض لأي زيادة على عكس جامع قرطبة. ولّما ضاق بالمصلين، بنى الموحّدون جامعًا آخر وهو جامع القصبة الكبير. وكان هذا المسجد يحتوي على أحد عشر رواقًا عموديًا على جدار القبة. وكانت المئذنة تستند على الجدار الشمالي للجامع. وتبرز خارج هذا الجدار قليلاً. أما بهوه فكان مزروعًا بالأشجار وخاصة أشجار البرتقال والنارنج. كما كانت تتوسطه نافورة على شكل محارة. وقد تعرض سقف هذا الجامع للحرق بسبب هجوم النورمانديين على أشبيلية، حتى جاء المعتمد بن عباد فأصلحه. ثم تشققت جدرانه ومالت فأصلحه الخليفة الموحّدي أبو يوسف يعقوب المنصور، وأقام له ركائز قوية تسند جدرانه الغربية من الميل.

وقد حُوِّل الجامع إلى كنيسة عندما احتل القشتالون أشبيلية سنة ١٢٤٦م. ثم هُدِم المسجد بسبب زلزال قوي فبُنيت مكانه كنيسة جديدة.

وهناك مسجد يدعى مسجد الباب المردوم بطليطلة. وقد أقامه أحمد بن حديدي من ماله الخاص. وتم بناؤه على يدي موسى بن علي. والمسجد صغير المساحة مشيّد من الحجر الجرانيتي والآجر. وبيت الصلاة فيه مربع الشكل طول كل جانب من ثمانية أمتار. ويتألف من ثلاثة أروقة طولية، تقطعها ثلاثة أروقة عرضية، بحيث يحدث من ذلك التقاطع تسعة أساطين تفصل بينها أربعة أعمدة تيجانها قوطية قديمة، يتفرع منها اثنا عشر قوسًا في شكل حدوة فرس، ويعلو كل أسطوان من الأساطين التسعة قبة تتقاطع فيها الأقواس على النحو الذي رأيناه في قرطبة. والقبة الوسطى أكثر ارتفاعًا من القباب الأخرى. أما واجهة المسجد الرئيسية، وهي الواجهة الجنوبية الغربية فتطل على الطريق المؤدي إلى الباب المردوم بثلاثة أقواس في أعلاها نقش كوفي يتألف من قطع من آجر بارزة على سطح البناء داخل إفريز بين صفين من الأسنّة البارزة، ويسجل هذا النقش تاريخ البناء. والقوس الأيمن من هذه الأقواس متجاور على شكل حدوة فرس على نمط نظام أقواس جامع قرطبة. والقوس الأيسر مفصص، أما الأوسط فهو جديد. ويعلو هذه الأقواس الثلاثة – التي تعتبر أبوابًا لبيت الصلاة – أقواس صغيرة متقاطعة.

والواجهة التي تطل على بهو المسجد تتألف من ثلاثة أقواس متجاورة هي بمثابة أبواب تعلوها ستة أقواس متجاورة صماء يتناوب اللونان الأبيض والأحمر نتيجة تعاقب قوالب الحجر والآجر على نظام أقواس جامع قرطبة.

وهناك المسجد الجامع بالمرية: وكان يتألف من خمسة أروقة عمودية، على جدار القبلة، الرواق الأوسط منها كان أكثر الرواقات اتساعًا. وكان يعلو المحراب المربع قبّة صغيرة مفصصة. وكان نظام البناء في جدار المحراب الذي حفظ لنا اليوم، يخضع للنظام القرطبي القائم على آدية وشناوي. أي يتناوب حجرين موضوعين عرضًا مع حجر موضوع طولاً.

وقد زيد على هذا الجامع زيادة من جوانبه الثلاثة الشرقي والغربي والشمالي. أما الزيادة فكانت رواقين واسعين. وقد امتازت هذه الزيادة بزخرفتها الجميلة، وأضاف عليها الموحّدون بعض الزخرفات والإصلاحات، وبعد أن تعرّض للتخريب على يد

القشتاليين. وكان صحنه مغروسًا بأشجار الليمون والبرتقال، ومفروشًا بالرخام، كما تتوسّطه نافورة للوضوء، ولقد تحوّل هذا المسجد إلى كنيسة.

أما جامع الموحّدين بأشبيلية: فقد شرع ببنائه أبو يعقوب يوسف سنة ٥٦٧هـ / ١١٧٢م، وقد عهد ببنائه إلى جماعة من المهندسين والخبراء. وقد قلنا إن سبب بنائه هو ضيق جامع أشبيلية بالمصلين. وكان يشتمل على سبعة عشر رواقًا عموديًا على جدار القبّة. الرواق الأوسط منها أكثر البلاطات اتساعًا. وكانت أقواس الجامع متجاوزة منكسرة تستند على دعائم من الآجر، وكان يدعم جدران الجامع الخارجية ركائز ضخمة لدفع الناشئ من الأقواس. وقد أكملت مئذنته في زمن أبو يوسف يعقوب، وتم بناؤها بعد الانتصار على القشتاليين في معركة الأرك سنة ١١٩٥م. وبعد سقوط أشبيلية تحول الجامع إلى كنيسة، وتحوّلت المئذنة إلى برج النواقيس.

وهناك المسجد الأعظم بقصر الحمراء. ويقع إلى الجنوب من بهو السباع في قصر الحمراء. وقد بُني هذا الجامع من الآجر، وكان طوله ستة عشر مترًا، أروقة طولية تقطعها ثلاثة أروقة عرضية، وتستند أقواسه على ثمانية أعمدة ارتفاع الواحد منها ١,٩٦م. وكانت المئذنة تقوم في الركن الغربي من المسجد.

من الطبيعي أن تقام الكنائس لأتباع المسيحية الذين ظلوا مواطنين في الدولة العربية الإسلامية. وهؤلاء قد تأثروا بالثقافة العربية وتعرّبوا، حتى نسوا لغتهم، لكنهم تمتعوا بحرية دينية واضحة. وقد أبقت الدولة الإسلامية على كثير من كنائسهم وأديرتهم. ومنحتهم بناء كنائس جديدة، ولهم قاضيهم وزعيمهم الديني.

وقد كانت هذه الكنائس موجودة وظلّت قائمة في جميع المدن الأندلسية.

وقد بناها مهندسون نصارى على نمط كنائس المسيحيين في أسبانيا - قشتالة - ويعرف منها الكنائس المدجنة. إن ملوك أسبانيا وجدوا من بين المدجنين كثيرًا من أصحاب المهن الفنية والصناعات، كالنجّارين والفخّارين والبنّائين، فاستخدموهم في بناء الكنائس، فازدهر الطراز المدجن في الكنائس، وقد برز هذا الأسلوب في طليطلة باعتبارها أول مدينة سقطت بأيدي القشتالين.

أما كنس اليهود فقد انتشرت في طليطلة وقرطبة وغرناطة. وقد أقام اليهود كنيس طليطلة عام ١٣١٤م، على أنقاض كنيسهم القديم، وأصيب هذا الكنيس بأضرار بالغة منذ

أن طُرد اليهود نهائيًا من أسبانيا سنة ١٥٤٢م. وما زالت طليطلة تحتفظ إلى اليوم بكنيسين، ويعتبر أحدهما من روائع الفن المعماري المدجن. وكان يشتمل على أربعة أروقة تفصل فيما بينها أربعة صفوف من البوائك ذات الأقواس المتجاوزة على شكل حدوة فرس، وتقوم هذه الأقواس على عُمد مثمّنة الشكل.

العمران المدني في الأندلس

لعل العمران المدني في الأندلس يتّسع ليشمل كافة الحياة المدنية العمرانية. وأجزاؤها كثيرة حتى تشمل كافة المناحي التي يتفاعل معها الإنسان، وتكوّن جزءًا هامًا من حياته.

ويمكن أن يحصر المرء معالم البناء المدني في الأندلس على الشكل التالي:

١- القصور ومنها الخاص بالأمراء والخلفاء.

٢- الحمّامات والفنادق.

٣- القيساريات - المتاجر والأسواق.

٤- دور الصناعة والسكة والطراز.

٥- الأسوار.

٦- القلاع والقِصاب - والحصون والأبراج.

٧- القناطر - والأرصفة.

٨- المقابر - والدور العامة.

١ - القصور

عندما دخل المسلمون الأندلس استأثر أُمراؤهم وقادتهم ببعض المباني والقصور التي استولوا عليها من الأسبان. وكانت هذه القصور تنتشر في المدن الأندلسية القديمة، ولما استقر العرب وأخذوا بالبناء، بدأوا يبنون القصور الخاصة بهم وذلك في عصر بني أميّة. حيث ظلّت الأبنية القديمة مكان سكن للقادة والأمراء الذين دخلوا الأندلس، وظلوا كذلك حتى جاء عبد الرحمن الداخل وأسس الدولة الأموية، وكان من الطبيعي أن يحيط أمراء بني أميّة أنفسهم بهالة الملوك فارتأوا أن يشيّدوا القصور الخاصة بهم. وقد بدأ الحركة العمرانية عبد الرحمن الداخل، ونشطت وتوسّعت في عهد عبد الرحمن الناصر التي نالت الأندلس على يديه من المجد الرفيع ما نالت. كذلك شهدت الأندلس الحركة المعمارية نفسها في زمن ولده المستنصر، وكذلك في زمن المنصور بن أبي عامر.

وعلى الرغم أن عصر الطوائف شهد تراجعًا سياسيًا واضحًا وانقسامًا وضعفًا على المستوى العسكري والأمني، إلا أن الحركة العمرانية شهدت أقوى نشاط لها في هذا الزمن، والظاهر أن ملوك الطوائف تنافسوا فيما بينهم بإقامة القصور والمنشآت العمرانية المدنية وغيرها. ومن أشهر القصور التي بناها العرب في ذلك العصر قصر الناعورة بطليطلة، وقصر الجعفرية بسرقسطة، وقصر القصبة بمالقة، وقصر الصمادية بالمرية، وقصر الشراجيب بشلب. أما قصور قرطبة فقد أُطلِق عليها دور الإمارة. وذلك في زمن أمراء بني أميّة.

كان الأمراء والخلفاء يبنون قصورهم قريبة من الجوامع المركزية في المدن. وإلى جانبها كانوا يقيمون قصورًا صغيرة خارج المدن وذلك بقصد الاستجمام والراحة.

وتتخذ القصور مظهراً عمرانياً أشبه بالمدن الصغيرة. فقد كانت تتألف من قصور الأمير وأفراد حاشيته وخاصته. وحول هذه القصور فسحات لتربية بعض الحيوانات والطيور، وكلها مظللة بالشباك. وفيها أيضًا الحمامات والفنادق ودور للصناعة. غير أن هذه المدن الملكية كانت مؤقتة، حيث كانت تتعرض للتخريب والنهب خاصة عندما تسقط دولة أو أسرة فتأتي أسرة حاكمة غيرها.

فنرى مثلاً قصر الإمارة في قرطبة، وقد تداولته عدة أسر حاكمة في عصور مختلفة، وقد وصفه بعض المؤرخين فقال فيه ابن بشكوال: هو قصر أولي تداولته ملوك الأمم. ثم ابتدع الخلفاء من بني مروان في قصرها البدائع الحسان، وأثروا فيه الآثار العجيبة والرياض الأنيقة.

أما قصور الراحة فقد أقام عبد الرحمن الداخل في أول أيام إمارته عام ١٣٨هـ قصر الرصافة شمال قرطبة، وسمّاه باسم رصافة جده هشام بدمشق، وجعله خاصًا لنزهته وسكناه أكثر أوقاته. وقد غرس حوله الأشجار. وقد أدخل العرب زراعة النخيل إلى الأندلس.

وعندما غير الأمراء الأمويون ألقابهم وصاروا خلفاء، ارتأى عبد الرحمن بن محمد سنة ٩١٢م، أن يبني قصرًا يليق بمقام الخلافة فبنى قصر الزهراء على بعد خمسة أميال غربي قرطبة. وأقام محمد بن أبي عامر قصرًا آخر على نهر الوادي الكبير بالقرب من قرطبة وقد سمّاه بالزاهرة، وشيدت إلى جواره عدة قصور وثكنات للجند، حتى أصبح هذا

القصر نواة لمدينة سُميت بالزاهرة، وقد توسّع المنصور في تخطيطها وبالغ في رفع أسوارها فاتسعت المدينة وكمُل بناؤها بعد عامين. وقد اتخذ فيها ابن أبي عامر الدواوين، وبنى كبار قادته ورجال حاشيته عظيم الدور وشاهق القصور. وقامت بها الأسواق وكثُرت الأرفاق وأحاطها بالمينات والجنات.

وفي عصر الطوائف أقام المعتمد بن عباد ملك أشبيليا مجموعة من القصور منها قصر المبارك وقصر الثريا والقصر الوحيد والقصر الزاهي. وقصر المؤيد. كذلك أقام المعتمد قصرًا آخر خارج مدينة أشبيلية على الضفة الأخرى من نهر المدينة سمّاه قصر الزاهر أو حصن الزاهر. وكان من أجمل المواضع لديه وأبهاها وأحبها إليه وأشهرها. لإطلاله على نهر الوادي الكبير، وإشرافه على القصر العبادي، وجماله في العيون، واشتماله بالشجر والزيتون. وكان للمعتمد قصر جميل يُطل على بحيرة كبرى خارج باب جهور من أبواب أشبيلية. وهو الموضع الذي أقام فيه الخليفة الموحّدي أبو يعقوب يوسف قصره المعروف بالبحيرة.

قصر بني برزال بقرمونة

خضعت قرمونة لبني برزال البربر، وأقام أميرها قصرًا عظيمًا. فجعل فيه مجلسًا رائعًا سمّاه بالسامرة. وقد أُجريت في هذا القصر عدة إصلاحات، وأُضيفت إليه زمن الموحّدين، ثم أصيب بأضرار فادحة بعد الاسترداد، وقاسى من جراء التغييرات المعمارية العميقة التي شملت عمارته تغييرات قشتالية عندما استولوا عليه.

قصر الناعورة بطليطلة

وقد شيّده المأمون بن ذي النون ملك طليطلة في سنة ٤٥٥هـ / ١٠٦٧م. وصنع في وسطه بحيرة جعل في وسطه قبّة زجاج ملون منقوش بالذهب، وساق الماء على رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون. وقد وصف ابن حيّان هذا القصر، وذكر أن من مجالسه المجلس المكرم. قد كُسيت أجزاؤه السفلى بإزار من المرمر الأبيض الرقيق، ونُقشت فيه صور حيوانات بين أشجار وطيور تحطّ فوق ثمار.

وكذلك لهذا القصر بحيرتان نصبت على أركانهما تماثيل أُسود من الذهب والنحاس تشبه أُسود بهو السباع بغرناطة. يتدفق الماء من أفواهها. وفي القاع نُقشت رسوم طيور وأشجار على المرمر.

قصر الجعفرية بسرقسطة

وقد بناه أبو جعفر أحمد المقتدر بالله بن هود سنة ١٠٤٧م، وقد سُمي بالجعفرية نسبة إلى كنيته، وكان يسميه المقتدر مجلس الذهب.

والقصر على مسافة قصيرة من ربض المدينة على نهر إيرو. ويتألف من سور مستطيل يدعمه تسعة عشر برجًا أسطواني الشكل، عدا برج التكريم فقد كان مربع الشكل. وفي وسط هذا البناء فناء مستطيل تدور به أروقة جانبية، وكانت تطل على جانبيه مجموعتان من الغرف تتألف كل منها من قاعة وسطى وغرفتين جانبيتين كما هي الحال في قصور الحمراء. وقصور المدجنين. وإلى جانب برج التكريم قاعة كبيرة. كانت تتصل جنوبًا بالصحن وكان يقابله من الجهة الأخرى قاعة تسمى قاعة الرخام نسبة إلى كثرة أعمدتها الرخامية.

قصر بني حمود في قصبة ملقة

وأقامه يحيى بن علي بن حمود سنة ١٠٢١م. وقد اكتشف هذا القصر عام ١٩٣٦م.

قصور الموحدين في الأندلس

اهتم الموحدون بعد أن استولوا على قسم كبير من مدن الأندلس ببناء القصور، شأنهم شأن غيرهم ممن سبقهم من الملوك والأمراء والخلفاء. وقد حظيت أشبيلية حاضرة ملكهم بالقصور الموحدية. كما أن قوادهم بنوا لأنفسهم قصورًا على أطراف المدينة منها قصر أبي يحيى بقرطبة وقصر السيد بمالقة.

قصر أبي يحيى

وقد بناه أبو يحيى بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن خارج أسوار قرطبة على متن نهر الوادي الكبير، وتأنق ببنائه، وبالغ في إتقانه، وأنفق في بنيانه المال الكثير. ويغلب على الظن أن الذي بناه المهندس (يعيش المالقي) لأنه انتقل إلى قرطبة بعد سنة ١١٦٠م، لعمارة قصورها.

قصر البحيرة خارج باب جهور بأشبيلية

وقد بني عام ٥٦٧هـ/١١٧١م، وأقاموا فيه قصورًا ودورًا وزرعت جنائنه بالأشجار والفواكه وخاصة شجر الزيتون.

قصر أشبيلية

وقد أقامه أبو يوسف يعقوب على أنقاض أحد قصور المعتمد بن عباد، ولم يتبق من هذا القصر سوى قبة ذات اثني عشر عقدًا متقاطعة فيما بينها، وتشبه هذه القبة قبة المحراب بجامع تلمسان.

قصر الحمراء بغرناطة

ويعتبر هذا القصر من أضخم القصور الأندلسية. فقد بولغ بعمارته وطرأت عليه زيادات كثيرة. وينسب هذا القصر إلى أبي الحجاج يوسف الأول ١٣٣٤م، وقد شيد فيه أول ما شيد البرج المعروف بقمارش، وقصر متشوكة، والحمام الملكي وباب الشريعة وبرج الأسيرة ومصلى البرطل. وقد أكمله ابنه محمد الخامس، وينسب إلى يوسف الأول بناء السور الحصين الذي يحيط بمرتفع الحمراء بأبراجه وبوابته الكبرى، والمعروفة بباب الشريعة الذي ينم بناؤه عن أصالة وعن فن إسلامي خالص، وقد تم بناؤه سنة ١٣٤٨م، وفقًا لما ورد في النقش الكتابي، وقد أطلق عليه باب العدل كما أطلق عليه باب الشريعة نسبة إلى المصلى الذي كانت تقام فيه صلاة العيدين والابتهالات الدينية وقت الشدة والجفاف.

ومن أقدم قصور الحمراء قصر البرطل. ويتألف سقفه من خمسة عقود. ويطل البرطل على بركة ماء تزودها نافورة أسفل العقد الأوسط بالمياه. ويغطي الجدران شبكات من زخرفة المعينات. وعلى يمين البرطل مصلى ومسجد صغير. وقد بُني فيه برج الأسيرة الذي يضم بداخله قصرًا صغيرًا يتألف من قاعة أساسية فيها شرفات ومخادع جانبية ويتوسط البرج بهو داخلي صغير مزخرفة جدرانه.

أما قصر السلطان يوسف الأول. فهو أروع ما شيّده السلطان.

ويتوسط هذا القصر بهو الريحان، وفي جهته الشمالية برج قمارش الذي يشتمل في داخله على قاعة السفراء، ومن قمريات هذه القاعة يمكن مشاهدة مناظر خلاّبة. وقد زخرف القصر بزخارف جصية ملونة هندسية ونباتية وكتابية، ويعلوه سقف خشبي يعرف باسم رواق البركة، وتطل على بهو الريحان بائكة مؤلفة من سبعة عقود، العقد الأوسط منها هو أعلاها ارتفاعًا. وفي وسط البهو بركة مستطيلة الشكل تحف بها أشجار الريحان وفي مقابل بهو الريحان من الجهة الشرقية توجد الحمامات السلطانية، وهي من

أقدم أبنية القصر. وتؤلف هذه الحمامات مجموعة كاملة من الأبنية وترجع إلى عهد يوسف الأول الذي سجل اسمه في نقش كتابي.

وقد بلغت قصور الحمراء ذروة فنها في زمن محمد الخامس. حيث بنى هذا السلطان مجموعة قصر السباع. حيث عمد إلى بناء بركة على جدرانها اثنا عشر أسدًا تمج المياه من أفواهها. وبهو السباع على شكل مستطيل طوله ٢٨,٥ مترًا وعرضه ١٥,٧٠ مترًا. ونظام هذا البهو يماثل القصرين جوسقان مقببان تحملهما أعمدة رشيقة.

وفي القصر قاعتان جانبيتان للبهو شمالا وجنوبا هما من أروع ما حفل به الفن الإسلامي في الأندلس. فالقاعة الجنوبية وتعرف بقاعة بني سراج. يتوسطها حوض من الرخام به آثار بقع حمراء. وتعلو القاعة قبة جميلة نجمية الشكل. أما الشمالية المقابلة لها فاسمها قاعة الأختين نسبة إلى لوحتين كبيرتين من الرخام متماثلتين في الشكل تكسوان الأرضية، وتعلو هذه القاعة بالمثل قبة نجمية الشكل. وتؤدي هذه القاعة إلى شرفة تطلُ على حي البيازين. وجميع جدران هذه القاعة مكسوة بالزخارف الهندسية والنباتية المحتشدة، تتخللها كتابات كوفية ونسخية وفيها أدعية للسلطان [١].

لقد طبعت عمارة الأندلسيين بطابع خاص غير طابع الفنون الشرقية، وآثارهم الباقية في جميع مدن الأندلس تدل على عظمة ذوقهم. وكان الأندلسيون يجلبون الصور والتماثيل من البلاد الأخرى. وقلدوا بعض النقوش التي رأوها في كنائس أسبانيا وصقلية، وروى بعض المؤرخين أن ثلاثة أعمدة في مسجد قرطبة كانت عليها نقوش وصور، كان على أحدها صورة عصا موسى -عليه السلام- وعلى الثاني صورة أهل الكهف وعلى الثالث غراب النبي نوح- عليه السلام -. وأكثروا من عمل الآنية والأثاث ورسم الأشكال الهندسية العجيبة وعلى الأبواب وفي السقوف مما لا تزال آثاره باقية إلى اليوم [٢].

٢- الحمّامات والفنادق

تنتشر الحمامات في غالبية الدول العربية والإسلامية، وهو تقليد سار عليه المسلمون في المدن، ويرتبط بناء الحمامات بعدة أسباب منها أسباب صحية ومنها أسباب دينية.

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، ص٢٠٩.

(٢) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج٣، ص٤٢.

فالنظافة يرتبط بها المسلمون لما لها من علاقة بالوضوء للصلاة. وعادة ما تبنى الحمامات قرب المساجد بسبب الارتباط الديني بين الصلاة والنظافة. وإضافة لذلك فإن الحمامات تعتبر ظاهرة اجتماعية تقليدية لدى المسلمين، حيث من المعروف أنها تجمع عددًا من الناس يتسامرون ويتعارفون.

وفي الأندلس انتشرت الحمامات بشكل واسع خاصة في المدن، وقرب المساجد. وقد اهتم الأمراء والخلفاء ببناء الحمامات الخاصة في القصور، كما اهتم عامة الناس ببنائها قرب الأسواق والمساجد.

ففي قرطبة تبقى حمامان بجوار المسجد الجامع أحدهما يعرف في شارع بلاس كوميدياس، والآخر في شارع الحمام. ويتألف الحمام الأول من قاعة وسطى بها عقود مفرطحة ومتجاورة تحملها عشرة أعمدة، وكانت تعلو هذه العقود قباب لم يبق لها اليوم وجود بعد أن تحولت هذه القاعة إلى بهو.

وكثرت هذه الحمامات في المدن الأندلسية لدرجة أن عددها أصبح متقاربًا مع عدد مساجدها، ويذكر ابن حبان أن عدد حمامات قرطبة بلغ أيام المنصور بن أبي عامر تسعمائة حمام، ويذكر ابن عذارى المراكشي أن حمامات النساء بلغت ثلاثمائة حمام.

وقد اتخذ بعض ملوك الأندلس من الحمامات مسرحًا للجرائم السياسية، فقد احتال المعتضد بالله بن عباد على طائفة من رؤساء أعدائه البربر حتى زاروه بأشبيلية فأدخلهم الحمام مبالغة منه في إكرامهم، وما كادوا يدخلون قاعته الساخنة حتى سد عليهم الباب فهلكوا جميعًا.

وكان الحمام الأندلسي يتألف عادة من مدخل يؤدي إلى ثلاث قاعات أو أربع رئيسية مقببة تضاف إليها ملحقات الحمام من الموقد والمرحاض إلخ. وكانت هذه القاعات تتصل فيما بينها عن طريق فتحات أو أبواب. وكانت تتخذ جميعها شكلاً مستطيلاً أو مربعًا بخلاف الحمامات المصرية في العصر الإسلامي. إذ كانت تدور حول غرفة مركزية.

ويؤدي مدخل الحمام إلى أسطوان أو ردهة صغيرة في شكل مرفق يليه حجرة ضيقة مستطيلة تعلوها قبة نصف أسطوانية. بنهايتها قبوان يعرفان بالخلوتين. وكان المستحمون يتركون ثيابهم في غرفة باردة، وفي الخلوتين مقاعد يستريح عليها المستحمون. وفي بعض الحمامات المترفة كانت تسبق البيت البارد غرفة تعرف ببيت المستراح، يستريح فيها

المستحمون قبل خروجهم من الحمام ومقابلتهم الهواء الخارجي. ويلي البيت البارد قاعة تعرف بالبيت الوسطاني. وهي أكثر اتساعًا من القاعة السابقة وتعد أهم أجزاء الحمام. ويتوسط هذه القاعة فراغ مركزي مربع تعلوه قبة ويحيط به أربعة ممرات مقببة تحملها عقود قائمة على أعمدة. وجميع هذه القبات الجانبية والقبة الوسطى تتخللها فتحات نجمية الشكل تُغلق بقطع زجاجية تسمى (مضاويء) لإدخال الضوء، وكانت أرضية الحمام تكتسي بالرخام أو الفسيفساء. وكان يعمل في الحمام الحكاك والحجام، وكان لا يسمح لهم بالتجول داخل الحمام إلا بسراويل نظيفة بيضاء.

حمامات طليطلة

تبقّى منها حمامان. أحدهما يتألف من ثلاثة أروقة متوازية طول الواحد عشرة أمتار، تعلوها قباب نصف أسطوانية. أما الثاني فكان يعرف بحمام زيد في الحي القديم لليهود، ويتصل أسطوان المدخل فيه برواقين متوازيين في حجم مماثل لأروقة الحمام السابق.

حمّام غرناطة

وكان يعرف في العصور الإسلامية بحمام الجوز. وباب الحمام يؤدي إلى بيت المستراح الذي تُخلع فيه الثياب. وهو قاعة تعلوها قبوة نصف أسطوانية تتخللها مضاوٍ مثمنة نجمية الشكل، ويتلو هذه القاعة البيت البارد. وجدران الحمام مبنية من ملاط شديد الصلابة، أما العقود فمبنية من الآجر.

حمّام بلنسية

وهو أكمل هذه الحمامات جميعًا.بقيت منه عدة قاعات منها البيت الوسطاني وتعلو الفراغ المركزي بهذا البيت قبة مثمّنة تقوم على جوفات مقوسة،وإضافة للحمامات فقد انتشرت في مدن الأندلس الفنادق. وهي تشبه من حيث المبدأ الخانات المنتشرة في بلاد الشام ومصر وغيرها من المناطق. ووجودها مرتبط بسفر الغرباء وزيارتهم للمدن الأندلسية. وقد اقتبسه المسلمون من اليونانيين والرومان. وكان هذا الفندق في الأندلس عبارة عن بناء يقضي التجار ليلهم فيه، وتحفظ فيه البضائع وتخزّن أو، تُباع أحيانًا بالجملة. وكانت هذه الفنادق تتسمى بأسماء ما يُباع فيها من بضائع كالحبوب والقمح والزيت. وهذا يذكرنا بخان الزيت في دمشق الذي ما يزال قائمًا إلى اليوم.

وأحيانًا تُسمى هذه الفنادق بأسماء أصحابها. كفندق زايدة بغرناطة الذي يذكرنا بخان الخليلي في القاهرة.

ويشغل الفندق الأندلسي مكانة هامة في العمران الاقتصادي لذلك كثرت الفنادق في أهم مراكز المدينة، أي حول مسجد المدينة الجامع.

وقد ذكر الإدريسي أنه كان بالمرية في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي ما يقرب من ٩٧٠ فندقًا.

ويتألف الفندق في الأندلس كما نراه اليوم في مراكش من بهو مستطيل أو مربع تدور به مجنبات أو ممرات تطل على هذا البهو. وتتوزع غرف الفندق وراء هذه الممرات. ويخصص الطابق الأدنى من الفندق للمخازن والاصطبلات. أما العلوي فيشتمل على حجرات النزلاء ومخازن البضائع المعدّة للبيع. وتقوم عقود الممرات حول بهو الفندق على دعائم خشبية تربطها فيما بينها أوتار خشبية كذلك، وكانت هذه الدعائم في الفنادق الفنية تتخذ من الآجر ويتوسط البهو عادة فوارة للسقاية.

ويمكن الصعود إلى الطابق العلوي من الفندق على درجتين. وجدران الفندق الخارجية خالية من أي منفذ وذلك لتجنب السرقات. أما المدخل فكان يتخذ شكل عقد متجاوز على هيئة حدوة الفرس [1].

وللفندق بوابة تؤدي إلى ردهة واسعة ثم إلى باب يؤدي إلى البهو. ولم يكن في الفندق مطعم بل كان النزلاء يشترون طعامهم من الخارج.

٣- الأسواق والمتاجر

اتسعت المدن العربية في الأندلس، وكان من الطبيعي أن تنتشر فيها الأسواق والمتاجر لقضاء حاجة الناس. وقد اختصت بعض المدن بكثرة منتجاتها الزراعية كالزيتون وما يقوم عليه من صناعات. واشتهرت مدن أخرى بالصناعة كصناعة المنسوجات والبسط والخزف والصابون واستخراج زيت الزيتون. وصناعة آلات الحديد.

وكانت هذه الأسواق تمتد حول ساحة المساجد الجامعة. وكانت البضائع القيمة تُباع في بناء كبير على شكل مستطيل بداخله طريق تتوزع فيه الحوانيت على كلا الصفين. وكان يُطلق على هذا البناء اسم قيسارية. ونظام القيسارية في الأندلس يخضع لنظام

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، ص٢١٦.

قيسرية حلب الرومانية. وتتألف القيسارية أحيانًا من شبكة من الطرقات الضيقة المسقوفة. أو ممرات تدور حول بهو فسيح. وتتفتح الحوانيت على هذه الممرات. وما زالت أشبيلية تحتفظ حتى اليوم بشارع يعرف بشارع القيسارية بجوار كنيسة سان سلفادور. وكانت هذه القيسارية تضم سوق الثياب وسوق الخياطين والصباغين وسوق السقاطين وسوق الصاغة والعطارين.

وكانت القيسارية قائمة حتى عهد الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور سنة ٥٧٢هـ، إذ أمر بهدم الديار والحوانيت والفنادق التي كانت تحيط بساحة المسجد الجامع. ثم أمر ببناء قيسارية حول هذا المسجد الموحدي تأنق في بنائها وجعل لها أربعة أبواب ضخمة تحوطها من جوانبها الأربعة. أكبرها الباب القبلي والباب الشمالي. وكانا يقابلان بابي الجامع القبلي والشمالي، ولما كمل بناؤها بحوانيتها نقلت إليها أسواق العطارين والبزازين والخياطين. وتزاحم الناس في المزايدة في كرائها. فكثر الخراج في ذلك الوقت وعمر الجامع بالصلوات فيه، وكان لكل مدينة قيساريتها. فقد وجدت قيسارية في بلنسية وطليطلة ومالقة وغرناطة. وكانت الحوانيت تصطف على كلا جانبي طريقها، وتُباع فيها المصنوعات القيمة والمنتجات الثمينة، وكانت تضم الواحدة منها أكثر من مائتي حانوت على الجانبين.

٤ - دور الصناعة

لما كانت منطقة الأندلس شبه جزيرة تحف بها مياه البحار من ثلاثة جوانب، كان لابد من وجود حركة صناعية لصناعة السفن التجارية والحربية والآلات المستخدمة في الملاحة البحرية. وكانت تسمى في الأندلس بدار صناعة القطائع أو دار صناعة الأسطول، وقد اهتم عبد الرحمن الناصر مِنْ بني أميّة خاصة باصطناع سياسة بحرية في الأندلس لمواجهة أخطار الغزاة النورمانديين والغزو الفاطمي، وأقام دارًا للصناعة البحرية في المرية وأخرى في طرطوشة وثالثة بقصر أبي دانس.

وبلغ الاهتمام بصناعة السفن أقصاه في عصر الموحدين، فقد ذُكر أن الخليفة الموحدي أبا يعقوب يوسف أمر واليه على أشبيلية أبا دود بلول بن جلداس قبل حملته على شنترين بالبرتغال سنة ١١٨٤م، أن يقوم ببناء دار صناعة للقطائع تتصل من سور القصبة الذي على الوادي بباب القطائع إلى الرجل السفلى المتصلة بباب الكحل. وقد أكد المؤرخ

الأشبيلي أورثت دي ثونييجا أن دار الصناعة الإسلامية كانت في الموضع نفسه الذي ذكره المؤرخ المسلم ابن صاحب الصلاة.

وقد قامت هذه الدار في عهد الناصر الموحدي بصناعة عدة سفن حربية، وكان يحميها برج الذهب الذي بناه أبو العلا إدريس المأمون سنة ١٣٢٠م، إلا أن هذه الدار هدمت عند الهجوم البحري الذي قام به قائد أسطول قشتالة على مدينة أشبيلية سنة ١٢٤٦م.

وكانت دار الصناعة بأشبيلية تتألف من عدة أروقة عمودية على الوادي الكبير تفصل فيما بينها دعائم قوية من الآجر، وتعلوها قبوات مرتفعة من البناء. إذ كان المسلمون يحرصون على تجنب الخشب في أبنيتهم الحربية لقابليته للحرق.

وفي عهد بني نصر أقيمت دور أخرى للصناعة البحرية في المرية ومالقة. وقد استمرت دار صناعة الأسطول بالمرية قائمة حتى سقوط المرية سنة ١٤٨٩م، ثم خربت بعد ذلك، وفي مالقة فقد أنشئت دار الصناعة البحرية في عصر بني الأحمر ولم يتبق منها إلى اليوم سوى بوابتها الكبرى التي يبلغ ارتفاعها حوالي ثمانية أمتار. إضافة لعقد من الرخام.

٥- جسور المياه

وقد ذكروا أن عبد الرحمن الناصر أقام سنة ٣٢٩هـ/٩٤٠م، القناة الغريبة الصنعة التي أجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربي قرطبة في المناهر المهندسة. وعلى الحنايا المعقودة يجري ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة عليها أسد عظيم الصورة.

ولما اختار الموحدون مدينة إشبيلية عاصمة لملكهم أقاموا جسرًا للمياه على أثر جسر روماني قديم كانت قد اختفت معظم آثاره.

أما القناطر. فهي كثيرة في الأندلس بسبب كثرة الأنهار. وكانت مهمة هذه القناطر ربط المناطق ببعضها التي تفصلها الأنهار، وكانت هذه القناطر إما قائمة على أقواس مثل قنطرة طليطلة. وقنطرة قرطبة وقنطرة سرقسطة وقنطرة ماردة. وإما قائمة على السفن مثل قنطرة إشبيلية وقنطرة مرسية.

وقنطرة أشبيلية بناها الخليفة الموحدي أبو يعقوب يوسف سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م، لإنجاز مصالح الناس وإجازة الجند عليها. وقد عقد القنطرة على سفن مربوطة.

وقنطرة قرطبة كانت تصل بين مدينة قرطبة وربضها المعروف بشقنده. وكانت آثارًا رومانية قد خربت فجددها السمح بن مالك الخولاني من أحجار السور الروماني، ثم جددت في عهد هشام بن عبد الرحمن الداخل وأحكم بناءها وأتقنها. ثم جددها عبد الرحمن الأوسط مرة ثانية.

أما قنطرة طليطلة فتقوم على نهر تاجة. وكانت تتألف من قوس واحد تكتنفه فرجتان من كل جانب وقد هدمت في زمن الأمير محمد ثم أعاد بناءها خلف بن محمد العامري قائد طليطلة بأمر المنصور بن أبي عامر سنة ٩٩٧م.

وقنطرة القاضي بغرناطة التي تقوم على نهر حدرة. وكذلك فقد أقام الأندلسيون قنطرة على نهر شنيل عند التقائه بنهر حدرة. وقد ظلت قائمة إلى الآن وتتألف من خمسة أقواس نصف دائرية قطر الواحد منها سبعة أمتار. والأوسط هو أكبرها. وتقوم هذه الأقواس على دعائم مزوّدة بأكتاف مستديرة من ناحية ومدببة من ناحية أخرى. والبناء قوامه ألواح من الحجر الرملي مصفوفة على جوانبها. كما هو الحال في قنطرة القاضي. تتعاقب في صفوف من كتل قائمة وأخرى ممتدة طولاً [1].

٦- الأسوار

من المعروف أن المدن القديمة لم يكن يحميها من الغزو سوى الأسوار المنيعة، وطبيعي أن المسلمين عندما أتوا إلى الأندلس وجدوا فيها بعض المدن المسوّرة، وهذه الأسوار منها ما كان قائمًا منذ عهد الرومان، ومنها ما هو مستحدث. وقد عرف العرب الفاتحون الأسوار المحيطة بالمدن في الشرق. وقد توسّعت المدن الأندلسية عما كانت عليه. مما اضطر المسلمين إلى توسيع المدن وإقامة أسوار جديدة حولها، وكان من الطبيعي أن يهتم الأمراء والخلفاء ببناء الأسوار وترميم الأسوار القديمة منها، وكان سور أشبيلية من أهم الأسوار وأمنعها. وقد تعرّض عدة مرات للهجوم فأصيب بأضرار، إلا أن كل حاكم يأتي إلى المدينة يحصن هذا السور ويرممه.

وعادة ما يكون للسور عدة أبواب تغلق وقت الضرورة لا سيما الهجوم الخارجي. واهتم الأندلسيون بالقلاع والحصون لتكون مراكز دفاع متقدمة يتحصن بها الجنود

---

(١) المرجع السابق نفسه، ص٢٢٦.

والمرابطون. ومن أهم هذه الحصون حصن الفرج الواقع غربي طريانة من مدينة أشبيلية، وحصن القصر ويقع على بعد ٢٥ كم جنوب غربي أشبيلية، ويعتبر من المواقع الاستراتيجية. وحصن فارو بمالقة. الذي يقع على جبل فارو الواقع شرقي مالقة وقد بناه الأمير عبد الرحمن الداخل، وقد حوّل إلى قلعة حصينة زمن بني حمود.

وحصن المدور ويقع على الطريق بين قرطبة وأشبيلية وبناه المسلمون سنة ٧٥٩م، وقلعة جابر أو قلعة وادي إيره، وهو غربي أشبيليا وكان يعد مفتاح أشبيليةفي ذاك الوقت. وقد جدد الموحدون في هذا الحصن أو هذه القلعة.

ويضاف إلى هذه القلاع والحصون قصبة المرية. وهي عبارة عن قلعة واسعة البنيان تتصل بمدينة المرية من خلال باب. وكان فيها مسجد. وعدد كبير من الأبنية. ومنها أيضًا قصبة بطليوس وهي من بناء عبد الرحمن الجليقي. وقد بنى حوله سورًا كبيرًا مزوّدًا بأبراج متينة قوية تُشرف على وادي المدينة.

وهناك أيضًا قصبة مالقة. وقد أقيمت لتحمي المدينة من غزوات النورمانديين. ثم أُعيد تشييدها بين عامي ١٠٥٧ – ١٠٦٣م، في عهد باديس الصنهاجي، وإلى ذلك العهد ترجع أسوارها الموزعة على نطاقين. والأسوار مزوّدة بأبراج ضخمة مربعة الشكل تمتد من مسافة لأخرى مشيّدة من الطوب. وفي بعض أجزائها كتل حجرية غير منتظمة الصفوف وتشمل هذه القصبة على قصر باديس الواقع بجوار مقر حجرات غرناطة.

الفصل الرابع
الصناعات الأندلسية والفنون

إن دخول العرب إلى الأندلس يعني دخولهم عالمًا جديدًا بأرضه ومناخه وسكانه، وجديدًا بمدنه وبساتينه وبحاره. وقد جاء العرب لا يحملون معهم أفكارًا صناعية حديثة بل حملوا معهم مبادئ أولية لصناعات ضعيفة لم يكن لها ذكر في تاريخهم القديم، والعرب بطبيعتهم يميلون أساسًا إلى البداوة لكن الحياة الجديدة فرضت عليهم إقبالاً عقليًا جديدًا للتأقلم مع مستجدات الواقع الجديد.

وبسبب طول المدة التي عاشها الأندلسيون في هذا البلد الجديد فقد احتاجوا إلى مستلزمات حياتية جديدة. وطبيعي أن الاستقرار وعدم التنقل حافز للعمران وحافظ لابتداع الصناعة، وعندما قدم العرب والبربر إلى الأندلس وجدوا فيها شعبًا مستقرًا له صناعاته وعلومه وفنونه فأخذوا في البداية يقلدون هؤلاء لكن التمازج الذي حدث بين كافة أبناء الأندلس خلق جوًا جديدًا من التطلع إلى فنون جديدة وصناعات جديدة فرضها الواقع الجديد.

وطبيعي أيضًا أن ترتبط أكثر الصناعات بمدى التطوّر العمراني والاجتماعي لسكان الأندلس، فالقصور تحتاج للزخرفة والنقوش. والأساطيل تحتاج لآلات الحرب، والعمران يحتاج لأدواته اللازمة. ولكثرة السكان فقد فرض الواقع عليهم خلق صناعة النسيج مثلاً والأواني الزجاجية الفخارية، وما يستلزمه المنزل، أي منزل من أدوات وأوانٍ، وقد اشتهر الأندلسيون بفن النحت على الخشب. وفن صناعة علب العاج. وفن صناعة التحف المعدنية. والتماثيل. والثريات البرونزية والتحف المصنوعة من البرونز. والسيوف والتحف الفضية. أما الصناعات فقد اشتهروا بصناعة المنسوجات الصوفية والحريرية. وقد بلغ الفن الإسلامي في الأندلس درجة عالية رغم أن الإسلام يُحرم الصور والتماثيل لأنها تعيد إلى الذهن عهود الوثنية الأولى. ولذلك كان كثير من المتدينين يصورون الحيوان والنبات لبعد احتمال عبادتهما، ولكن لا يصورون الإنسان لاحتمال عبادته. ولذلك وجهوا اهتمامهم إلى الزخارف والنقوش والصور الهندسية. من ذلك أنهم زيّنوا مثلاً قصور الزهراء بأسد عظيم الصورة مطلي بالذهب، ووضع مكان العينين جوهرتان لهما ضوء خاطف. قد أقيم على بحيرة يجوز الماء منه إلى مؤخره من قناة تحمل إليه الماء العذب من حنايا معقودة فيدفع الماء إلى البحيرة [١].

---

(١) المقري: نفخ الطيب، ج١.

ومن ذلك أيضًا ما روي أن الناصر صنع حوضًا لاستحمامه أقيم عليه تماثيل من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس، ومما صنع بدار الصناعة بقرطبة. تمثال أسد إلى جانبه غزال. ثم تمساح يقابله ثعبان وعقاب وفيل وفي الجانبين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك ونسر وحدأة كلها مرصعة بالجوهر النفيس ويخرج الماء من أفواهها [1].

أما النحت على الخشب فكان يستخدم في المنابر. ففي منبر المسجد الجامع بقرطبة ومنبر مسجد الزهراء ومنبر جامع أشبيلية. وذكروا أن النقوش التي صنعت في منبر جامع قرطبة استغرق العمل بها سبع سنوات. وقد عمل فيه ثمانية صنّاع، ويقال إن هذا المنبر كان مركبًا من ستة وثلاثين ألف وصلة سمّرت بمسامير الذهب والفضة، وأن بعضها نفيس الأحجار. وكانوا يستخدمون في صنع المنابر أجود أنواع الخشب. وقد نحتت على الخشب زخارف هندسية من دوائر ومضلعات وأقواس مفصصة متداخلة فيما بينها. ولون بعض هذه الزخارف الأخضر والأزرق وغيرها من الألوان التي ذكرها الإدريسي، وقد امتازت الأندلس بصناعة العلب العاجية، وكانت خاصة بجواري الأمراء، وذلك لوضع المجوهرات والتحف الذهبية فيها وزجاجات العطر الخاص، وتحتفظ أغلب هذه العلب بأسماء من صنعت له واسم الصانع والمدينة التي صنعت فيها وتاريخ صنعها مما يزيد من قيمتها. وتتخذ هذه العلب العاجية شكلين مختلفين علب أسطوانية ذات غطاء مقبب، وصناديق مستطيلة ذات أغطية على شكل هرم ناقص أو مسطحة. وتقسم من حيث الزخرفة إلى ثلاثة أنواع. نوع يشتمل على زخرفة توريقات تختلط أحيانًا برسومات للحيوانات والثاني الذي تنحصر فيه رسومات مستديرة لحيوانات أو لبشر. والثالث تمثله زخارف دقيقة لأشخاص أو حيوانات بين توريقات.

وأغلب الظن أن هذه الرسومات والزخارف مستمدة من التراث الفني الفارسي.

وقد اشتهرت قرطبة وطليطلة بصناعة هذه العلب العاجية. وقد نقش على بعضها اسم مدينة الزهراء. وازدهر هذا الفن في عهد المستنصر الذي صنع لزوجته صبح بعضًا منها. وفي طليطلة حيث انتقلت هذه الصناعة وجد الفنانون تشجيعًا من أميرها المأمون بن ذي النون. وقد صنعوا كثيرًا من العلب العاجية المزخرفة. وأقدم هذه التحف صندوق من

---

(١) المصدر نفسه، ج١.

العاج محفوظ في متحف برغش عليه رسوم تمثل مناظر صيد وحيوانات تتصارع موزعة في ثلاثة صفوف أفقية وأعلى العلبة نقش كوفي.

وقد تحولت هذه الصناعة إلى صناعة شعبية اختفت منها النقوش واسم المصنوعة له واسم الصانع. وقد أصبحت تغطى بالعاج أو ترصّع بقطع منه. ويلاحظ أن صنعتها صارت تجارية بحتة. ولعل ما يلفت النظر فيها دقة الرسوم والألوان المستخدمة في الزخرفة خاصة رسومات الحيوانات كالطاووس والغزال وغيرها من الحيوانات والطيور.

وقد تميز الفن الإسلامي بصفة تجريدية وكان سببًا في بروز الاتجاه الهندسي في زخارفه، وكما ساده بوجه عام ميل إلى الابتعاد عن تصوير الكائنات الحية. فعمد الفنان المسلم إلى تحوير التماثيل. وقد حوت قصور الخلفاء والأمراء على كثير من شواهد الفنون الهندسية والتماثيل كنافورة بهو السباع بقصر الحمراء وتصاوير قاعة القضاء وقصر البرطل من قصور الحمراء. وبعض النقوش المحفورة في أحواض الرخام وعلب العاج وبعض التحف المصنوعة من المعادن.

وتشير كتب التاريخ الأندلسية إلى التماثيل المعدنية التي كانت تزين قصور الزهراء. ويذكر المقري أن عبد الرحمن الناصر نصب الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتماثيل الإنسان الذي جلبه أحمد اليوناني وربيع الأسقف من القسطنطينية في مجلسه الشرقي المعروف بالمؤنس، وجعل عليه اثنى عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالي مما عُمل بدار الصناعة بقرطبة.

ويذكر ابن بسام أن قصر الناعورة الذي بناه القادر بالله بن ذي النون بطليطلة كان به بحيرتان قد نصبت على أركانهما صور أُسودٍ مصنوعة من الذهب الإبريز.

وقد عثر في عدة مدن أسبانية على تماثيل تشير بوضوح إلى ما بلغه الفن الأندلسي المتعلق بصناعة التماثيل المعدنية وغيرها.

وقد ذكر مؤرخو العرب في الأندلس أن جامع قرطبة كان يشتمل على مائتين وثمانين ثريا من اللاطون (الصفر) عدد كؤوسها يبلغ سبعة آلاف وأربعمائة وخمسًا وعشرين كأسًا وقيل عشرة آلاف منها أربع ثريات كبار معلقة في البلاط الأوسط. أكبرها الثريا الضخمة المعلقة في قبة المحراب، وكانت تحمل ألفًا وعشرين كأسًا.

وكان جامع البيرة يحتوي على عدد كبير من الثريات احترقت عندما أحرق البربر هذا الجامع عام ١٠١٠م، ولحسن الحظ عُثر على ست ثريات منها في الحفائر التي أجريت بأرض المسجد أكبرها ثريا على شكل طبق مستدير محزّم في شكل هندسي. ويتألف محيطها من فراغات مستديرة كانت توضع فيها الكؤوس التي تضاء بالزيت، وكان هذا المحيط مزودًا بحلقات صغيرة تعلق منها السلاسل. وفي متحف الآثار بمدريد ثريا رائعة من البرونز تنتمي إلى جامع الحمراء. وهي من أجمل التحف المعدنية الأندلسية. وفي محيطها الأدنى نقش كتابي نطالع فيه اسم السلطان محمد الثالث بن نصر الذي أسس هذا الجامع سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٥م. ومحيطها العلوي أصغر كثيرًا من محيطها الأدنى. وحول هذين المحيطين كسوة من البرونز محزمة بتزويقات رائعة وزخرفة من الكتابة النسخية التي نطالع فيها عبارة لا غالب إلا الله.

ومن الصناعات المعدنية التي اكتشفت أو عثر عليها بسبب الحفريات هاون كبير محفوظ بمتحف فيلانوبيا. ويتزين هذا الهاون بزخارف محفورة من التزويقات والأسود والطواويس، وكذلك عثر على مبخرة أسطوانية الشكل تقوم على ثلاث أرجل. وعثر على مقابض (أيدٍ) من البرونز يعود تاريخها إلى عصر الخلافة.

وقد تفنن الأندلسيون بصناعة السيوف الثمينة والتروس والرماح والسروج والدروع وكان الأمراء والسلاطين يهدون بعض هذه السيوف إلى ملوك المسيحية. ويميزها أن مقبضها كان يزين بالذهب والأحجار الكريمة. وقد أهدى أبو الحجاج يوسف سنة ١٤٠٩م، سيوفًا من الفضة الخالصة إلى دون خوان الثاني والأمير دون إنريكي.

أما صناعة المنسوجات فقد انتشرت تقريبًا في كافة المدن الأندلسية. فاشتهرت مالقة بصناعة النسيج الموشى بالذهب، واشتهرت غرناطة بصناعة القماش الملبد المختم ذي الألوان العجيبة، وكذلك اشتهرت مرسية بالقماش الموشى وبالبسط التنتلية.

وقد استعان العرب في الأندلس بالصناع المشرقيين، واستحضر بنو أميّة من الشام أسواقًا كاملة من الصناع المختصين بصناعة النسيج، وأقاموا بالأندلس دار الطراز. والطراز كما يقول ابن خلدون علامات يرسمها السلاطين والملوك في طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الابريسم.

وكان عبد الرحمن الأوسط أول من أنشأ دار الطراز بالأندلس وتبعه ملوك الطوائف. فلما كانت دولة الموحدين استغنوا عن لبس الحرير والذهب فأبطلوا دار الطراز ولكنها أعيدت في عهد بني نصر.

ويتجلى في منسوجات الأندلس تأثيران واضحان في عصر بني أمية. تأثير قبطي وآخر ساماني، ولكن لم يتبق من دار الطراز القرطبية سوى قطعة واحدة. هي طراز هشام المؤيد، وقد عثر عليها في سان استبان وهي محفوظة اليوم في الأكاديمية التاريخية بمدريد.

وكانت هناك أنسجة تجلب من المشرق. من العراق وخراسان، وقد ذكر المقري نقلاً عن ابن الفرضي أن بين الهدايا التي قدمها الوزير أحمد بن شهيد إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر ثلاثون شقة وخلج خاصة للباسه بيضاء وملونة. وخمس ظهائر شعبية خاصة له، وعشرة فراءات. منها سبعة بيض خرسانية، وثلاثة ملونة، وستة مطارف عراقية خاصة له، وثمان وأربعون ملحفة زهرية لكسوته ومائة لرقاده.

وقد قلد الأندلسيون أهل المشرق بالكتابة الكوفية على بعض الأنسجة، وخاصة في مدينة المرية وعرفت المرية صناعة الخُمُر (جمع خمار) لاسيما تلك المسماة بالخمر العتابي والأصبهاني والجرجاني، وهذا يدل على أن الأندلسيين استفادوا جدًا من صناعة الشرق. والعتابي ينسب إلى بغداد، وقد تأثر الإيطاليون بهذه الصناعات وكذلك الفرنسيون. وكانت الأقمشة تزخرف بزخرفات دائرية وهندسية. وأحيانًا يُرسم عليها صور حيوانات كالغزلان والأُسود والطيور وبعض النباتات. وكانت توشّى بخيوط ذهبية. وبعضها يُرسم عليه صورة فيلة متقابلة وفوق ظهر كل فيل أسد وفوق ظهر الأسد صقران جسماهما متقابلان. وكذلك تُرسم عليها بعض صور الطيور الأسطورية كالعنقاء. وكطير رأسه رأس أسد.

وقد تحولت صناعة المنسوجات ذات الصور الحيوانية في عصر الموحدين إلى منسوجات ذات زخارف هندسية من تشابكات ومربعات. وكتابات نسخية. وقد ذكر ابن خلدون أن دار الطراز أبطلت في عهد الموحدين.

وقد اتخذ القشتاليون ألبستهم من الأقمشة الأندلسية. ولعل أجمل المنسوجات أعلام الموحدين التي غنمها القشتاليون في معركة العقاب سنة ١٢١٢م، التي انهزم فيها

الخليفة محمد الناصر. وقد ازدهرت صناعة المنسوجات في مملكة غرناطة النصرية ازدهارًا لم تبلغه من قبل خاصة المنسوجات الحريرية. وكانت صناعة الخز والمنسوجات الحريرية الجميلة تنسج في أنرش ونارجة وتبْعث إلى مراكش ومصر وإلى الأمراء المسيحيين بشبه الجزيرة. وقد شهدت المدونات المسيحية بكثرة إنتاج مالقة للديباج والوشي عندما أشارت إلى زيارة عدة سفن قشتالية إلى مالقة سنة ١٤٠٤م، وعودتها محملة بالضيافة من منسوجات الحرير الموشي وقد ذكر المؤرخ الأسباني انطنيو دي لالاينج أن فرناندو الكاثوليكي وفيليب الجميل كانا يرتديان سنة ١٥٠٢م الملابس الإسلامية. وذكر هذا المؤرخ عند زيارته مدينة غرناطة أن هذه المدينة تشتهر بصناعة الحرير الذي يُباع في أسواقها [١].

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ حضارة الإسلام في الأندلس، ص٢٧٨ـ٢٧٩ـ٢٨٠.

الفصل الخامس

الحياة العلمية والفكرية والأدبية في الأندلس

لعل أهم جانب من الحياة الأندلسية يمكن دراسته والتوسع فيه، ذلك الجانب المتعلق بالحياة العلمية والدينية والفنية والفكرية.

وعلى مدى قرون ثمانية زخرت بلاد الأندلس بهذه الجوانب مما كان له كبير الأثر في الحياة الأوروبية، ولاسيما الجانب العقلي والعلمي والفني وخاصة في أسبانيا وإيطاليا وفرنسا، ويمكن أن ندرس في هذا الجانب المحاور التالية:

١- الحياة الدينية.

٢- الحياة العقلية.

٣- الحياة العلمية.

٤- الحياة الأدبية.

٥- الموسيقى والموشحات.

٦- العلوم اللغوية.

فتح العرب الأندلس حاملين معهم العقيدة الإسلامية. وقد دخل الدين الجديد مجموع البربر الذين كان لهم دور مهم في فتح الأندلس. فبعد أن دخلوا الإسلام بسرعة مذهلة أصبحوا عنصر قوة إضافي في زيادة عدد جيوش المسلمين الفاتحين. وعندما دخل العرب المسلمون الأندلس وجدوا فيها الأسبان الذين يدينون بالنصرانية. وقد تواجد عدد كبير من اليهود في المدن الأندلسية وازدهرت حياتهم في ظل الحكم الإسلامي.

وعندما بدأ الفتح الإسلامي للأندلس آثر موسى بن نصير أن يكون بين جنده بعض الصحابة وبعض التابعين مثل المنذر. وعلي بن رباح وحنش الصنعاني. وكان هؤلاء ممن تلقى تفسير القرآن وعلم الحديث والقضايا الفقهية من منبعها الأصلي أي من رسول الله ﷺ، ومن صحابته الذين عايشوه وعاشوا معه.

ولعب التابعون دورًا مهمًا في نشر الدعوة الإسلامية بين البربر، وكان لهم فضل كبير في نقل المذهب المالكي إلى المغرب ثم إلى الأندلس، وكان الفضل الأول في ذلك لعبد الملك بن حبيب وهو من التابعين. وتقول بعض الروايات أنه التقى بالإمام مالك وأخذ عنه العلم والفقه. أما في الفقه فقد برز عيسى بن

دينار، وفي العلوم الدينية عبد الملك بن حبيب، وفي الرواية يحيى بن يحيى. وقد تلقى على أيدي هؤلاء جُلّ علماء الأندلس وكان الواحد منهم يجمع إلى جانب علمه الديني الأدب والتاريخ واللغة والإعراب. وقد عهد خلفاء الأندلس ليحيى بن يحيى الليثي أن يختار هو بنفسه القضاة. وقد أسس يحيى لقضاء الأندلس أسسًا متينة. فقد وضع نظام القضاء وسمّى قاضي القضاة وقاضي الجماعة. ورتب مجلسًا للشورى وسمّى أعضاءه. وقد وصل عدد مجلس الشورى أحيانًا ستة عشر قاضيًا. ويحيى بن يحيى لمْ يتلقّ الفقه على يد مالك فحسب. إنما تتلمذ على فقهاء مصر ومكة. وغيرهم من الفقهاء والعلماء.

وأما عيسى بن دينار فقد كان فقيهًا بارعًا ومؤلفًا مكثرًا، ألّف كتاب الهداية ويقول ابن حزم فيه إنه أرفع كتاب جمعت في معناه على مذهب مالك وأجمعها للمعاني الفقهية على المذهب. وقال بعض المؤرخين فيه لم يكن أحد في وقته أعلم منه. وقد جمع بين الفقه والزهد وتولى قضاء طليطلة ورأس الشورى بقرطبة. وجاءت طبقة أخرى من الفقهاء أشهرهم قاسم بن أصبغ من أهل قرطبة فقد تلقى العلم في القيروان ومصر والعراق ثم عاد إلى الأندلس بعلم غزير وكان بصيرًا بالحديث والرجال. ألّف كتابًا طويلاً ثم اختصره وسماه المجتبى وقدمه للحكم المستنصر وفيه من الحديث المسند ٢٤٩٠ حديثًا في سبعة أجزاء. وقد صنفه على أبواب الفقه وكان له الفضل في نشر العلم بالأندلس على هذه الطريقة. كما ألّف في أحكام القرآن. وفي فضائل قريش. وفي الناسخ والمنسوخ.

ومن هذه الطبقة أيضًا بقي بن مخلد الذي نقل العلوم نقلة جديدة لأنه جمع أحاديث كثيرة، كما فعل الإمام أحمد وصنفها على حسب أبواب الفقه. فكانت كتبه كتب فقه وحديث. وقد ألّف بقيٌّ تفسيرًا للقرآن كبيرًا، وقد شهد له بذلك ابن حزم حين قال: أقطع أنه لم يُؤلّف في الإسلام مثل تفسيره ولا تفسير ابن محمد جرير الطبري، وله كتاب في الحديث كبير رتب فيه حديث كل صحابي على أبواب الفقه. فهو مسند ومصنف. يقول ابن حزم فيه: وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله في الحديث.

ومن العلماء أبو عمر يوسف بن عبد البر. الذي ألّف كتابًا في فقه الحديث. وكتابًا آخر في الفقه على مذهب مالك. وكتابًا آخر سماه الاستيعاب وترجم فيه لكل صحابي مع إيراد أخباره.

وكما حدث في المشرق من اختلافات واجتهادات فقهية، فقد حدث ذلك في الأندلس أيضًا، وظهر علماء ألَّفوا في الاختلافات الفقهية. كما فعل حفيد ابن رشد الذي ألَّف كتابًا أسماه بداية المجتهد ونهاية المقتصد. ومن محاسن هذا الكتاب أنه يذكر الخلاف في كل مسألة حدث فيها الخلاف بين الفقهاء، ويُرجع ذلك إلى سببه ثم كان أن اخترع الإمام الشافعي علم أصول الفقه كالذي عليه أكثر المؤرخين فانتقل هذا إلى الأندلس فألَّف فيه ابن حزم أصول الأحكام وتبعه الشاطبي في كتابه الموافقات. وقد أخذ الشاطبي طريقة الشافعي لكنه بحث موضوعات لم يبحثها المشارقة في كتابه الأصول.

وأما علوم القراءات فقد انتشرت أيضًا في الأندلس، فالشاطبي الذي ألّف رسالته المسماة حرز الأماني والتي تُسمّى بالشاطبية نسبة إليه فقد اشتهرت في المشرق والمغرب والأندلس، وأخذت عمادًا للقراءات في مختلف العصور والأقطار. كما عني بتفسير القرآن. ومن أشهر التفاسير تفسير القرطبي، وقد جمع في هذا التفسير منهج الرواية كالطبري ومنهج الدراية كالزمخشري، وشاع الانتفاع به في العالم الإسلامي [1]. وما زلنا نتداوله إلى اليوم، وقد شاع في العصر الحديث مختصر لهذا التفسير من خمسة مجلدات سُمّي بمختصر تفسير القرطبي.

وقد وصلتنا أيضًا بعض التفاسير الأخرى ومنها تفسير ابن عربي وهو تفسير صوفي إشاري لكنه لم يفسر القرآن كله، بل اقتصر على بعض الآيات. وفسرها تفسيرًا صوفيًا إشاريًا، وما زال هذا التفسير متداولاً إلى اليوم بين الخاصة ممن يهتمون بالدراسات القرآنية [2].

ومن علماء الأندلس أبو عبد الله محمد بن أحمد القنتوري القرطبي، وكان عالمًا بالحديث صحيح النقل حافظًا، وألّف عدة مصنفات في فقه الحديث منها فقه الحسن البصري في سبعة مجلدات، وكتاب فقه الزهري. ومن العلماء في زمن الطوائف عثمان بن سعيد بن عمر الأموي القطبي صاحب كتاب المقنع والتيسير، وكان أحد الأئمة في علوم القرآن ورواته وتفسيره وفي الحديث وطرقه وأسماء رجاله. ومنهم أيضًا أبو الوليد عبد الله بن محمد بن الفرضي صاحب كتاب تاريخ علماء الأندلس. ومحمد بن عمر بن يوسف بن

---

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج٣، ص٥٢.

(٢) تفسير القرآن لمحيي الدين بن عربي، وهو مجلدان متداولان إلى اليوم.

الفخار. ومنهم في زمن الموحدين أبو بكر يحيى بن سعدون، وأبو الحسن علي بن القطان القرطبي صاحب المصنفات في تفسير الحديث [1].

وفي علم القراءات ظهر عثمان بن سعيد القرطبي الذي بلغ الغاية في القراءات، ويحيى بن مجاهد بن عوانة الفزازي القرطبي. وكان مهتمًا بالقراءات والتفسير، وأبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي المعروف بالورشي نسبة لشهرته في قراءة ورش، وكان أحد القراء المشهورين المذكورين بالتقدم في علم القراءات. وفي عصر الطوائف ظهر أبو محمد محي بن أبي طالب القرطبي وكان متبحرًا في علوم القرآن مجودًا للقراءات السبع عالمًا بمعانيها [2].

وقد ذكرنا في التفسير شهرة الإمام القرطبي وإلى جانبه وُجد الكثيرون من المفسرين منهم أبو العباس أحمد بن مسعود بن محمد القرطبي، وله شرح على تفسير ابن عطية، ومن مؤلفات الإمام القرطبي المشهور بتفسيره كتاب التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة. وما يزال هذا الكتاب متداولاً إلى يومنا هذا، وهو في مجلد واحد. من جزئين، ومن علماء أصول الفقه يحيى بن إبراهيم بن مزين القرطبي الذي صنف كتبًا منها كتاب تفسير الموطأ وكتاب المستقصية وكتاب في فضائل العلم. ويحيى بن مضر القيسي، ومنهم أيضًا محمد بن بيقي بن محمد زرب، وكان أحفظ أهل عصره للمسائل على مذهب مالك وأصحابه. ومن علماء المذهب الشافعي في الأندلس قاسم بن محمد بن سيار القرطبي الذي لم يكن في الأندلس مثله في حسن النظر والبصر بالحجة، ومنهم أيضًا هارون بن نصر. والخراز وابن الزيات. ومن فقهاء الظاهرية في قرطبة إلى جانب ابن حزم الفيلسوف الفقيه المعروف منذر بن سعيد البلوطي. وأبو الخطاب عمر بن الحسن بن دحية.

وقد ذكر أحمد باب التنبكجي في كتابه نيل الابتهاج بتطريز الديباج عشرات علماء الفقه والتفسير الأندلسيين.

ومنهم إبراهيم بن علي بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن فرحون الأياني الجياني. وكان من صدور المدرسين ومن أهل التحقيق، من تآليفه شرح مختصر ابن الحاجب سمّاه تسهيل المهمات في شرح جامع الأمهات. وكذلك كتابه الديباج المُذَهَّب في أعيان المُذْهَب، وهو في عشرين كتابًا. وله العديد من الكتب في الفقه والتصانيف. ومنهم

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ص١٩٨.

(٢) المقري: نفح الطيب، ج٢، ص٤١٤.

إبراهيم أبو إسحق البلفيقي الأندلسي. وهو من أفاضل العلماء. ارتفع ذكره في مدينة المرية. وإبراهيم الأنصاري المرسي ثم الغرناطي وكان فقيهًا بارعًا وقاضيًا مميزًا. وإبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المشهور بالشاطبي، وله من التآليف الكثير. ومنها كتاب المجالس شرح فيه كتاب البيوع من صحيح البخاري، وأخذ عنه الكثيرون من الأئمة كالقاضي أبي بكر بن عاصم. والشيخ أبي عبد الله البياني وغيرهم.

ومنهم أيضا إبراهيم بن محمد البدوي الأنصاري الأندلسي وإبراهيم بن محمد بن فتوح العقيلي الأندلسي. وأحمد بن محمد بن عطاء الله الصنهاجي الأندلسي. وأحمد الخزرجي القرطبي. وأحمد بن يزيد بن عبد الرحمن القرطبي. وأحمد بن محمد القرشي الغرناطي. وأحمد بن عمر الأندلسي الأنصاري. وأحمد المعافري الغرناطي أبو جعفر [1].

وقد أورد هذا الكتاب عشرات الأسماء من رجال الفقه والحديث الأندلسيين. وقد اشتهر من بين العلماء ابن حزم الأندلسي الظاهري. الذي جمع بين علوم الدين والفلسفة. فكان أشهر أهل الأندلس بهذه العلوم. وقيل عنه كان واسع الاطلاع قوي النفس في الجدل متعدد نواحي النبوغ. ويهاجم من خالفه. فهو نابغة في الحديث وفي علم الكلام وفي التاريخ وفي أصول الفقه وفي الأدب. وقد ألّف في ذلك تأليفات كلها ذات قيمة حتى في المنطق والفلسفة.

وقد نشأ ابن حزم شافعيًا، ثم أصبح ظاهريًا بتأثير أستاذه الظاهري أبي الخيار، وقد بين مذهبه في كتابه (الإحكام في أصول الأحكام)، وقد سلك فيه مسلكًا يدل على الابتكار، وتكلم في مسائل لم يتكلم فيها لا آل المغرب وآل المشرق. ويستند في استخلاص الأحكام على النص وليس على القياس. وقد تأثر ابن حزم بأستاذه أبي علي الفاسي. وقد تعلم ابن حزم الحديث وتبحّر فيه وقد اتبعه كثيرون على مذهبه الظاهري، وخرجوا من مذهب مالك إليه. وقد اضطهد من قبل العامريين لميله إلى الأمويين. وقد قيل فيه: كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسيرة والأخبار. وقيل إن مؤلفاته بلغت أربع مائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة.

---

(١) أحمد بابا التنبكجي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص٣٥-٣٨-٣٩-٤٥.

ولعل أهم كتبه الفصل بين الملل والأهواء والنحل. وحكى فيه المذاهب المختلفة في أهم العقائد وأهلها، وناقش كل فرقة من المخالفين كالمعتزلة والأشعرية والشيعة وغيرهم. وقد هاجم اليهودية والنصرانية. وقد رد عليهم في مسالة التأليه والتاريخ وشخصيات الأنبياء. ويظهر أنه ألّف في ذلك رسالة خاصة ثم أدمجت بالكتاب. كما تضمن الكتاب رسائل أخرى. وهذا ماكان سبباً في أن هذا الكتاب لم يخضع للمنهج المنطقي الدقيق والقارئ له يدهش من طول نفسه وقوة حجته وسعة اطّلاعه التي قد تفوق بلاغة الغزالي في إحياء علوم الدين [1]. وقد خلق ابن حزم حركة فكرية فقهية واسعة إذ رد عليه كثير من الفقهاء. وهذا ما أغنى الحركة الدينية والفقهية في الأندلس.

واستمرت هذه الحركة طويلاً، ومنهم من يكفّره ويحذر منه العوام والسلاطين، ومنهم من يدس له الدسائس ويتهمه بالسياسة التي تغضب الأمير، ومنهم من يقوّله ما لم يقل.

ولكثرة جدله وذيوع صيته أصبح صاحب مذهب ظاهري مميز حتى قيل بالمذهب الحزمي، وكان له أتباع على هذا المذهب مثل ابن عبد البر المحدث. والحميدي المؤرخ وقد مال إلى مذهبه ابن تومرت زعيم الموحدين. وقد انتقل مذهبه إلى المشرق فاعتنقه ابن سيد الناس الإمام المصري المعروف. وقد أخذ يلون منه محيي الدين بن عربي الصوفي الكبير وابن رشد الفيلسوف الكبير المعروف.

وقد ظهر في الأندلس بعد ابن حزم الأندلسي بحوالي قرن، العالم المشهور ابو بكر بن العربي وهو غير محيي الدين بن عربي وقد انتشر ذكره في المشرق، وتتلمذ على يد الإمام الغزالي في دمشق، وجاء إلى الأندلس موطنًا نفسه على مهاجمة تعاليم ابن حزم، وكان قوي الحجة كشيخه الغزالي فخلّف أثرًا كبيرًا في الأندلس.

وكان مثله الإمام الباجي، وكان متفننًا في المعارف كلها مع خُلق متين وقضاء صائب والتزم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى أوذي في ذلك ويعتبر ابن العربي خاتمة المحققين. وكل من أتى بعده مقلد صغير وانحطّ شأن العلوم الدينية وضعف أمرها [1].

والواقع أن الحركة الدينية في الأندلس آلت إلى الضعف بعد ابن العربي. شأنها شأن الحركة الدينية في المشرق، وخاصة بغداد إذ جمدت هذه الحركة بسبب سيطرة الأتراك

---

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج٣، ص٥٨.

(١) المصدر السابق، ص٦٤-٦٥.

على الخليفة. وعدم فتحهم باب الاجتهاد كما كان سابقًا. ومما أضعف هذه الحركة في الأندلس اشتداد الخلاف المذهبي بين الفقهاء وانعكاسه على الناس، وتذمر بعض الأمراء لذلك مما جعلهم يلاحقون بعض العلماء وأصحاب المذاهب ويحرقون كتبهم. وقد انشغل الناس بالتقدم الأسباني على المدن الأندلسية. وليس انحطاط الحياة الدينية إلا وجهًا من وجوه الانحطاط بشكل عام. وهذه سُنَّة الحياة. فالأندلس شهدت عصر قوتها، وليس غريبًا أن تشهد فترة ضعفها. وهذا ينعكس على كافة مجالات الحياة. ومنها المجال الديني.

ولابد ونحن نتحدث عن ملامح الحياة الدينية في الأندلس أن نذكر أحد الجوانب الهامة التي برزت فيها، وهي بروز الصوفية والتصوّف عند بعض العلماء المسلمين، وكما اشتهر في المشرق رجال علم وتصوف فقد ظهر في الأندلس أيضًا صوفيون ومتصوّفة غير أن لون صوفية الأندلس كان يمتاز بالحس الفلسفي الرفيع، وقد تجلى ذلك عند القطب الرباني محيي الدين بن عربي الطائي.

بدأت بوادر التصوف عند بعض العلماء. وكان أول من برز من المتصوفين الأندلسيين محمد بن عبدالله بن مسرة، وكان أبوه من قرطبة، وعُرف أبوه بالاعتزال. وسار على خطا أبيه لكنه كان يخفي اعتزاليته، وقد تبعه بعض المريدين، لكن يظهر أنه لم يخلف وراثه كتبًا تدل على مذهبه بالتصوف، وقد تأثر به أبو عبد الله القرشي الهاشمي، وهو من أساتذة محيي الدين بن عربي.

أما ابن عربي فقد ذاع صيته في الأندلس والمغرب والمشرق. وقد ولد بمرسية، وقرأ القرآن وتعلم في أشبيلية القرآن والحديث، وأقام فيها نحو ثلاثين عامًا، ثم رحل إلى الشرق وأخذ الحديث عن ابن عساكر والجوزي، وساح في بغداد والموصل وبلاد الروم واتسعت معارفه المتعددة. وقيل عنه إنه أكبر المدافعين عن فكرة وحدة الوجود. والواقع أن محيي الدين بن عربي ألّف من الكتب ما يعجز عنه مجموعة من الرجال. ولعل أهم كتبه الفتوحات المكية، وفصوص الحكم. وله ديوان شعر أسماه ترجمان الأشواق، وقد انقسم الناس حوله، فمنهم من سار على نهجه ودافع عنه كالسهروردي والخراز وابن الفارض وغيرهم من الصوفيين الكبار، ومنهم من نقم عليه كابن تيمية والخياط وبعض علماء الفقه الذين ينكرون الصوفية ويهاجمونها.

ومـن أشـهر متصـوفة الأندلس ابن سبعين، وكان أديبًا صوفيًا متفلسفًا زاهدًا، وهو من مرسيه بلد محيي الدين بن عربي وأبي العباس المرسي.

وابـن سـبعين كـان عارفًا باللغة اليونانية وفلسفتها. وممن عرفوا بالتصوف في الأندلس أحمـد بـن فـاس وقـيل إنـه ادعى النبوّة، فقتل دون ذلك. وقتله أحد أتباعه، وله كتاب أسماه خلع النعلين في التصوّف.

عـلى أيـة حال فإن أشهر هؤلاء شيخ الإسلام محيي الدين بن عربي الذي نقل أفكاره وتصـوفه إلى الشـام. ولــه مـن الأفكـار الصوفية ما يعجز عن طرحـها الفلاسفة، خاصة في مسالة التأويل والتفسير الصوفي الإشاري للقرآن الكريم.

ويطـول القـول لـو عددنـا أسمـاء الصـوفيين والمتصوّفة في الأنـدلـس. فكما عرفنا منهم الكثيرين في المشرق فإنهم في الأندلس لا يقلون عددًا وأهمية عن أهل المشرق.

قلـنا في الـبداية إن المجـتمع الأندلسـي تكـون مـن عناصـر عربـية وبربرية، وكان في الأندلس أهل البلاد من المسيحيين وبعض اليهود.

أمـا النصـارى أو العجـم المسـتعربون فكانـت لهم حياتـهم الدينـية الخاصة، فقد تعلموا العربـية وظلـوا يحـتفظون بعقـيدتهم. وقـد تمتعوا بحرية تامّة في إقامة شعائرهم الدينية، وكـان لهـم قاض نصراني يفصل في منازعاتهم يعرف بقاضي العجم. وكانت لهم كنائسهم وأديرتهم الخاصة مثل دير أرملاط ودير سانخوان دي لابينا الذي أقامه الراهبان الأخوان فوتـو وفلـيكس. في شمـال أسـبانيا. وكانـت أشبيلية في العصر الأموي مركزًا أسقفيًا هامًا. وكـان أول مـن تـولى أسـقفية أشبيلية المطران ابن المندين غيطشة، وكان النصارى يقرعون نواقيسهم.

وقـد عـرف مـن هـؤلاء شخصـيات لعبـت دورًا هامًـا في تـاريخ الإسلام بالأندلس مثل الأسـقف ربـيع بـن زيـد المعـروف بــ (ريسـيموندو) ومطران طليطلة عبيد الله بن قاسم، وأسقف قرطبة أصبغ بن عبد الله بن نبيل [1].

أمـا الـيهود فقـد تمـتعوا بتسامح كبير من جانب العرب، وكانت غرناطة تزخر بأكبر جالـية يهوديـة فسميت بذلـك غـرناطة الـيهود. وكـان لهـم كُنُسـهم الـتي يقيمون فيها

---

(١) د. صلاح الدين محمد نوار: نظرات في تاريخ المغرب والأندلس في العصر الإسلامي، ص١٣٢-١٣٣.

شعائرهم بحرية تامة، وقد برز منهم عدد من العلماء الذين ذاع صيتهم وشهرتهم في الأندلس كلها.

الحياة العلمية والفكرية

تتسع الحياة العلمية في الأندلس لتشمل عدة علوم ومعارف. منها ما هو نظري ومنها ما هو عملي مادي. وقد أدخلنا في هذا الجانب بعض جوانب الحياة الفكرية الصرفة ونعني بها الفلسفة وعلم الكلام. بيد أن العلوم التي اتسعت وصار لها علماؤها واختصاصيّوها أضفت على الحياة الأندلسية حركة دائبة وتفاعلاً بين البيئة والمجتمع الجديد.

ومن الطبيعي أن نرى العلماء يكثرون ويبدعون في كثير من جوانب العلوم، وقد رأينا عند الحديث عن الجانب العمراني أن كثيرًا من المهندسين كان لهم الدور الأول في تشييد القصور والبيوت والمنشآت الأخرى.

وكانت بعض المدن الأندلسية كقرطبة وأشبيلية قد تقدمت في علومها بسبب رعاية العلماء والخلفاء لأبناء المجتمع للتعلم والتبحّر في كثير من المعارف. وقد ذكر المؤرخون ما لقرطبة من فضل في تقدم العلوم والفنون والآداب. وعلى اعتبار أنها كانت حاضرة الخلافة وعاصمة الدولة ومقر الخليفة فقد تجمّعت فيها كل الكفاءات من العلماء والدارسين والراغبين في العلم. وقد قصدها العلماء من المشرق والمغرب خاصة بعد أن ضاق المشرق بأهل العلم والمعرفة. ولم يتردد حكام قرطبة من جانبهم في مباركة هذا النشاط العلمي فسعوا في توفير الأمن والاستقرار لهؤلاء الوافدين من المشرق. فأحاطوهم برعايتهم وغمروهم بعطاياهم. وكان حكام قرطبة مستنيرين يقدّرون العلم والمشتغلين به، وبلغت الأندلس ذروتها في العلوم في زمن الخليفة المستنصر.

ويمكن أن نصنف أنواع العلوم التي عُرف بها الأندلسيون على الشكل التالي:

١- التاريخ والجغرافيا.
٢- الطب والرياضيات والصيدلة.
٣- العلوم الفلسفية.
٤- العلوم البحرية.
٥- العلوم اللغوية والنحوية.
٦- علوم الزراعة والري.

أما بالنسبة للتاريخ فقد أنجبت قرطبة وحدها عددًا من كبار المؤرخين في الأندلس من أقدمهم ثلاثة يحملون اسم الرازي اشتغلوا جميعًا بالكتابة التاريخية. وأولهم محمد بن موسى الرازي ت ٢٧٣ الذي صنّف كتاب الرايات، وهو كتاب تاريخي وجغرافي ذكره المقري في كتابه: نفح الطيب في المجلد ٤. والثاني هو أحمد بن محمد بن موسى الرازي الملقب بالتاريخي ت ٣٢٤ الذي ألّف كتابين أحدهما في صفة أهل قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها على نحو ما كتبه ابن أبي طاهر في أخبار بغداد. والثاني في أخبار ملوك الأندلس. والثالث عيسى بن أحمد بن محمد بن موسى الرازي الذي ألّف كتبًا في تاريخ الأندلس. وحجاب خلفاء الأندلس. وكانت كتب الرازي الأخير ذات تأثير بالغ في التاريخ الأسباني الذي كتبه بدرودل كورّال القرن ١٦ في كتابه المعروف بالتاريخ العربي.

وظهر عدد من المؤرخين وعلماء التاريخ في عصر الخلافة الأموية كابن القوطية القرطبي الذي توفي عام ٣٦٧هـ، وكان حافظًا لأخبار الأندلس عالمًا برواية سير أمرائها. وله في ذلك كتاب عن فتح الأندلس عنوانه تاريخ افتتاح الأندلس. ويعتبر من أهم مصادر تاريخ الأندلس زمن الولاة وعصر الإمارة الأموية.

ومنهم أيضًا المدعو عريب بن سعد ت ٣٦٩، وكان من قرطبة ومن أصل مسيحي وكتب مختصرًا لكتاب الطبري المشهور في التاريخ، وقد زاد عليه أخبار المغرب والأندلس. وكان أشهر المؤرخين في عصري الخلافة والطوائف أبو مروان حيان بن خلف بن حيان المعروف بابن حيان ت ٤٦٩، ويعتبر شيخ المؤرخين الأندلسيين وأهم ما صنفه من الكتب. كتاب المقتبس المتين. وأخبار الدولة العامرية. والبطشة الكبرى. وكلها تعرف باسم التاريخ الكبير لابن حيان. وقد كان لابن حزم الظاهري باع في التاريخ، ومن كتبه كتاب جمهرة أنساب العرب وكتاب نقط العروس.

واتجه عدد من مؤرخي الأندلس إلى التراجم في علماء الأندلس وأشهرهم ابن عبد البر النمري ت ٤٦٣، الذي وضع كتابًا في فقهاء قرطبة والخشني مؤلف كتاب تاريخ قضاة قرطبة الذي يعتبر من أهم مصادر الحياة الاجتماعية في الأندلس من الفتح حتى عصر حكم المستنصر. ومنهم أيضًا ابن الفرضي الذي صنف كتابًا عن علماء الأندلس وتاريخهم. وعلى نمطه ألّف المؤرخ المعروف ابن بشكوال ت٥٧٨، كتاب الصلة الذي أكمل به كتاب تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي [1].

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج٢، ص٢٠٣-٢٠٤.

ويرى أحمد أمين في كتابه ظهر الإسلام أن ابن حبيب يعد أقدم المؤرخين الأندلسيين، وقد عاش في البيرة ثم قرطبة ثم رحل إلى المشرق. وألف في كل العلوم والتاريخ وسمى كتابه- التاريخ – وهو أشبه ما يكون بتاريخ الطبري فيتكلم في ابتداء الخلق خلق الدنيا والسموات والبحار والجبال والجنة والنار وآدم وحواء وإبليس، ثم ذكر الأنبياء وهذا القسم من تاريخه مليء بالأساطير والإسرائيليات التي تروى عن وهب بن منبه. وكعب الأحبار، ولما وصل إلى تاريخ الأندلس وذكر فتحها كان كذلك مملوءاً بالأساطير. وقد تفوق ابن حيان بتاريخه الشامل للسياسة والأحداث الاجتماعية وتراجم بعض الأفراد، ومن المؤرخين أيضًا علي بن الأبّار، وهو محدث إلى جانب كونه مؤرخًا، وقد ولد في بلنسية سنة ٥٩٥هـ، وظل أكثر من عشرين سنة يتتلمذ لأبي الربيع بن سالم أعظم محدثي الأندلس في عصره وقد ألّف كتابًا سماه التكملة لكتاب الصلة. فيكوّن لنا مجموعة متسلسلة من أخبار العلماء.

ومن أشهر من كتب في التراجم ابن بسام الذي ألّف كتابه المشهور الذخيرة، وقد وضعه على نمط كتاب اليتيمة للثعالبي، وقلّده في سجعه واستعاراته، ومجازاته، وقد قسم كتابه إلى أربعة أقسام. تحدث في القسم الأول عن قرطبة، وفي الثاني عن أشبيلية، وفي الثالث عن بلنسية. وقسم للطارئين على الأندلس. وهو يعرض لتاريخ الملوك والوزراء بشكل دقيق ويزن آثارهم الأدبية وزنًا صحيحًا [1].

ويلاحظ أن التاريخ سواء كان تاريخًا سياسيًا أو تراجم رجال متأثر من ناحية المؤرخين بعلم الحديث ومنهجه أكثر من المشرق. والسبب كما يرى أحمد أمين. أن منهج التعليم كان بالأندلس منهجًا دقيقًا يسوده فقه الإمام مالك. وكان المؤرخون أشبه بالفقهاء، وقد يتصل التاريخ في الأندلس بالأدب أكثر مما يتصل المؤرخ المشرقي به، والسبب أن أكثر المؤرخين بالأندلس كانوا أدباء شعراء أو ناثرين.

وقد وجد في الأندلس صنف من التاريخ لم نجده كثيرًا في المشرق، فقد رأينا في ترجمة ابن عبد ربه في العقد الفريد أنه وضع ملحمة في أعمال عبد الرحمن الناصر وغزواته مؤرخة بالسنين. ورأينا ملحمة أخرى لأبي طالب عبد الغفار مما لم نجد له نظيرًا في

---

(١) المصدر السابق، ص٢٩٠ـ٢٩١.

المشرق. ثم رأينا أرجوزة لابن المعتز في تسجيل الأحداث في زمانه، ولكن قصيدة ابن المعتز في باب الاجتماع أدخل. وملحمة ابن عبد ربه وأبي طالب في باب التاريخ أدخل [1].

هذا ما كان بشأن التاريخ والمؤرخين، أما ما كان بشأن الجغرافيا، فإن ذلك لابد أن يذكرنا بأن علم الجغرافيا لا يقتصر فقط على دراسة الأرض والاتجاهات، إنما يدخل فيه علم الرحالة الجغرافيين الذين جمعوا بين الرحلة وبين العلم.

وقد جمع بعض المؤرخين في شخصيتهم ميلهم إلى علم الجغرافيا إضافة لما هم عليه من علم التاريخ كابن حيان الذي سبق ذكره.

ومما ساعد على الاهتمام بهذا العلم تنافس العلماء على إظهار محاسن كل مدينة أو إقليم على حساب مدينة أخرى أو إقليم آخر. فكل جغرافي كان يحاول إظهار بلده كأحسن بلد من بلاد الأندلس.

ومن أشهر جغرافيي الأندلس وأقدمهم البكري وهو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب وما تزال آثاره الجغرافية موجودة إلى اليوم ككتاب معجم ما استعجم. وقد ازدهر اسمه في النصف الثاني من القرن الخامس وسُمّي البكري نسبة إلى قبيلة بكر العربية، وقد نزل في قرطبة أيام بني جهور. ثم دخل في خدمة أمير المرية. وفي كتابه المشار إليه كان يذكر اسم البلدة ويروي أشهر ما لها. وله أيضًا كتاب المسالك والممالك، ومن أشهر الجغرافيين الأندلسيين الشريف الإدريسي، وهو أبو عبد الله محمد بن محمد ويُسمى بالشريف بسبب نسبه إلى الحسين ﷺ، وأحيانًا يلقب بالقرطبي. وقد ألّف كتابه المشهور نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والجزر والمدائن والآفاق، وشحنه بالخرائط اللازمة التي تزيد على الأربعين خريطة، وكان أعظم كتاب في الجغرافيا في زمنه ولذلك ترجم إلى اللاتينية وطبع [2].

---

(١) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٨٧.

(٢) المصدر السابق، ص٢٩٠-٢٩١.

ومن جغرافيي الأندلس المشهورين أبو بكر عبد الله بن الحكم المعروف بابن النظام. بيد أن الإدريسي أشهر هؤلاء الجغرافيين. حيث قدم الإدريسي لخارطة العالم التي استخدم فيها الألوان.

وقد تحدث الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق كثيرًا عن الصين والهند والنصف الشمالي من القارة الإفريقية مما استمده من كتب الجغرافيين العرب والرحالة، ومما دوّنه إثر رحلات واسعة قام بها هو شخصيًا. وقد أعد الإدريسي لملك صقلية رجار الثاني صورة للأرض في دائرة من الفضة مبينًا فيها الأقاليم السبعة. ويعتبر كتاب الإدريسي أعظم عمل جغرافي في القرون الوسطى. وأهم ما فيه أن الإدريسي يذكر في الصفحة الأولى أن الأرض كروية الشكل [1].

وكما قلنا فإن علم الجغرافيا ارتبط بالرحلات والرحالة العرب. وكان في الأندلس رحّالون كثيرون، ومن أشهر رحالي الأندلس ابن جبير وابن بطوطة. فابن جبير ولد ببلنسية سنة ٥٤٠، ودرس الفقه والحديث في شاطبة، ثم حج وذهب إلى غرناطة، ثم إلى سبتة ثم إلى الإسكندرية والقاهرة وفي رجوعه زار العراق ومدنها، ورحل إلى الشام فزار حلب ودمشق. وركب البحر من عكا إلى صقلية. ومن هناك إلى غرناطة. ورحل بعد ذلك رحلتين إلى المشرق وقد ملئت رحلته بالفوائد. فهو يذكر العلماء الذين رآهم ويصنفهم وما إليهم من أصحاب المهن هذا عدا وصف المدن أو البلاد التي كان يمر بها.

أما ابن بطوطة الرحالة المشهور فقد سُمّي بالطنجي لأنه ولد بطنجة، وكان أهله بالأندلس. وقد بدأ رحلته بالحج إلى مكة عن طريق شمال إفريقية فمصر فالبحر الأحمر، وزار العراق وفارس ورحل مرة أخرى إلى جنوب بلاد العرب، ثم إفريقيا الشرقية، ورحل منها إلى الخليج الفارسي، ثم عاد إلى آسيا الصغرى، وبلاد القرم وزار القسطنطينية وبخارى وخوارزم وأفغانستان، ورحل إلى الهند وولي القضاء في دلهي، ومنها سافر إلى الصين عن طريق سيلان والبنغال والهند الأقصى، ثم رحل إلى بلاد العرب عن طريق جزيرة سومطرة، وكان كلما نزل ببلد يختلط بأهلها، وكثيرًا ما يتزوج منها مما يسهل عليه وصف أدق حياتها، وقد شرح عادات كل بلد وكان يهتم كثيرًا بالحديث عن رجال الدين، ولذلك يُعد كتابه وصفًا شاملاً للحياة الاجتماعية في عصره.

---

(١) د. أمين توفيق الطيبي: دراسات في تاريخ صقلية الإسلامية، ص١٣٠.

وقد أفاد في كتبه كثيرًا لأنها كُتب تاريخ حي يُعنى بالحياة أكثر مما يُعنى بالحروب والفتوح والجنود.

وقد ظلت كتب الرحالة الأندلسيين متداولة بين أهل المشرق والمغرب على السواء لما لها من أهمية في دراسة جغرافيا البلاد وسكانها ونظام الحياة فيها. وقد أفاد هؤلاء الرحالة الأوروبيون في كثير من خفايا علوم الجغرافيا، وهذا ما سندرسه في فصل قادم عندما ندرس التأثير الحضاري العربي بالأوروبيين وعلومهم واكتشافاتهم.

الرياضيات والطب والصيدلة

عرفت الأندلس علوم الرياضيات والطب والصيدلة، شأنها شأن أي حضارة دامت قرونًا عدة، وقد قدمت في هذا المجال كثيرًا من التقدم والازدهار، كما قدمت العديد من الأسماء في هذه المجالات.

ومن المعروف أن علماء العرب كانوا يجمعون إلى جانب الرياضيات الفلسفة وعلم الكلام. حتى أننا نرى هذا الارتباط وثيقًا لدى أكثر العلماء المسلمين. والواقع أن قرطبة وحدها أنجبت عددًا كبيرًا من العلماء الموسوعيين الذين جمعوا العلوم في ثقافتهم ومعارفهم. وكانت قرطبة مركزًا لدراسات الطب والهندسة في سائر الأندلس. ففيها ظهرت أعظم مجموعة من الأطباء والصيادلة الذين كانوا يؤلفون مدرسة في علم الطب والعقاقير. وكان أهل الأندلس يعولون في الطب على كتاب مترجم من كتب النصارى يقال له الإبريشم، ومعناه الجامع أو المجموع. وعندما أصبح عبد الرحمن الناصر خليفة دخلت الكتب الطبية من المشرق وجميع العلوم وظهر الأطباء المشهورون في هذا العصر.

وهذا الازدهار دعا الحكم المستنصر إلى إنشاء ديوان الأطباء يقيد فيه اسم كل طبيب يحترف مهنة الطب والصيدلة ويزاولها، فإذا ما ارتكب خطأ يتوجب العقاب أسقط اسمه من الديوان، كما حدث بالنسبة للطبيب أحمد بن حكيم بن حفصون الذي لازم الحاجب جعفر الصقلبي. فلما سجن جعفر وسقطت منزلته ثم مات أسقط صاحبه الطبيب من ديوان الأطباء وبقي مخمولاً إلى أن توفي.

وفتحت قرطبة أبوابها للدارسين والباحثين والعلماء في الطب والرياضيات من جميع أنحاء الأندلس، أمثال ابن البغونش الطليطلي الذي قدم على قرطبة لطلب العلم فيها. فأخذ عن مسلمة بن أحمد علم العدد والهندسة، وعن محمد بن عبدون الجبلي وسليمان

بـن جلجل وابن الشناعة ونظرائهم في علم الطب. وفي عصر المستنصر تولى أحمد بن أحمد الحـراني الطبيـب إقامـة خـزانة بالقصـر للطـب لم يكن قط مثلها رتب لها ١٢ طبيًا من الصقالبة لتجهيز الأدوية المركبة والمعجونات.

ومـن أقـدم العـلماء في الحساب والنجوم مسلم بن أحمد بن أبي عبيدة الليثي القرطبي المعـروف بصـاحب القـبلة. ويحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة القرطبي وكان بصيرًا بالحسـاب والـنجوم والطـب، متصـرفًا في العلـوم. ومسـلمة بن القاسم القرطبي ومحمد بن عبدون الجبلي العدوي العذري الذي اشتغل بالحساب والهندسة في أيام المستنصر.

وبـرع أبـو القاسـم إصبغ بـن محمـد بـن السـمح المهـندس ت ٤٢٦، في عـلم النجوم والهندسـة والعـدد، وألّـف في ذلـك عـددًا مـن الكتب منها كتاب المدخل إلى الهندسة في تفسـير كـتاب إقليدس، ومنها كتاب ثمار العدد المعروف بالمعاملات، ومنها كتاب طبيعة العـدد. وكـتابه الكـبير في الهندسـة، وكـتابان في الإسطرلاب أحدهما في التعريف بصورة صنعتها، والآخر في العمل بها والتعريف بمواقع ثمرتها [1].

ومـن أعظـم عـلماء الرياضـيات بقرطبة في عصر الخلافة الأموية أبو القاسم مسلمة بن أحمـد المجـريطي، وكـان إمـام الرياضـيين بـالأندلس. وأعـلم مـن سـبقه في علم الأفلاك وحـركات الـنجوم. واهـتم برصـد الـنجوم والكواكـب، وشـغف بدراسـة كتاب بطليموس المعـروف بالمجسطي، وقد تتلمذ على يديه عدد كبير من التلاميذ في الأندلس من أشهرهم ابـن السـمح المهـندس وابـن الصفار المهندس المنجم والزهراوي القرطبي المهندس الطبيب والكـرماني المهـندس وابـن خلدون الأشبيلي المهندس الطبيب وابن الخياط وابن البغونش وجميعهم درسوا عليه الهندسة والعدد.

والواقـع أن أول مـن اشـتغل في الطب في الأندلس جماعة من المعاهدة المتطببين منهم. خـالد بـن يـزيد بـن رومان النصراني، وكان بارعًا بالطب في زمن الأمير محمد، كما كان يصـنع بـيديه الأدويـة الشـجارية. وجـواد النصـراني وينسـب إلـيه اللّفوق ودواء الراهب والبسـونات المنسـوبة إلـيه [2]. ومنهم ابن ملوكة النصراني الذي اشتهر في أيام الأمير عبد الله، وأول دولـة الناصـر، وكـان يصـنع الأدويـة بنفسـه ويفصـد العـروق. ومـنهم إسحق

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص٤٨٧.

(٢) ابن جلجل: طبقات الحكماء والأطباء، تحقيق الأستاذ فؤاد السيد – القاهرة، ص٩٨.

الطبيب وكان مسيحي النحلة، أقام بقرطبة في عهد الأمير عبد الله، وكان يصنع الأدوية بنفسه. وأول من اشتهر بالطب في الأندلس من المسلمين في عهد الأمير محمد أحمد بن إياس القرطبي. ونبغ بعده كثيرون من أهل قرطبة منهم محمد بن فتح طملون الذي برع في الطب براعة علا بها على أسلافه واختص بعمل المراهم لعلاج القروح [1].

وفي عصر عبد الرحمن الناصر تألقت شخصيات عديدة في علم الطب والصيدلة اشتغل معظمهم في خدمة الخليفة. منهم يحيى بن إسحق النصراني الذي ألّف كتابًا في الطب يشتمل على خمسة أسفار يسمى الإبريشم. ومنهم عمران بن أبي عمر وكان من أطباء الخليفة ومنهم أبو بكر سليمان بن تاج. ومنهم ابن أم البنين. ومنهم الوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن شهيد مصنف الأدوية المفردة. واشتهر غيرهم العشرات من الأطباء وعلماء الصيدلة.

ولعله من المفيد أن نترجم لبعض أقطاب الأندلس الذين برعوا في الطب والعلوم الرياضية والصيدلة لنرى مدى ما تمتعوا به من ثقافة علمية واسعة وعملية كان لها الأثر البالغ في تقدم العلوم في أوروبا.

١- مسلمة المجريطي

وهو أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي الأندلسي، ولد بمجريط (مدريد) في منتصف القرن العاشر الميلادي حوالي ٩٥٠م، وذكر القفطي أنه كان إمام الرياضيين بالأندلس، وأعلم من كان قبله بعلم الأفلاك وحركات النجوم. كانت له عناية بأرصاد الكواكب وشغف بتفهم كتاب المجسطي وله كتاب حسن في ثمار العدد وهو المعنى المعروف بالأندلس بالمعاملات. وهذا الكتاب الذي ذكره القفطي (المعاملات) كتاب يبحث في أمور الحساب وعلاقته بالتجارة.

برع مسلمة في الرياضيات والفلك والكيمياء. ففي الرياضيات كتب عددًا من الكتب في الحساب والهندسة، وكانت له مهارة فائقة في الاشتغال بالأعداد ونظرياتها خاصة فيما يتعلق بالأعداد المتحابة، وله في ذلك عدة رسائل. بالإضافة إلى مؤلفات أخرى في علم الحساب منها كتاب المعاملات الذي ذكر سابقًا [2].

---

(١) المصدر نفسه، ص٩٩.

(٢) قدري حافظ طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص٢٥٧.

وتذكر بعض كتب التاريخ أنه ألّف عدة مؤلفات في الهندسة. وفي الفلك، كان لمسلمة دور رائد وعظيم وقد أجاد في أعماله الفلكية. ومن أهم الأعمال التي قام بها عنايته بالجداول الفلكية أو الأزياج كما كانت تسمى. فقد أعد كتابًا اختصر فيه تعديل الكواكب في زيج البتاني، وعني بزيج محمد بن موسى الخوارزمي، ونقل تاريخه الفارسي إلى التاريخ العربي ووضع أوساط الكواكب لأول تاريخ الهجرة، وزاد فيه جداول حسنة على أنه اتبعه على خطئه فيه، ولم ينبّه إلى مواضع الغلط منه.

ولمسلمة أيضًا رسالة في الاسطرلاب ترجمت إلى اللاتينية. وألّف في الكيمياء كتابين هما رتبة الحكيم وغاية الحكيم. وقد تمت ترجمة غاية الحكيم إلى اللاتينية حوالي منتصف القرن الثالث عشر الميلادي بأمر من الملك ألفونس. أما كتاب رتبة الحكيم فيعد من أهم المصادر التي يمكن الاعتماد عليها في معرفة تطور بحوث الكيمياء في الأندلس. كذلك احتوى كتاب غاية الحكيم على بحوث تُعنى بدراسة تاريخ الحضارات القديمة. ومكتشفات الأمم السابقة كالأنباط والأقباط والسريان والهنود وغيرهم ومجهوداتهم في العلوم والعمران بالإضافة إلى ما فيه من بحوث موجزة في علم الفلك والرياضيات والكيمياء والسحر والحيل والتاريخ الطبيعي والبيئة وتأثيرها على الكائنات وغير ذلك [1]. وقد تتلمذ على يد مسلمة المجريطي كثير من علماء الأندلس الذين كان لهم دور كبير في تقدم العلوم بالأندلس خاصة في قرطبة ودانية وغيرها منهم، أو السمح الغرناطي. وابن الصفار والزهراوي والكرماني وغيرهم كثيرون. وتوفي مسلمة عام ٣٩٨هـ/١٠٠٧م، وذلك قبيل الفتنة التي حدثت بالأندلس.

٢-أبو القاسم الزهراوي

وهو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي، ولد بالزهراء إحدى ضواحي قرطبة، وإليها نسب، وكان مولده عام ٩٣٦م، وهو من أوائل الأطباء العرب والمسلمين الذين نبغوا في علم الجراحة، وعلى يديه وصل علم الجراحة إلى قمته في ذلك الوقت، ويعتبره بعضهم فخر الجراحة العربية، وثالث ثلاثة نبغوا في الطب العربي. الرازي وابن سينا والزهراوي، وهم الذين كانوا أعمدة الطب العربي والإسلامي. واعتمدت عليهم أوروبا في بناء نهضتها الطبية الحديثة.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٥٨.

والزهراوي هو أول من استعمل ربط الشرايين لمنع النزيف، واستخدم عدة آلات جراحية في عمله كجرّاح. وكان أكثر هذه الآلات من ابتكاره، وقد احتوى كتابه (التصريف لمن عجز عن التأليف) على رسوم لعدد من هذه الآلات الجراحية، وبذلك وُصف الزهراوي بأنه أكبر جرّاح عرفته الحضارة الإسلامية والعصور الوسطى قاطبة [1].

ويشار إلى أن الزهراوي مات بالأندلس بعد سنة ٤٠٠هـ، وتشير بعض المصادر الأخرى إلى أن وفاته كانت عام ١٠١٣م.

أما كتابة التصريف فيعتبر دائرة معارف طبية قسمت إلى ثلاثين فصلاً، مبوبة في ثلاثة أقسام. الأول في الطب الداخلي والثاني في الكيمياء. والثالث في الجراحة. وقد امتاز القسم الثالث الخاص بالجراحة برسوم آلات جراحية، وآلات خلع الأسنان المستعملة في زمن الزهراوي. وقد ترجم هذا القسم إلى اللاتينية، وأصبح مرجعًا لأطباء أوروبا في عصر النهضة، حتى أن أحد أساتذة الطب في أوروبا استشهد بأقوال الزهراوي ونظرياته في الجراحة أكثر من مائتي مرة في مؤلفاته. وقد ترجم هذا الكتاب أكثر من مرة حيث ترجم إلى العبرية واللاتينية في مدينة البندقية عام ١٤٩٥م، وفي بال عام ١٥٤١م.

٣-ابن الزرقيال

وهو أبو إسحق إبراهيم بن يحيى النقاش المعروف بولد الزرقيال الأندلسي، أبصر أهل زمانه بأرصاد الكواكب، وهيئة الأفلاك واستنباط الآلات النجومية، وله صحيفة الزرقيال المشهورة في أيدي أهل هذا النوع التي جمعت في علم الحركات الفلكية كل بديع مع اختصارها. وتذكر المصادر التي درست حياته أنه قام بحوالي ٤٠٢ رصد لتعيين أقصى بعد للشمس، وقام بتحديد مقدار حركة المبادرة السنوية لنقطتي الاعتدالين بخمسين ثانية، أي ما يعادل ما جاء في أزياج الجداول الفلكية الحديثة بالضبط. وكان ابن الزرقيال يراقب حركة الأفلاك بواسطة آلات اخترعها بنفسه، كما قام بصناعة ساعات دقاقة أعجب بها أهل طليطلة إعجابًا لا حد له [2].

---

(١) عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمة، ص١٧٦.

(٢) غوستاف لوبون: حضارة العرب، ط٤، ترجمة: عادل زعيتر – القاهرة، ص٤٦٢.

وقد اعتمد بعض العلماء على أرصاد ابن الزرقيال التي كانت في غاية الدقة. منهم ابن الحماد الأندلسي.

وكـان لابن الزرقيال مساهمات في العدد والحساب، وقد قام بآخر إرصاداته الفلكية في قرطبة أواخر عام ٤٨٠هـ حوالي ١٠٨٧م.

٤ - ابن السمح الغرناطي

هـو أبـو القاسم أصبغ بـن محمد بن السمح المهندس الغرناطي. عاش في زمن خلافة الحكـم. وكـان محققًا لعـلم الحسـاب والهندسـة، بارعًا في علم الفلك وحركات النجوم، وكانـت له بالإضـافة إلى ذلك عناية بعلم الطب. وله في كل هذه المجالات مؤلفات قيمة. ففي علم الحساب أو العدد له كتاب طبيعة العدد، بالإضافة إلى كتابه المشهور ثمار العدد الـذي اشـتهر باسم المعاملات، وفي علم الهندسة ألّف كتابًا كبيرًا في الهندسة، وضَّح فيه أجـزاءها مـن الخـط المستقيم والمقوس والمـنحني. وكـتاب (المدخل إلى الهندسة في تفسير كـتاب إقلـيدس)، وفي عـلم الفلـك وحـركات الـنجوم له عـدة كتـب منها كتابان في الآلة المسمّاة بالاسـطرلاب. أحدهمـا في الـتعريف بكيفية صنعها وقسمه إلى مقالتين. والآخر في العمل بالاسطرلاب، والتعريف بفوائده وقد قسّمه إلى مائة وثلاثين بابًا، وكذلك له جدول فلكـي أُلّف على أحد المذاهب الهندية المعروفة (بالسند هند)، وهو عبارة عن كتاب كبير قسـمه إلى قسمين الأول في الجـداول والـثاني في رسـائل الجـداول. وتـوفي أبـو القاسم بن السمح الغرناطي بغرناطة سنة ٤٢٦هـ.

٥ - أبو الصلت

هو أميّة بن عبد العزيز بن أبي الصلت، ولد في بلدة دانية شرق الأندلس عام ٤٦٠هـ، وهـو مـن الماهـرين في صـناعة الطب وغيرها من صناعات العلوم الأخرى. وقد بلغ في علم الطـب مـبلغًا لم يـبلغه أحـد غـيره مـن الأطـباء في زمانـه. وكـان أوحـد عصـره في العـلم الرياضـي، متقـنًا لعـلم الموسـيقى وعمله، جيد الضرب على آلة العود. ومن القصص التي تـروى عـنه أنـه فكـر برفع السفن والمراكب الغارقة في قاع البحر. حيث غرق بالقرب من ميناء الإسكندرية أحد المراكب التي كانت محمّلة بالنحاس، ولم يجد حيلة لرفعها لطول المسـافة بـين سـطح البحر وعمقه، وفكر أبو الصلت – وكان في زيارة للإسكندرية في زمن ولايـة الأفضـل في طـريقة يمكـن بهـا تخلـيص المراكب الغارقة وانتشالها من قعر البحر.

واجـتمع بالأفضـل حيث هيأ له طلبه، وقام أبو الصلت بتطبيق الفكرة التي طافت بذهنه بعد أن أعد العدة للعمل، وعندما تهيأت وضعها في مركب عظيم على موازاة المركب الذي قد غرق وأرسى إليه حبالاً مبرومة من الإبريسم، وأمر قومًا لهم خبرة في البحر أن يغوصوا ويوثقـوا ربـط الحبال بالمركب الغارق، وكان قد صنع آلات بأشكال هندسية لرفع الأثقال في المركـب الـذي هم فيه، وأمر الجماعة بما يفعلونه بتلك الآلات، ولم يزل شأنهم كذلك وحـبال الإبريسم ترتفع أولاً فأولاً وتنطوي على دواليب بين أيديهم حتى بان لهم المركب الذي غرق وارتفع إلى سطح الماء [1].

ويـدل عملـه إلى مـا وصل إليه التقدم العلمي الطبيعي والهندسي عند العرب والمسلمين في القـرون الوسـطى، إذ إن في صـنع آلات بأشـكال هندسـية واستخدامها في رفع الأثقال دليلاً على استيعاب العرب لعلوم الهندسة والميكانيكا (الحبل) وبراعتهم في الجمع بينهما بطريقة عملية. ومن مؤلفات أبي الصلت في العلوم نذكر:

١- كـتاب الرسـالة المصـرية قـد ذكر فيها ما رآه في مصر من الآثار وهيئاتها، ومن اجتمع بهم فيها من الأطباء والمنجمين والسفراء والأدباء وغيرهم.

٢- كـتاب الأدويـة المفـردة عـلى ترتيـب الأعضـاء المتشـابهة الأجزاء والآلية، وهو كتاب مختصر رتبه ترتيبًا حسنًا.

٣- كتاب في الهندسة.

٤- كتاب في العمل بالإسطرلاب.

٥- كتاب تقويم منطق الذهن.

وقد توفي أبو الصلت سنة ٥٢٩هـ، بمدينة المهدية بتونس.

٦- ابن باجة

هـو أبـو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة، كان عالمًا بعلوم الأوائل ويعد من الأفاضل في صناعة الطب، وله تعاليق في الهندسة وعلم الهيئة (الفلك) تدل على براعـته في هـذا الفن. وقد ذكره الكثير من المؤرخين بالتقدير والإعجاب والاعتراف بفضله في جميع العلوم التي كان بارعًا فيها.

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص٥٠٢.

وفي الجانب الفلسفي نجد أن ابن باجة بنى فلسفته العقلية على العلم الرياضي والعلم الطبيعي، وقد رأى بعض الدارسين لفلسفته بأنه خلع على مجموع الفلسفة الإسلامية سيطرة الجدل، ثم خلع عليها لباس العلم الصحيح وسيرها في طريق جديدة. كذلك يذكر بعض المؤرخين أن ابن باجة يعتبر أول فيلسوف في العصور الوسطى فصل بين الدين والفلسفة، في البحث. ذلك أنه وقف أمام مشكلة الخلاف بين الشريعة والحكمة استنتج بعبقريته أنه ليس من الضروري أن يهتم هو بأمر لم يستطع أحد قبله أن يبت فيه، من أجل ذلك لم يتعرض للدين قط بل انصرف بكليته إلى الناحية العقلية [1].

ومن آرائه الفلسفية أن الإنسان يستطيع بلوغ السعادة القصوى عن طريق العلم والتفكير لا بإماتة الحواس وتجسيم الخيال كما يفعل المتصوفون. وهو بذلك يكون قد مهد السبيل للاتجاه الجديد في الشرق والغرب معًا. وربما كانت هذه الآراء دافعًا لخصومه لاتهامه بالزندقة.

ولابن باجة أثر كبير في أوروبا المسيحية، وله فضل عظيم في ازدهار الفلسفة بالمغرب، وممن تأثر به وبآرائه العلمية والفلسفية جابر بن الأفلح في دراساته وبحوثه في علم الفلك والبطروجي، أيضًا في علم الفلك. وابن البيطار في ميدان الطب والعلاج، وكذلك ابن طفيل وابن رشد الذي كان أحد تلاميذه.

وله العديد من المؤلفات في العلوم والفلسفة نذكر منها:

١- شرح كتاب السمع (السماع) الطبيعي لأرسطوطاليس.
٢- كتاب اتصال العقل بالإنسان.
٣- كتاب تدبير المتوحد.
٤- كتاب النفس.
٥- كتاب نبذة يسيرة على الهندسة والهيئة.
٦- كتاب التجربتين على أدوية ابن واقد.
٧- كتاب اختصار الحاوي للرازي.
٨- فصول قليلة في السياسة المدنية.
٩- جواب المسائل عن هندسة ابن سيد المهندس وطرقه.

---

(١) عمر فروخ: عبقرية العرب في العلم والفلسفة، ط٥ - بيروت - المكتبة العصرية، ص١٥٢.

٧ - جابر بن الأفلح

ولد جابر في أشبيلية في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، وتوفي في قرطبة في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي. وهذا العصر الذي عاش فيه جابر هو العصر الذي بدأت فيه العلوم في الأندلس والمغرب تأخذ طريقها نحو التقدم والازدهار.

وقد اشتهر جابر بن الأفلح في علم الفلك والرياضيات. وكان لمؤلفاته أثر كبير على تقدم هذه العلوم في عصر النهضة الأوروبية، حيث تُرجم العديد منها إلى اللاتينية وغيرها من اللغات الأخرى في تلك الفترة. ويذكر طوقان أن جابرًا ألّف تسعة كتب في علم الفلك يبحث أولها في المثلثات الكروية وقد ترجمت هذه المؤلفات إلى اللاتينية. وكان لهذه المؤلفات قيمة كبيرة في تاريخ هذا العلم. وله أيضًا كتاب في الهيئة في إصلاح المجسطي، الذي نقله جيرار الكرموني إلى اللاتينية، وتُرجم إلى العبرية. وفي هذا الكتاب انتقد جابر نظريات بطليموس التي تتعلق بالكواكب. وكان مما وضعه جابر في علم المثلثات المعادلة التي استنبطها وسميت فيما بعد بنظرية جابر، والتي تستعمل في حل المثلثات الكروية القائمة الزاوية، أي أن جابر زاد معادلة الأربع معادلات التي تنسب إلى بطليموس، وهذه المعادلة هي: جتاب = جتا أجاب. وينسب لجابر كذلك اختراع بعض الآلات الفلكية، وقد استعمل بعضها نصر الدين الطوسي في مرصده بمراغة.

٨ - ابن زهر الأندلسي

وهو طبيب مشهور ينحدر من عائلة اشتهرت بالطب، ولد في أشبيلية عام ٤٤٦هـ، وهو من الأطباء العرب القلائل الذين حصروا جهودهم العلمية في المجال الطبي وحده. وكان يذهب إلى التفريق بين الطب والفلسفة والدين والتنجيم [١].

وتشير بعض الدراسات إلى أن ابن زهر أثّر تأثيرًا بليغًا في الطب الأوروبي، وأن هذا التأثير ظل حتى نهاية القرن السابع عشر الميلادي، وذلك عن طريق ترجمة بعض كتبه إلى اللاتينية والعبرية. وكان صديقًا للفيلسوف ابن رشد، وله ألّف كتابه المعروف والذي اشتهر به (التيسير في المداواة والتدبير) ليكون مكملاً لكتاب ابن رشد (الكليات في الطب). وذلك بعد اتفاقهما على ذلك.

---

(١) أمين أسعد خير الله: الطب العربي، ترجمة: مصطفى أبو العز - ١٩٤٦م، ص١٥٧.

وفي كتاب التيسير يصف ابن زهر الأمراض بشكل واضح وجليّ دون الدخول في النظريات الفلسفية، كما كان يفعل بعض الأطباء، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية وطبع عدة مرات، وكان أحد مصادر أوروبا في القرون الوسطى.

وقد ألّف عددًا من الكتب منها كتاب الأغذية وكتاب الزينة وفيه يتحدث عن الدواء المسهل وكيفية أخذه. وله مقالة في علل الكلى، ورسالة كتب بها إلى بعض أطباء أشبيلية في علتي البرص والبهق. وكان من بين الذين أخذوا الطب عنه وتتلمذوا على يديه أبو الحسين بن أسرون المعروف بالمصدوم، وأبو بكر بن الفقيه القاضي ابن الحسن قاضي أشبيلية، وأبو محمد الشذوني والفقيه الزاهد أبو عمران بن أبي عمران.

٩- ابن رشد

وهو القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، ولد بقرطبة وكان من المشهورين بتحصيل العلوم. ومن المتميزين في الطب، وله فيه كتاب الكليات الذي أجاد في تأليفه. ويعرف العالم الإسلامي ابن رشد على أنه فيلسوف بل آخر فلاسفة العالم الإسلامي، والواقع كذلك فهو أكبر الفلاسفة على الإطلاق، وكان لمذهبه وآرائه الفلسفية أثر كبير في فلاسفة الغرب والعصور الوسطى، وتأثيره جعل أوروبا تخرج من عصور الظلام والجهل إلى نور العلم والتفكير الصحيح والسليم، وقد شرح ابن رشد فلسفة أرسطو يوم لم يكن أحد في أوروبا يستطيع فهمها، حتى عُرف في أوروبا باسم الشارح ويعنون بذلك شارح فلسفة أرسطو. ولكنه لم يكن شارحًا فحسب، إنما محللاً ومعلقًا ليبرز شخصيته الفلسفية الخاصة به.

وله من الكتب الطبية كتاب الكليات في الطب. وشرح أرجوزة ابن سينا في الطب. تلخيص كتاب المزج لجالينوس. وتلخيص كتاب الحميات لجالينوس. وشرح كتاب النفس لأرسطوطاليس. وجوامع كتب أرسطوطاليس في الطبيعيات والإلهيات. وكتاب الحيوان، ومسألة في نوائب الحمى. ومقالة في الترياق. وكتابه المشهور تهافت التهافت الذي يَرد فيه على الإمام الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة.

١٠- ابن البيطار

وهو الحكيم الأجلّ والعالم الفاضل أبو محمد عبد الله بن أحمد ضياء الدين المالقي المشهور بابن البيطار. ولد في مالقة في أواخر القرن السادس الهجري، ويقول عنه ابن أبي

أصيبعة مؤرخ الطب العربي وتلميذه. إنه كان أوحد زمانه وعلامة وقته في معرفة النبات وتحقيقه واختباره ومواضع نباته، ونعت أسمائه على اختلافها وتنوعها، وقد تعلم ابن البيطار علم النبات على عدد من العلماء في هذا الميدان، منهم أبو العباس النباتي الذي كان يجمع النباتات في منطقة أشبيلية. وقد طاف ابن البيطار في إفريقيا ومراكش والجزائر وتونس لدراسة النباتات الموجودة في هذه المناطق. ووصل مصر. ثم رحل إلى سوريا وطاف آسيا الصغرى بحثًا عن النباتات ومواطنها ودرس صفاتها وفوائدها [1].

واشتهر بأنه طبيب بارع وعشّاب وصيدلي ماهر. يعرف خصائص النبات وأنواعه وفوائد استخدامه في الدواء والعلاج.

وقد أتقن ابن البيطار ما جاء في كتاب ديسقوريدس في النباتات الطبية، وهو من أشهر كتب اليونان في هذا العلم، وترجم إلى العربية في الأندلس زمن عبد الرحمن الناصر الذي حصل عليه كهدية من إمبراطور الروم في بيزنطة. ولم يعرف الأندلس من يجاري ابن البيطار في فهم هذا الكتاب.

ولعل أهم كتبه كتاب (الجامع لمفردات الأدوية والأعشاب والأغذية. أو الجامع في الأدوية المفردة)، وكتابه المغني في الأدوية المفردة الذي رتّبه حسب مداواة الأعضاء المؤلمة،ويمكن القول بأن هذين الكتابين هما ثمرة جهود ابن البيطار ودراساته وبحوثه العلمية والعملية. وقد وضع ابن البيطار كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية في أربعة أجزاء حوالي ٨٠٠ صفحة من القطع الكبير. وتُرجم هذا الكتاب إلى الفرنسية والألمانية. وهو معجم مرتب ترتيبًا أبجدياً للأغذية والأدوية. وهو أكمل ما ألّفه العرب في هذا الموضوع. وقد اعتمد المؤلف في تاليفه لهذا الكتاب الهام على مؤلفات عديدة لمؤلفين سابقين له مثل ابن جلجل والزهراوي والغافقي والإدريسي وابن جزلة والرازي والدينوري وثابت بن قرة وابن سمحون وابن وحشية وابن العوام. وغيرهم من العلماء السابقين من اليونان كجالينوس وديسقوريدس. ويضم هذا الكتاب أكثر من ٢٣٣٠ مادة. جمع فيها كل ما ذكره اليونانيون والعرب عن الأدوية، ثم إنه زاد عليها حوالي ٣٠٠ دواء لم يذكرها أو يشر إليها أحد من العلماء أو الأطباء قبله [2].

---

(١) عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمة، ص١٥٧.

(٢) فريد جحا: تراث العرب القديم في ميدان علم النبات، ص٥٠ وما بعدها.

وقد ذكر في مقدمة الكتاب الهدف من تأليفه له، أما تسميته بالجامع (فلأنه جمع بين الدواء والغذاء). ويعده علماء النبات والمؤرخون أعظم ما ألّف في اللغة العربية عن النبات وقيمته في العلاج والغذاء.

وبالإضافة لهذين الكتابين ألّف ابن البيطار كُتبًا أخرى منها:

١- الإبانة والإعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام.

٢- شرح أدوية كتاب ديسقوريدس.

٣- كتاب الأفعال الغريبة والخواص العجيبة.

وتوفي ابن البيطار بدمشق في شهر شعبان سنة ٦٤٦هـ، فجأة دون سابق مرض.

١١- ابن جلجل القرطبي

ولد ابن جلجل في المائة الرابعة للهجرة وهذا القرن يعتبر قرن ازدهار الطب في الأندلس، وقد أسهم ابن جلجل في ميدان الطب في بلده معالجًا ومؤلفًا.

ومن أهم كتبه طبقات الأطباء والحكماء. الذي ترجم فيه لعدد من الأطباء المعاصرين له والسابقين من مختلف الأمم. وعني بطلب الطب فغلب عليه وعرف به على الرغم من أنه كان عالمًا بعلوم أخرى كالعربية وعلم الحديث. وقد ترجم له القفطي. وكذلك ابن أبي أصيبعة.

أما الأهمية التي يكتسبها ابن جلجل هي أنه كان معاصرًا لابن الهيثم. وابن سمحون الذي كان أول من بادر إلى تصنيف كتاب خاص بالأدوية المفردة.

ومؤلفات ابن جلجل هي:

١- تفسير أسماء الأدوية المفردة الواردة في المقالات الخمس لديسقوريدس ألّفه بمدينة قرطبة سنة ٣٧٢هـ، في عهد الخليفة هشام المؤيد بالله. وقد اجتهد ابن جلجل أن يفسر في هذا الكتاب أو يترجم المصطلحات اليونانية عند ديسقوريدس فجاء كتابه أشبه بمعجم مزدوج اللغة يوناني عربي.

٢- مقالة في ذكر الأدوية التي لم يذكرها ديسقوريدس في كتابه مما يستعمل، في صناعة الطب وينتفع به وما لا يستعمل كيلا يغفل عن ذكره.

٣- مقالة في أدوية الترياق.

٤- رسالة التبيين فيما غلط فيه بعض المتطببين.

٥- كتاب طبقات الأطباء والحكماء وقد ألّفه استجابة لطلب أحد الشرفاء الأمويين في عصره. وقد ترجم فيه لأطباء عصره الأندلسيين ولبعض أطباء المشرق ولعدد من أطباء الأمم السابقة، وجعله في تسع طبقات. ويعد هذا الكتاب مصدرًا هامًا لتاريخ الطب العربي والأندلسي منه خاصة [١].

وبالإضافة إلى العلماء والأعلام الذين ذكرنا شيئًا عنهم وما قدموه للعلم والحضارة الإنسانية في العصور الوسطى، فقد حظيت الأندلس بعشرات العلماء الآخرين في كل مجال من مجالات العلوم والفنون والآداب. فكان منهم السرقسطي كما ذكرنا سابقًا، وهو عالم بالهندسة والعدد والنجوم، والزهراوي الحاسب ومحمد بن خبيرة العطار الذي كان بارزًا بالهندسة والعدد والنجوم. وأبو الحكم الكرماني القرطبي والبطروجي. وابن عوام الأشبيلي الذي برز في علم الفلاحة ويعد من أهم علماء الأندلس في مجال الدراسة. بل ويعده البعض أنه أعظم أستاذ في العصور الوسطى في مادة الزراعة. وأبو العباس الأشبيلي الذي اشتهر بدراساته لحياة النبات في قاع البحر.

العلوم الفلسفية

عُرف عن الأندلسيين عداؤهم للفلسفة، حيث اعتبروها مخالفة للدين، وكل من يشتغل بها يعتبر زنديقًا خارجًا عن الإسلام. ومع مضي الزمن أخذت الفلسفة تشق طريقها في الأندلس لعدم تشدد رجال الفقه في موقفهم منها.

وقد ارتبطت الفلسفة بالطب والتنجيم. وقد رأينا أن عددًا من أطباء الأندلس اشتغلوا بالفلسفة، ولم يكن بينهم من اقتصر علمه على الفلسفة.

ويظهر أن الاشتغال بالفلسفة كان ينقسم إلى نوعين: نوع أميل إلى التصوّف منه إلى الفلسفة الصرفة، وهؤلاء اتبعوا من الفلاسفة أفلاطون وربما كان من بينهم ابن مسرة. والنوع الثاني من اشتغلوا بالفلسفة الصرفة على النحو الذي سار عليه أرسطو.

وقد ذكرنا من بين الأطباء ابن باجة الذي برع بالفلسفة، بل كان أول من بدأ بها بالأندلس، ومن مؤلفاته في الفلسفة رسالة الوداع وتدبير التوحيد. فأما رسالة الوداع فقد أبان فيها فضل العلم والمعرفة، وفضل التأمل الفلسفي وأنهما وحدهما يؤديان بالإنسان إلى معرفة الطبيعة، ويعينانه على تعرّف نفسه ويوصلانه إلى العقل الفعّال كما يتعرض فيها

---

(١) فاضل السباعي: ابن جلجل القرطبي، مجلة كلية الدعوة الإسلامية – طرابلس – ليبيا، العدد ١١، ص٢٣٧.

للنفس الإنسانية ونهايتها. وأما كتاب تدبير المدبر فإنه تعرض فيه للمدينة ووصفها على نحو مختصر من جمهورية أفلاطون. وعنده أن المدينة الفاضلة هذه قد خلت من صناعة الطب وصناعة القضاء لأن أهلها لا يمرضون لاغتذائهم بالأغذية الصحيحة، ولعدلهم في تصرفاتهم. فأهلها صحاح الأبدان. عادلو الأحكام وذكر أن في هذه المدينة الفاضلة أعطى كل إنسان ما هو مستعد له. وقد ترجمت رسالة الوداع إلى العبرية، وفيها أبان عن العقل الأول، وبحث في الغاية الحقيقية من وجود الإنسان والغاية من العلم وهي القرب من الله. والاتصال بالعقل الفعّال الذي يفيض منه. وفي هذه الرسالة آراء في اتحاد النفوس أخذها منه ابن رشد. وقد عاش ابن باجة في عصر الموحدين أي العصر الذي اضطهد الفلسفة والفلاسفة، وغلب عليه علم الفقه والحديث. وقد رُمي بالزندقة والإلحاد. وقد استفاد من كتب المشارقة حين وصلت إلى الأندلس ككتب ابن سينا والفارابي والغزالي. ومن أشهر فلاسفة الأندلس بنو زهر وهم سلسلة من العلماء والأطباء ظهروا في الأندلس وهم ستة أشخاص. ولم تصلنا من فلسفتهم إلا النزر من الآراء والأفكار.

وقد ظهر في دولة الموحدين فيلسوف اسمه ابن الطفيل. ولم يعرف له إلا رسالة حي ابن يقظان كما تنسب إليه آراء في علم الفلك. وفي رسالة حي ابن يقظان يركِّز ابن الطفيل على تجربة الإنسان الفردية والوصول من خلالها إلى معرفة الأشياء ثم التوصل عن طريق العقل إلى معرفة الله سبحانه وتعالى. ويرى أن الدين لا يخالف العقل. وفي الرسالة أيضاً لفتات جميلة منها أن الإنسان إذا ارتقى اتصل بالله ورأى العجب العجاب.

أما ابن رشد فقد جاءت فلسفته متوجة لجهود فلسفية عربية عظيمة، فكانت أن وصلت الأندلس معظم كتب الفلاسفة المشرقيين، ومهد الطريق أيضًا ابن باجة وابن الطفيل. ولد ابن رشد في قرطبة سنة ٥٢٠هـ، وقد قدمنا لترجمته أثناء تصنيفه ضمن الأطباء. وأخذ يتعلم الشريعة من فقه وأصول وكلام ثم التفت إلى الطب فدرسه ومهر فيه. وقد قربه الخليفة الموحدي الأمير يوسف. يقول ابن رشد: (لما دخلت على أمير المؤمنين وجدت ابن الطفيل في مجلسه فابتدأ يذكر شرف أسرتي وقدم عهدها وأثنى عليَّ ثناء أستحقه). ولما التفت إليِّ الأمير سألني عن اسمي واسم أبي واسم أسرتي وبادرني بالسؤال (ماذا يعتقد الفلاسفة في الكون؟ أهو قديم أزلي أو محدث). فداخلني الوجل عند هذا السؤال، وأخذت ألتمس عذرًا لأتخلّص من الجواب فأنكرت أنني اشتغلت في الفلسفة.

وما كنت عالمًا أن ابن الطفيل اتفق مع أمير المؤمنين على تجربتي فلما رأى الأمير اضطرابي التفت إلى ابن الطفيل، وصار يباحثه في هذا الموضوع فروى كل ما قاله فيه أرسطو وأفلاطون وغيرهما من الفلاسفة. وأردفها بردود المتكلمين عليها فاطمأنت نفسي حينئذ، ولكني عجبت مما بدا من الأمير من الذكاء وقوة الذاكرة التي ندر وجودها حتى عند العلماء المنقطعين إلى هذه المسائل. وبعد الفراغ من الكلام. جرأني عليه ليرى مبلغ علمي في ذلك الموضوع فاجترأت وأخذت أتكلم. وعند خروجي من مجلسه منحني مالاً وخلعة سنيّة ودابة للركوب. وقد ولي ابن رشد قضاء أشبيلية سنة ٥٦٥هـ. وفيها شرح قسمًا من فلسفة أرسطو وهو قسم الحيوان. ثم شرح في قرطبة شرحه الطويل لفلسفة أرسطو. ويظهر مما كتبه أنه كان معجباً بأرسطو، حيث عده أعقل أهل اليونان. وكان يشيد بذكره في كل مناسبة. وقد تأثر ابن رشد بطريقة تفسير القرآن والحديث فكان يذكر متن أرسطو ثم يعقبه بالشرح.

وكان يرد على ابن سينا والإمام الغزالي حين يخرجون على أرسطو. وكان أهم ما بحث فيه المتكلمون والفلاسفة وجود الكون هل هو أزلي أم محدث وكيف نشأ الكون المتعدد عن الإله الواحد. وما علاقة الكون بالله ثم البحث بين السبب والمسبب. فعند المتكلمين أن المادة محدثة غير أزلية والله هو الذي أوجد الأجسام وعوارضها، بعد أن لم تكن موجودة. ولا يوصف بالأزلية إلا الله.والله أوجد الكون من العدم البحت، وتكاد تُجمع الأديان كلها على هذا الرأي، وقد انقسم المتكلمون إلى قسمين في هذا الشأن فالمعتزلة قالوا إن الخالق وضع للكون نظامًا وأودع في المخلوقين قوى تصدر عنها آثارها بطريق التوليد والسببية. وقد أوجب على نفسه هذه القوانين مراعاة لصالح البشرية وجعلها لا تتخلف. ولذلك لم يطمئنوا للمعجزات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لأنها تخالف هذه القوانين، والفرقة الأخرى ترى أن السبب لا يصدر عنه المسبب وإنما يصدر المسبب عن الله عند وجود السبب.

ويرى ابن رشد تبعًا لفلسفة أرسطو أن النفس الإنسانية أي النفس الناطقة جوهر مجرد عن المادة لا هو جسم ولا حالٌّ في الجسم، وإنما له علاقة ما بالجسم يدبره ويصرفه. والنفس الإنسانية قابلة للارتقاء على أربعة مراتب أطال في ذكرها. ومعنى رقيها ارتفاع النفس بقواها عن ظلمة الطبيعة بما يكون لها من الاستعداد وانجذابها نحو العالم الأعلى فتشرق فيها المعلومات.

وقد جرد ابن رشد نفسه للدفاع عن هذه الآراء والرد على مخالفها، ومن شنع عليها، كالغزالي في تهافت الفلاسفة، وتعصب ابن رشد لمنطق أرسطو واعتقد أن الإنسان لن يصل إلى الحق إلا به ورقيّ الإنسان تابع لمقدار معرفته بالمنطق. وقد فضل فلسفة أرسطو على آراء المتكلمين.

وقد عُد ابن رشد خارجًا عن السنن الإسلامية في ثلاثة آراء قوله: بقدم العالم ونظام العقول وارتباط المسببات والأسباب على وجه لا يسمح بالمعجزات. وقوله ببقاء الكليات وحدها وفناء الجزئيات.

وقد عني ابن رشد في فلسفته بالتدقيق بين الدين والفلسفة فكان يؤوِّل في الدين حتى يتمشى مع الفلسفة، وألّف في ذلك كتابين. الأول فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال. والثاني الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، وفيهما وقف موقفًا وسطًا في عقيدة القضاء والقدر وقد رمى الغزالي في كتابه تهافت التهافت بأنه سفسطائي يساير الجماهير. وكان قد انتقد فلسفة ابن رشد والفارابي ورماهما بالقصور أحيانًا والغموض أحيانًا أخرى.

وإذا كانت الفلسفة اليونانية تعرضت للمسائل العلمية والاجتماعية وخصوصًا أفلاطون في جمهوريته، فقد تعرّض لها ابن رشد أيضًا فنصّ على كراهيته للاستبداد العسكري والإقطاعات العسكرية، ورأت أنه لا اختلاف بين الرجال والنساء في الطبع، وإنما هو اختلاف في الكم أي أن طبيعة النساء تشبه طبيعة الرجال ولكنهنّ أضعف منهم في الأعمال،والدليل على ذلك مقدرتهن على جميع أعمال الرجال كالحرب والفلسفة وغيرها ولكنهن لا يبلغن فيها مبلغ الرجال.

وقد كان من تلاميذ ابن رشد بعض اليهود إذ كانوا يستمعون إليه في حلقته فلما مات نشر هؤلاء اليهود فلسفته وترجموا أكثرها إلى العبرية، وانتشرت فلسفته في المدارس والجامعات، وعارضها رجال الدين اليهودي والمسيحي ولما اضطهدوا في الأندلس فرّوا إلى فرنسا وكانوا كثيرين شاركوا في الثقافة الأندلسية مشاركة كبيرة.

والواقع أن اليهود لما أخذوا عن ابن رشد فلسفته نشروها في أوروبا، فترجموا شروح ابن رشد لأرسطو إلى اللاتينية، ومن أشهر من فعل ذلك ميخائيل الإسكتلندي سنة ١٢٣٠م. ونشاط اليهود والنصارى في نقل فلسفة ابن رشد وشروحه على أرسطو هي التي

فتحت لأوروبا الباب أمام الفلسفة اليونانية. وكان من أكبر زعماء اليهود الذين تثقفوا ثقافة فلسفية موسى بن ميمون وقد كان معاصرًا لابن رشد. وكان نقل فلسفة ابن رشد وأرسطو سببًا في غضب الكنيسة على المشتغلين بالفلسفة. وقد اشتهر ابن حزم الأندلسي الظاهري بآرائه الفلسفية المخالفة للفلسفة اليونانية [1]. وقد ركز على الفلسفة الخلقية. ولم يسلك سبيل ابن رشد في حكايته لفلسفة أرسطو الأخلاقية في كتابه المسمى نقيوماخوس. وإنما هي فلسفة أخلاقية مُستمدة من تجاربه الخاصة. صحيح أنه تأثر بالفلسفة اليونانية في الأخلاق، ولكن هذا لا يذكر بجانب آرائه الشخصية وتجاربه. وكان ظاهري المذهب يحاجج أصحاب المذهب المالكي الذي عليه أهل الأندلس. ويعد كتابه الفصل بن الملل والأهواء والنحل أشهر ما أُلِّف له من كُتب، ومن الفلسفة العلمية التأليف في السياسة الاجتماعية. كما فعل الطرطوشي مثلاً في كتابه سراج الملوك، وقد تتلمذ لابن حزم وابن باجة. وكتابه سياسة وعظية أكثر منه دراسة نظرية. وقد استفاد مما كُتبَ في التاريخ وكُتب الحديث. ولذلك يضمِّن كتابه كثيرًا من الأحداث التي قرأها والحِكَم التي رواها [2].

الفنون الأدبية، الشعر، الموشحات، الأزجال، النثر

من المعروف أن العرب أمة الشعر منذ زمن الجاهلية. فإذا كان العرب عبر عصورهم الأولى في صدر الإسلام، والعصر الأموي والعباسي قد تفننوا بالشعر وأعطوه الأهمية القصوى بين الفنون القولية، فإن الأندلسيين لم ينسلخوا عن عرقهم أو ماضيهم وعن تركيبتهم القابلة لقرض الشعر وقوله.

وما إن حلوا في أرض الأندلس حتى وجدوا أنفسهم في أجواء توحي بالشعر وتغذيه، وقد تميز شعرهم بأنه تجاوب مع الطبيعة، بمعنى أنه كان شعر وصف في مجمله أو على الأقل في غالبيته.

وقد حفلت الأندلس بشعراء كبار كابن زيدون وابن زهر الأندلسي وابن حمديس الصقلي وابن دراج القسطلي. والمعتمد بن عباد. ويحيى الغزال وابن عبد ربه. وابن هانئ الأندلسي، والواقع أن الباحث يرى أن الشعراء الأندلسيين هم أكثر من الحصر أو العد،

---

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج٣، ص٢٦٠-٢٦١.

(٢) المصدر: نفسه، ج٣، ص٢٦٨.

ففي كل مدينة وجد الشعراء كل عصر له شعراؤه ومبدعوه، وليس غريبًا أن نرى كثيرًا من العلماء والفقهاء والأمراء والملوك وحتى الفلاسفة يقرضون الشعر ويجيدون في صناعته.

وفي الفترات الأولى للفتوحات ظهر بعض الشعر لبعض الشخصيات غير الأدبية كطارق بن زياد، والأمير عبد الرحمن الداخل. والحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل. وبعض الأبيات المتفرقة لزرياب. والخليفة عبد الرحمن الناصر.

وكمثال على ذلك الشعر قول عبد الرحمن الداخل عندما رأى نخلة وحيدة منفردة:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض القرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي بالتقرب والنوى ... وطول التنائي عن بنيَّ وعن أهلي
نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبة ... فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن في المنتأى الذي ... يسحُّ ويستمري السماكين بالوجل

والواقع أن العرب لما امتزجوا بأهل أسبانيا وجدوا أن للأسبان شعرًا. ونتيجة لهذا التمازج، ظهر الشعر الأندلسي ذو النسيج الشرقي ولكن في خيوط أسبانية دقيقة، ويحتاج إلى حس مرهف وتحليل ومعلومات واسعة، غير أن ذلك لم يخطف عروبة الشعر فظل بمنحاه العام شرقيّ السمات. لا يكاد يختلف كثيرًا عن شعر المشارقة.

ومن أهم مميزات الشعر الأندلسي أن الشعراء امتلكوا أخيلة ذهنية ولعبًا في المعاني يكاد يكون خاصًا بهم. وقد يفوقون فيه المشارقة وهذا ما أولعوا به كل الولع.

أما أهم صفة امتاز بها الأندلسيون عن غيرهم هي ابتداعهم فن الموشحات والأزجال. وكثرة المقطّعات في شعرهم.

ولعل في طليعة شعراء الأندلس يقف الشاعر الغزال. الذي لقبوه بشاعر الأندلس. وكان يعرف إلى جانب كونه شاعرًا بالحكيم لأنه يحسن التصرف في الأمور وفي الكلام. ولهذا السبب عين سفيرًا لخلفاء الأندلس لدى بعض الدول. وأشهر سفاراته كانت أيام عبد الرحمن الأوسط، ففي أيامه بُعث سفيرًا إلى إمبراطور بيزنطة، ومرة أخرى بُعث إلى ملك الدانمرك. وقد حمل معه كتابًا من الأمير عبد الرحمن وهدية. ويقال عنه أنه رغم كبر سنّه كان ولعًا بالخمر والنساء فكان شعره في الغزل ووصف الخمر أكثر من أي شعر قاله

في غير ذلك من الأغراض. ومن قوله قصيدة يصفُ فيها مقابر الأغنياء والفقراء ونرى فيها من الحكمة الكثير.

أرى أهــل اليســار إذا توفــوا بــنوا تلــك المقابــر بالصــخور
أبــوا إلا مــباهاة وفخــرًا عــلى الفقــراء حــتى في القــبور
فــإن يكــن التفاضــل في ذراهــا فــإن العــدل فــيها في القعــور
رضــيت بمــن تــأنق في بــناءٍ فــبالغ فــيه تصــريفَ الدهــور
ألّــا يبصــروا مــا خربــته الــ دهــور مــن المدائــن والقصــور
لعمــر أبــيهم لــو أبصــروها لمــا عــرفوا الغــني مــن الفقــير
إذا أكــل الــثرى هــذا وهــذا فمــا فضــل الكــبير عــن الحقــير

ويقول في اللهو والخمر:

ولّـا رأيـت الشّرب أكْـدت سماؤهم تأبطـتُ زقـي واحتسـيت عـنائي
فـلمَّا أتيـتُ الحـان ناديـت ربهـا فـثاب خفـيف الـروح نحـو ندائـي
فقلــت أذقنــيها فــلما أذاقهــا طرحــتُ علــيه ريطِــتي وردائــي
وقلـت: أعـرني بذلـة أسـتتر بهـا بذلـتُ له فـيها طـلاق نسـائي

ومـن هـؤلاء الشعراء ابـن عـبد ربـه. وهو شاعر عبد الرحمن الناصر. وقد عرف بنثره وليس بشعره. ولكن له من الشعر ما يضاهي به الشعراء. فمن قوله:

أنــتَ دائــي وفي يديــك دوائــي يــا شــفائي مــن الجــوى وبلائــي
إن قلــبي يحــب مــن لا أسمــي في عــناء أعْظــمْ بــه مــن عــناء
أيهــا اللائمــون مــاذا علــيكم أن تعيشــوا وأن أمــوت بدائــي
لـيس مـن مـات فاسـتراح بميـت إنمــا الميْــت ميِّــتُ الأحــياء

ومن قوله في الغزل:

ودعــتني بزفــرة واعتــناق ثــم نــادت مــتى يكــون الــتلاقي
وتصــدت فأشــرق الصــبح مــنها بــين تلــك الجــيوب والأطــواق

يـا سـقيم الجفـون مـن غـير سـقم　　بــين عينــيك مصــرع العشـــاق
إن يـــوم الفــــراق أفظـــع يـــوم　　ليــتني مــت قــبل يــوم الفــراق

وقـد عـارض ابـن عـبد ربـه بعـض الشعراء المشرقيين في بعض قصائده، ومن أهم هذه القصائد قصيدة يقول فيها:

أتقــتلني ظـــلمًا وتجحدنـــي قــتلي　　وقـد قـام مـن عينيك لي شاهدا عدل
أغـــار عـــلى قلـــبي فـــلما أتيـــته　　أطالـــبه فـــيه أغـــار عـــلى عقلـــي
أقـــول لقلـــبي كـــلما ضــامه الأســـى　　إذا مـــا أتيـــت فاصـــبر عـــلى الـــذل
وجـدت الهوى نصلاً من الموت مغمدًا　　فجـردتَه ثـم اتكيـت عـلى النصـل
فـــإن تـــك مقـــتولاً عـــلى غـــير ريـــبةٍ　　فأنـت الـذي عرضـت نفسـك للقـتل

وكانت هذه القصيدة معارضة لقصيدة مسلم بن الوليد التي يقول فيها:

"أديرا عليّ الراح لا تشربا قبلي"

وقـد عرفـت له أشـعار ذات مضامين تقليدية كالهجاء والرثاء ومزج الهجاء بالسخرية والوصف والمديح. وله شعر كثير في مدح الخليفة عبد الرحمن الناصر.

ويـروى عـنه أنـه زهـد في أواخـر أيامـه وقد كان له في ذلك الزهد أشعار كثيرة سماها المحصـات، لأنـه نقض فيها كل قطعة قالها في الصبا والغزل بقطعة من المواعظ والزهد، فقال إنه محصها بها كالتوبة منها والندم عليها.

وبعـد أن ضعفت الخلافة الأموية وضعفت سيادتها على مناطق الأندلس، ضعف سوق الشـعر، حـتى جـاء العامـريون فأحيوه مرة أخرى. خاصة أنهم قربوا الشعراء إلى بلاطهم وشـجعوهم بالمـال. وأخذت الدولة العامرية تستعين بالشعراء في تحويل أنظار الشعب عن الملـوك الأمويـين، والاعـتماد علـيهم في تحسـين صورتهم. وقد أغدق عليهم ابن أبي عامر بالمـال والعطايـا والهدايـا. وبـرز في ظل هذه الدولة أسماء شعراء لامعين كابن شهيد وابن حزم وابن دراج. ويقال إن ابن أبي عامر كان يعقد مجلسًا كل أسبوع يجتمع فيه الشعراء وأهـل العـلم للمـناظرة. وظلت الأندلس مزدهرة الشعر في زمن العامريين حتى سقطت هذه الدولـة، وبـدأت الأندلـس تشـهد عصـر الطوائـف الـذي برز فيه ملوك وسلاطين صغار،

استأثروا بالحكم كل في مدينة وما حولها. وازدادت الفتن وبدأ الضعف يدبُ شيئًا فشيئًا في أوصال الأندلس برمتها. وبرز من هؤلاء بنو جهور في إشبيلية، حيث امتد نفوذهم إلى قرطبة. وابن جهور هو أول من حكم هذه المنطقة، وقد أقام العدل وأقام مجلسًا للشورى، ورفع المظالم عن الناس وحسن العلاقة بين دولته والملوك والأمراء في نواحي الأندلس، وفي هذا الإطار برز شعراء كبار كابن دراج وابن زيدون وابن شهيد وابن حزم. فابن دراج يُعدُّ من كبار شعراء الأندلس، أو هو أكبر شاعر في عصره، وقد قيل عنه إنه في المغرب كالمتنبي في المشرق. ووصل شعره إلى المشرق فمدحه الثعالبي في يتيمة الدهر وكان ابن دراج يصاحب المنصور بن أبي عامر في غزواته ويمدحه. فكان أكثر شعره في المديح أو الوصف أثناء المديح. وكان من أعظم من يحضرون مجلس المنصور.

وتابع مديحه لمن جاء بعد المنصور ولبعض الأمراء الذين أتوا بعد الدولة العامرية. وقد روي أن لابن دراج ديوانًا في جزئين.

وقد روى المقري في كتابه نفح الطيب قطعتين لابن دراج في المديح شاد بذكرهما. وفي إحداهما يقول ابن دراج:

تخوفني طول السفار فإنه	بتقبيل كف العامري جديرُ
مجير الهدى والدين من كل ملحد	وليس عليه للضلال مجيرُ
وقد قام من زرق الأسنة دونها	صفوف ومن بيض السيوف سطورُ
رأوا طاعة الرحمن كيف اعتزازها	وآيات صنع الله كيف تنيرُ

ويشبهه إلى حدٍ بعيد الشاعر ابن هانئ الأندلسي، الذي قيل عنه إنه متنبي الأندلس أيضًا. وقد عدّه بعضهم أشعر شعراء الأندلس من المتقدمين والمتأخرين، غلبت عليه النزعة الفاطمية فطرد من الأندلس إلى المغرب ثم رحل إلى مصر، حيث كان المعز لدين الله الفاطمي مبالغاً في إكرامه، وقد عُرف شعره بالجزالة والفخامة ويرجعون ذلك إلى نسبه اليماني الأزدي وأكثر شعره في مدح الفاطميين، وقد قال النقاد إن في شعره خصائص هي: *أن من فهم كلامه بعد التعب تلذذ من شعره وأعجب بفنه*. وطول نفسه فهو يتعرض للمعنى حتى يصفيه شأن ابن الرومي لولا كثرة غريبه. عنايته بالمقابلة بين

الشطر الأول والشطر الثاني في كثير من أبياته. وشبه شعره بالشعر الجاهلي في القوة ومتانة السبك وقدرة استخدام الألفاظ وبساطة المعاني عند فهمها. واتصال شعره اتصالاً كبيرًا بالدين إذ كانت دعوته فاطمية متأثرًا بتعاليمهم متعمدًا نشرها بين قرائه. ويقع أحيانًا كثيرة على معاني المتنبي والقارئ لديوانه، يرى تعاليم الشيعة مبثوثة فيه، فشروط الدعوة والإمام المعصوم وحقه في الخلافة وبطلان الدعوة العباسية وكل الاصطلاحات الإسماعيلية مبثوثة في ديوانه. فهو يضفي على المدوحين الخلفاء صفة التقديس تقريبًا فيقول مثلاً:

وما هو إلا أن أشير بلحظه ... فتمخر فلكٌ أو تهز مقانيب
هو علة الدنيا ومن خلقت له ... ولعلة ما كانت الأشياء
من صفو ماء الوحي وهي مجاجة ... من حوضه الينبوع وهو شفاء

وعلى الرغم من ذلك فله شعر في مجالس الشراب، وقد أحسن في تصويره في قصيدته المعروفة بقصيدة النجوم فيقول:

أليلتنا إذ أرسلت واردًا وحفا ... وبتنا نرى الجوزاء في أذنها شنْفا
وبات لنا ساقٍ يقوم على الدجى ... بشمعة نجم لا تساقطُ ولا تَطْفا
جعلنا حشايانا ثياب مدامنا ... وقدت لنا الظلماء من جلدها لِحْفا

ولعل ابن زيدون أشهر شعراء الأندلس وذلك لما حظي من اهتمام ودراسة من قبل الكُتّاب والنقّاد والباحثين. ولِما امتاز به شعره من محاسن القول والمعاني. وقد غلب على شعره الغزل والوصف والعتاب على الرغم من أنه اشتغل بالسياسة معظم وقته، وعندما يذكر ابن زيدون تذكر ولّادة بنت المستكفي. فقد كانت بينهما علاقة ودّ قوية انتهت بالفراق، وقد غذى حبه لها شعره بالمعاني الرقيقة التي تذكر القارئ بغزل العباس بن الأحنف ومسلم بن الوليد وغيرهما. وقد أخذ ديباجة البحتري وحسن سبكه ونصاعة أسلوبه، وأخذ طول نفس ابن الرومي وتدفقه.

ومن شعره في ولّادة قوله:

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سرّه ما استودعك
يا أخا البدر سناء وسنى حفظ الله زمانا أطلعك
إن يطل بعدك ليلي فلكم بت أشكو قصر الليل معك

وقد اشتهرت له قصائد في أوساط الناس منها قصيدتان. الأولى التي يقول فيها:

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا والأفق طلق بمرأى الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله كأنه رق لي فاعتل إشفاقا

والقصيدة الثانية التي يقول فيها:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقًا إليكم ولا جفّت مآقينا
يكادُ حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسى لولا تأسينا

وله من الشعر أشكال غير تقليدية كالمخمسات وذلك في قوله مثلاً:

سقى الله أطلال الأحبة بالحمى
وحاك عليها ثوب وشيٍ منمنما
وأطلع فيه للأزاهر أنجما

فكم رفلت فيها الخرائد كالدمى إذا العيش غض والزمان غلام

وقد سجن ابن زيدون بسبب وشاية ابن عبدوس الذي تزوج ولاّدة. وقد زارته أمه وهو في سجنه فبكى وبكت، وقال في ذلك شعرًا ثم عاتب ابن جهور الذي سجنه. ثم أفرج عنه بوساطة. وعاد إلى القصر يمدح ابن جهور. ثم اتصل بالمعتمد ابن عباد ومدحه لكن حسّاده كثروا حتى بعث به ابن عباد مع جيش له للقتال ضد القشتاليين، ولما عاد لم يلبث أن مات.

ومن الشعراء المعروفين المعتمد بن عباد ملك أشبيلية، وكان شعره كشعر ابن زيدون رقيقًا في معانيه وأغراضه. لكنه بعد غلبة ابن تاشفين على الأندلس وسجن ابن عباد جعل شعره يفيض حزنًا وأسى على أيامه الخوالي. خاصة بعد أن أصبح في السجن لا مالٌ ولا نصير بل فقر وحزن وقلة أنصار.

وقد ذكرنا سابقاً أن شعراء كثيرين أنجبتهم الأندلس وبرعوا في فن الوصف وغيره، ومنهم ابن حمديس الصقلي. وابن خفاجة الذي وصف الجبل في قصيدة مشهورة وغيرهم.

والذي يهمنا من هذا الحديث المختصر عن الشعر والشعراء في الأندلس هو تأكيدنا على أن الأندلسيين لم يكونوا أقل من المشارقة في فنون الشعر. لكن الذي يلفت الأنظار أن الأندلسيين عرفوا فن الموشحات الذي لم يعرفه الشرق. ونستطيع أن نقول إن هذا الفن ارتبط بالغناء ارتباطًا وثيقًا. وأبدع فيه الأندلسيون. حتى أن موشحاتهم المشهورة انتقلت إلى المشرق وإلى أوروبا. وكان لها أكبر الأثر في الشعر الغربي، وقد اشتهر من الوشاحين عدد من الشعراء الذين تخصصوا في صناعة الموشحات، لكن ذلك لم يمنع بعض الشعراء من تأليف الموشحات إلى جانب شعرهم الذي عُرفوا به. من ذلك ما قاله ابن خلدون في مقدمته أن أشهر من ألّف في الموشحات. مقدّم بن معافي القبر. وأخذ عنه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، ثم برع في هذا الشأن بعدهما عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح. ثم نظم عليها بعض الشعراء كابن زهر الأندلسي ولسان الدين بن الخطيب. وغيرهما.

ومن ذلك موشحة منسوبة لابن زهر [1].

أيها الساقي إليك المشتكى   قد دعوناك وإن لم تسمع

وندیم همت في غرته
وبشرب الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته

جذب الكأس إليه وبكا   وسقاني اربعًا في أربع

(١) جميع المعلومات عن الشعر الأندلسي مقتبسة من كتاب ظهر الإسلام لأحمد أمين.

مـــا لعـــــيني عشـــــيت بالـــــنظر
أنكـــــرت بعـــــدك ضـــوء القمـــرَ
فـــإذا مـــا شـــئت فـــاسمع خـــبريَ

عشـيت عيـناي مـن طـول الـبكا　　　وبكـى بعضـى عـلى بعضـى معـى

وهي موشحة طويلة ما زالت تغنى إلى أيامنا هذه.

وهناك موشحة للسان الدين بن الخطيب يقول فيها:

جـادك الغيـث إذا الغيـث همـا　　　يـا زمـان الوصـل في الأندلـس
لم يكـن وصـلك إلا حـلما　　　في الكـرى أو خلسـة المختلس
إذ يقـود الزهـر أشـتات المـنى　　　يـنقل الخـطّ عـلى مـا يرسـمُ
زمـرا بـين فـرادى وثـنى　　　مثـلما يدعـو الوفـود الموسـمُ
والحـيا جلـل الـروض مـني　　　فـثغور الـروض عـنه تبسـمُ
وروى الـنعمان عـن مـاء السـما　　　كـيف يـروي مـالك عـن أنـس
فكسـاه الحسـن ثوبًـا معـلما　　　يـزدهي عـنه بـأبهى ملـبسِ

وهـذه الموشحة أيضًـا ممـا اشتهر بين الموشحات الأندلسية، والتي انتقلت إلى المشرق وعرفت بين الموسيقيين والمغنيين إلى يومنا هذا.

وإضـافة للموشحات فقد ابـتدع الأندلسيون مـا يسمى بالأزجال، وهو لون أندلسي خالص يقال للغناء باللهجة الشعبية.

ويلاحـظ أن الموشحات والأزجـال تنقسم في شكلها الفني إلى قسمين: قسم يُقال على أوزان الشعر العربي المعروفة، وقسم يُقال على النغمات دونما ضابط شعري عَروضي.

أمـا الأزجـال فقد قبلـت بـاللهجات العامية وهذا ما يميزها عن الشعر أو عن الموشح الشعرى الذى يعتمد اللغة الفصحى .

وإذا كـان الشعر قـد برز بشكل واضح في حياة الأندلسيين، فقد كان للنثر الفني دوره الـبارز أيضًا. وقد عرفت الأندلس كثيرًا من الأدباء جمعوا بين فن الشعر وفن النثر. أمثال ابـن عـبد ربـه، وابن زيدون، وابن حزم، وابن برد الملقب بأبي حفص، ولسان الدين بن الخطيب، وابن خلدون.

ولابن زيدون رسالتان نثريتان مشهورتان. هما الرسالة الهزلية والرسالة الجديدة، وكانتا في الهجاء. والتعريض بولّادة وبابن عبدوس. وقد اشتهر ابن عبد ربه بكتابه المشهور العقد الفريد الذي ضمنه من فنون الشعر والنثر الكثير. ويعتبر أحد أهم المراجع عن الأدب في الأندلس.

أما ابن خلدون الذي عاش فترة في الأندلس ثم انتقل إلى المغرب فقد أبدع في علم الاجتماع والتاريخ، وأصبحت مقدمته المعروفة بمقدمة ابن خلدون من أشهر الكتب التي أُلِّفت بالعمران والاجتماع.

وقد غلب على بعض الناثرين السجع كما حدث في الشرق لدى أدباء المشرق في بغداد ودمشق وحلب وبيت المقدس. لكن بعضهم الآخر كتب النثر الفني خاليًا من الصنعة اللفظية كما نرى ذلك عند ابن خلدون [1].

حركة التأليف الأدبي والحركة النحوية واللغوية في الأندلس

عندما نتحدث عن حركة التأليف عند الأندلسيين، لابد من ذكر الأسباب التي دعت لإيجاد هذه الحركة. فالأمراء الأمويون الذين أرادوا تأسيس الدولة الأموية في الأندلس، كان لابد لهم من مرشدين ومعلمين ومؤلفين يساعدون على تثبيت اللغة العربية بما فيها من نحو وصرف وعلم لغة. ولما لم يكن في الفتوحات الأولى للأندلس من يقوم بهذه المهمة، فقد ارتأى أمراء بني أمية وخلفاؤهم أن يجلبوا من الشرق من هم أهل لهذه المهمة.

وكانت الحضارة العباسية قد أخذت بالتصاعد واستقطبت في بغداد الفلاسفة والأدباء والكُتّاب، وكان لابد للأندلسيين من مجاراتهم حتى يظهروا بالمظهر اللائق حضاريًا وهم يخوضون تجربة حضارية كبيرة في بلاد بعيدة عن عواصم الحضارة العربية كدمشق وبغداد وغيرهما.

وقيل إن عبد الرحمن الناصر استقدم أحد علماء الأدب من المشرق وهو أبو علي القالي إلى قرطبة. وكان القالي أموي النزعة. وقد نشأ في بغداد وتعلم على شيوخ العربية في الحديث واللغة والأدب والنحو والصرف، ومن مشايخه المشهورين الهروي في الحديث

---

(١) المعلومات عن الفن النثري مقتبسة عن كتاب ظهر الإسلام لأحمد أمين.

وابن درستويه في النحو والزجاج أحد تلامذة أبي العباس المبرد. والأخفش الصغير ونفطويه. وابن السراج وابن الأنباري وابن أبي الأزهر وابن قتيبة وغيرهم. ووعى أكثر علمهم وأقام في بغداد خمسًا وعشرين سنة يحصّل مع الجِدّ حتى أتقن هذه العلوم. وعرف بين الأندلسيين بسعة الإطلاع في العلم والرواية. ويكاد المؤرخون يجمعون على أنه كان أحفظ أهل زمانه، وساعد على الانتفاع بعلمه ذكاء أهل الأندلس وقوة حفظهم.

ومن أشهر كتب أبي علي القالي الأمالي ونوادره. وكان يطغى على هذا الكتاب اللغة والشعر أكثر من طغيان النحو والأخبار الذي امتاز به كتاب الكامل للمبرد. ولأبي علي القالي أيضًا كتاب المدود والمقصور، وكتاب الإبل ونتاجها، وكتاب حلي الإنسان. وكتاب فعلت وأفعلت، وكتاب تفسير المعلقات السبع. وكتاب البارع في اللغة، وقد رتبه على حروف المعجم قالوا إنه نحو ثلاثة آلاف ورقة وقالوا إنه لم يؤلف مثله.

وقد ظل في قرطبة يبث علمه إلى وفاته سنة ٣٥٨هـ.وقد علمنا أنه رحل إلى الأندلس سنة ٣٣٠هـ. فتكون مدة إقامته في الأندلس ونشره علمه ٢٨ سنة.

وكان يُعاصره ابن عبد ربه الأندلسي. وقد ألّف كتابه المشهور العقد الفريد لينقل إلى الأندلسيين معارف المشارقة. وكتابه يعني بالسِيَّر والأخبار والسير والطرائف والظرائف في كل باب، وقد كان ابن عبد ربه متعدد النواحي. فهو نحوي شاعر متفقّه تاريخي وأديب، وكان قد تعلم من أهل بلده وأخذ علمها، وقد اقتبس ابن عبد ربه كثيرًا من أسلافه.

وقد ألّف كتابه بحيث يشبه عقدًا يحتوي على خمس وعشرين حبة من جهة، وخمس وعشرين حبة من جهة أخرى، وفي وسطها كلها واسطة العقد وسمّى كل باب من الأبواب التي في ناحية باسم حجر كريم. ثم يسمي الباب الذي يقابلها بنفس التسمية مع إضافة كلمة ثانية. واستند ابن عبد ربه في كتابه على كتاب ابن قتيبة عيون الأخبار. كما اقتبس من كتاب الجاحظ البيان والتبيين. ومن كتاب الكامل للمبرد، واقتبس من ابن المقفع في كتابه كليلة ودمنة. والدرة اليتيمة. وأخذ شيئًا من كتاب سيبويه، ومن طبقات ابن سلام ومن بعض كُتب أبي عبيدة، ومن ابن هشام في السيرة، وأخذ من التوراة والإنجيل ومن دواوين الشعراء. وكان مقربًا إلى عبد الرحمن الناصر، فنظم فيه ملحمة طويلة لطيفة على قلة الملاحم في الأدب العربي تبلغ أكثر من أربعمائة بيت من الشعر،

والكتاب يفيدنا تاريخيًا أيضًا كما يفيدنا أدبياً في تعريفنا بأشياء كثيرة عن عادات الأندلس وتقاليدها ونظرة الأندلسيين إلى اليهود والنصارى. كما يدلنا على حروب الناصر جميعها. ومن العلماء بالعربية ابن القوطية أبو بكر محمد بن عمر. وكان من علماء العربية الكبار وصحب أبا علي القالي. وكان لغويًا كبيرًا، ونحويًا كبيرًا، وشاعرًا ومؤرخًا يفد عليه الناس للاستفادة منه ومن علمه. وقد ألّف كتاب الأفعال.

ومن النحويين أبو بكر الزبيدي الذي تعلم على يد أبي علي القالي.

ومن أشهر من ألّف في الأدب الشريشي الذي شرح مقامات الحريري شرحًا لطيفًا. وقد انتقلت المقامات إلى الأندلس من المشرق فأقبل عليها الأندلسيون وأثرت فيهم أثرًا كبيرًا. وممن ألّف في الأدب ابن السيد البطليوسي مؤلف كتاب الاقتضاب في شرح أدب الكُتّاب. ومن أهم المؤلفين ابن سيده وكان ضريرًا. وأهم كتبه المخصص وهو في سبعة عشر جزءًا ألّفه حسب المعاني لا على حسب الألفاظ. وله كتاب الحكم والمحيط الأعظم وهو معجم كبير في اللغة. وكان ممن اشتهر في اللغة أيضًا الأعلم الشنتمري. وميزته حفظ أشعار العرب. وعني بضبطها واستفاد مه كثيرون من أهل الأندلس [1].

وبالنسبة للعلوم النحوية فكانت الدراسات ضمنية إلى أن دخلت الأندلس كُتب الكسائي، ومنذ ذلك الحين أخذت تظهر بعض التآليف في النحو. فكتب جودي بن عثمان النحوي العبسي كتابًا في النحو سمّاه منبه الحجارة. وبرز أيضًا زمن بني أميّة أبو عبد الملك عثمان بن المثنى القرطبي ت ٢٧٣هـ، الذي عاصر أربع أمراء من أمراء بني أميّة. ومثله أبو محمد عبد الله بن بكر المعروف بالندل. ومثله هشام بن الوليد الغافقي القرطبي، وكان عروضيًا نحويًا. ومنهم الحكيم القرطبي وكان عالمًا بالنحو والحساب، ومنهم يوسف البلوطي النحوي ت ٣٣٤هـ. وكان عالمًا بالنحو واللغة جيّد الضبط. وإمامًا في هذا الفن. ومحمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم المعروف بابن القطية القرطبي، وكان عالمًا بالنحو حافظًا للغة متقدمًا فيها على معاصرين، وله في هذا الفن مؤلفات حسان. تصاريف الأفعال. كتاب المقصور والممدود. وكانت كتب اللغة أكثر ما تقرأ عليه وتؤخذ عنه. ومنهم أيضًا مفرج بن مالك النحوي، وكان نحويًا لغويًا عالمًا

---

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج٣، ص٨٨ـ٨٩ـ٩٠.

بمعاني الشعر. ومحمد بن الحسن بن عبد الله الزبيدي. وكان واحد عصره في علم النحو وحفظ اللغة واستأدبه الحكم بن هشام. وأبو بكر محمد بن يحيى بن زكريا القلفاط القرطبي، وكان من كبار قرطبة في النحو، وفي عصر الموحدين نبغ من علماء قرطبة في النحو أبو بكر محمد بن عبد الله بن ميمون العبدري القرطبي، وقد صنف عدة كتب في النحو منها شرح الجُمَل وشرح المقامات [1].

كذلك عُني أهل الأندلس بكتب العلوم الدينية كالحديث والقراءات وعلوم القرآن والتفسير. وأول من ظهر منهم محمد بن وضاح مولى عبد الرحمن بن معاوية وكان قد رحل إلى الشرق رحلتين في طلب الحديث. وكان عالمًا بالحديث بصيرًا بطرقه متكلمًا في علله، وبفضل جهوده وجهود بقي بن مخلد أصبحت الأندلس دار حديث، وقد تحدثنا عن ذلك في الحياة الدينية لدى الأندلسيين.

غير أن اهتمامهم بالعلوم النحوية كان له الأثر في حفظ العربية وآدابها. وكان من الأندلسيين أبو علي الشلوبيني وكان إمامًا في النحو ومن كتبه كتاب التوطئة. ونبغ في النحو والصرف نحويان مشهوران هما ابن خروف وابن عصفور ولهما في كتب النحو آراء ينفردان بها. أما ابن خروف فمن أشبيلية، وكان إمام أهل زمانه في العربية في الأندلس له شرح في كتاب سيبويه، وشرح لكتاب الجمل وغير ذلك من الكتب، وكان إلى جانب علمه أديبًا لطيفًا كثيرًا ما تلاعب باسمه.

وأما ابن عصفور فقد حمل لواء العربية بالأندلس بعد أستاذه أبي علي الشلوبيني، ودرّس العربية في مدن أندلسية كثيرة. وألّف كُتبًا كثيرة في النحو والصرف، وقد أخذ عليه ابنه أنه كان مستهترًا يغشى مجالس الشراب ويتهتّك فيها.

وجاء بعد ذلك ابن مالك جمال الدين محمد بن عبد الله الذي ولد ببلدة جيان إحدى مدن الأندلس حوالي سنة ٦٠٠هـ. وأخذ عن نحوييها ثم رحل إلى مصر ودمشق وأخذ العلوم الشرعية وتبحّر فيها، وقد اشتهر شهرة سيبويه. وأهم ميزة له أنه ربط قواعد النحو ربطًا محكمًا وبسطها كما يتجلى ذلك بالنظر في ألفيته وقواعده. والقواعد التي ذكرها سيبويه في كتابه. وقد ألّف الألفية ونالت حظوة كبيرة حتى حفظها أكثر المتعلمين في الشرق والغرب إلى اليوم.

---

(١) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس – القسم الثاني، ص١٤٣.

ومن مؤلفاته الكافية والشافية، والتسهيل، ولامية الأفعال، والمفتاح في أبنية الأفعال، وتحفة الموجود في المقصور والممدود، والأعلام في مثلث الكلام وإيجاز التعريف بعلم التصريف. ورسالة في المترادفات والاعتداد في الفرق بين الزاي والصاد. ومنظومة في ٤٩ بيتًا في الأفعال الثلاثية المعتلة بالواو وبالياء ونقلها السيوطي في كتابه المزهر.

وقد تتلمذ له كثيرون في الشرق والغرب. كابن النحاس المصري. والفقيه المشهور النووي، والمحدث المشهور اليونيني وغيرهم. وقد رزق الحظوة في تآليفه واستفاد منه كثيرون ودوى اسمه في الأندلس وفي المشرق وقد مات سنة ٦٧٢هـ [(١)].

وكان إمامًا بالقراءات وعالمًا واسع العلم باللغة. وكان واسع الاطلاع على أشعار العرب التي يستشهد بها على النحو واللغة. حاضر البديهة بالاستشهاد. وكان مذهبه أن يستشهد بالقرآن. فإن لم يكن فيه شاهد استشهد بالحديث النبوي الشريف. فإن لم يكن شاهد من الحديث استشهد بأشعار العرب. وكان نظم الشعر عليه سهلاً رجزه وطويله وأكثر من التآليف في أبواب مختلفة. وكان مشهورًا بنظم الضوابط التي تسهل الأمور الصعبة على المتعلمين فينظم مثلاً في المقصور والممدود وفيما ورد بالضاد والظاء وفي ترتيب خيل السباق.

وربما عُدَّ من أكبر علماء النحو في الأندلس أبو حيان الغرناطي، وهو لغوي عربي ولد من أصل بربري سنة ٦٥٤هـ، وتنقل في البلاد بعد أن تعلم على علماء الأندلس وكان ظاهريًا على مذهب ابن حزم الأندلسي الفيلسوف، وكان نحويًا مفسرًا محدثًا شاعرًا. وبلغت مصنفاته في العلوم المختلفة نحو ٦٥ كتابًا لم يصلنا منها إلا نحو عشرة كتب. وأهميته أنه كان لغويًا بمعنى أنه يعرف لغات كثيرة. فألّف في الفارسية والتركية كما ألّف كتابًا في الحبشية وتوفي بالقاهرة عام ٧٤٥هـ.

ولعل من أكثر من اجتهد في علوم النحو هو ابن مضاء الأندلسي القرطبي. وقد كان أيام الموحدين. وقد شجعه مؤسس الدولة الموحدية عبد المؤمن بن علي، وقد كان مؤثرًا لأهل العلم محبًا لهم محسنًا إليهم، ويجري عليهم الأرزاق الواسعة.

---

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج٣، ص٩٣.

وكـان ابـن مضاء داعيًا دعوة جديدة في النحو متأثرًا فيها بالدعوة إلى اجتهاد الفقهاء. ولــه مـن كتـبه كـتاب الرد على النحاة وقد جاء ثمرة اطلاعه الواسع على كتاب سيبويه وشرح السيرافي عليه.

وقـد جمـع كتاب بغية الوعاة في أخبار النحاة أسماء كثيرين من الذين اشتغلوا بالنحو حتى لقد تفوقوا بعددهم على نحاة الشرق.

الكتب والمكتبات في الأندلس

بلغـت حـركة التألـيف في العصـر العباسـي أوجهـا خاصـة في عصـر الرشيد والمأمون. ومعـروف أن الـثقافة العربـية إذ ذاك هضـمت كافـة الثقافات الفارسية والهندية والرومية واليونانـية وغيرهـا مـن ثقافـات ديـنية مـتعددة. وعـندما دخـل العرب الأندلس حملوا في عقولهـم ونفوسـهم جذور تلك الثقافة العربية منذ عصر الأمويين. لكنهم في البداية افتقدوا – كمـا قلـنا – للشخصـيات المـرموقة في عالم الثقافة واللغة والأدب فاستقدموا إلى الأندلس عـددًا مـن العـلماء أمـثال أبـي عني القالي. واستقدموا إلى البلاد الجديدة عددًا من الكتب الهامة في مجال الأدب والفقه والحديث وغير ذلك.

وكـان لابـد للعـرب في الأندلـس مـن التواصـل مـع أدبهـم العـربي وثقافـتهم العربـية المشـرقية. فكـان لابـد لهـم من الاهتمام أكثر فأكثر بالكتب وجمعها ومن ثم التأليـف على منوالها حتى تبدأ بعد ذلك مرحلة الإبداع الذاتي.

وقـد برز الاهتمام بجمع الكتب بشكل واضح زمن حكم المستنصر بالله، فهو كما تقول المصـادر بطبيعته رجل سلم وعلم فكان حسن السيرة جامعًا للعلوم محبًا لها مكرمًا لأهلها جمّاعًـا للكتـب في أنواعهـا. وأقـام للعلم والعلماء سوقًا نافقة جابت بضائعه من كل قطر. فكـان يسـتجلب المصنفات والمؤلفات من الأقاليم والنواحي باذلاً فيها ما أمكن من الأموال حـتى ضـاقت عـنها خزائنه. وكان ذا غرام بها قد أثر ذلك على لذات الملوك. فاستوسع عـلمه. ودق نظـره وجمعـت اسـتفادته وقـال عـنه ابـن الآبـار: كـان من المعرفة بالرجال والأخـبار والأنساب. وكان ثقة فيما ينقله. وقلما يوجد كتاب في خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظـر في أي فـن كان، ويكتب نسب المؤلف ومولده ووفاته ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن.

ومن أمثلة ولعه بالكتب أنه بعث يطلب كتاب الأغاني من مؤلفه أبي الفرج الأصفهاني وأرسل إليه فيه ألف دينار من الذهب العين. وقد بعث إليه أبو الفرج بنسخة منه قبل أن يخرجه في العراق. وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم. وقيل إنه جمع بداره الحذّاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والإجادة في التجليد.

واجتمعت بالأندلس في عصره خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله، ولا من بعده، إلا ما يذكر عن الناصر العباسي. ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة حتى أخرجها الحاجب واضح من موالي المنصور بن أبي عامر وقيل إن إخراجها استغرق ستة أشهر، وذكر ابن حيان أن عدد الكتب التي كانت بمكتبته بلغ نحو ٤٠٠ ألف مجلد. وذكر ابن حزم أن عدد الفهارس التي كانت تضم أسماء كتبه بلغ أربعة وأربعين فهرسًا في كل فهرس عشرون ورقة [١].

وباعتبار أن قرطبة كانت عاصمة الخلافة الأموية فإنها تعتبر من أشهر مدن الأندلس علمًا وثقافة. كانت كما يصنفها التلمساني (منتهى الغاية ومركز الراية وأم القرى وقرارة أولي الفضل والتقى، ووطن أولي العلم والنهي، وقلب الإقليم وينبوع متفجّر العلوم وقبة الإسلام، بها أنشئت التأليفات الرائقة، وصنفت التصنيفات الفائقة،أما من ناحية العناية بالكتب والاهتمام بها وبذل المال الكثير في شرائها والحصول عليها فيقول: وهي أكثر البلاد في الأندلس كتبًا. وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب. صار ذلك عندهم من آلات التعيين والرياسة. حتى أن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب. وينتخب فيها ليس إلا كي يقال عنده خزانة كتب. والكتاب الفلاني ليس هو عند أحد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به) [٢].

وقد اشتهرت قرطبة بكثرة عدد الحوانيت لصناع الوراقة، التي تقوم بنسخ الكتب وتجليدها ثم بيعها – أي ما تقوم به دور النشر في الوقت الحاضر – وكان الوراقون يدفعون رواتب ثابتة للناسخين المحترفين الذين يعملون في خدمتهم. هذا بالإضافة إلى أن عددًا من أصحاب المكتبات الخاصة كانوا يستخدمون كثيرًا من الناسخين المختصين في

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، ص٣٨٣-٣٨٤.

(٢) أحمد المقري التلمساني: نفح الطيب، ج١، ص٤٦٢-٤٦٣.

نسخ الكتب، وقد قدّر أن ما كان يُنتج في قرطبة وحدها من الكتب ما بين ٦٠–٨٠ ألف كتاب سنويًا. وتقول المستشرقة زيغريد هونكة: لقد أحاط العرب الكتب في قلوبهم حتى المؤلفات الفنية الدقيقة في الهندسة والميكانيكا والطب والفلك والفلسفة [٣]. كما ذكرنا سابقًا، قد عرفت قرطبة مثل غيرها من مدن الأندلس الأخرى العديد من المكتبات العامة والخاصة. وكانت تلك المكتبات من الضخامة بحيث احتوت على مئات الألوف من المجلدات في مختلف فروع المعرفة الإنسانية التي كانت معروفة في ذلك الوقت.

يقول المستشرق الأسباني خوليان ريبيرا: إن مدينة قرطبة الأندلسية عرفت من الكتب والمكتبات وهواة الكتب أكثر مما لدينا الآن. أكثر مثلاً مما في سرقسطة وبلنسية رغم أنهما من كبريات مدن أسبانيا المعاصرة. ويفوقان الآن عددًا وحجمًا ما كانتا عليه أيام الدولة الإسلامية. وفي عصر الازدهار الأدبي. وهو آخر القرن التاسع عشر ويجيء بعد أربعة قرون طوال من اختراع الطباعة [١].

وبسبب ما كانت عليه قرطبة من ازدهار في العلوم والآداب وغيرها قدم إليها طلاب العلم من أوروبا للدراسة في معاهدها ومدارسها وخزائن كتبها. ومن كنوز وذخائر مكتباتها ومكتبات مدن الأندلس الأخرى ترجمت إلى اللغة اللاتينية العديد من المؤلفات في مواضيع الأدوية والطب والفلسفة والفلك والجراحة وغيرها من الكتب الأخرى. وعن طريقها عرفت أوروبا لأول مرة كتب اليونان القديمة والكتب الفارسية والهندية والسريانية التي ترجمت إلى اللغات الأوروبية عن العربية بسبب حفظ المكتبات الإسلامية لهذا التراث الإنساني الخالد [٢].

ويصف المستشرق رينهارت دوزي الخليفة الحكم الثاني المستنصر بقوله: لم يسبق أن تولى حكم أسبانيا حاكم عالم بهذه الدرجة. ورغم أن جميع أسلافه كانوا رجالاً مثقفين وأحبوا أن يغنوا مكتباتهم فإن أحدًا منهم لم يبحث بشغف ونهم عن الكتب النادرة والثمينة كما فعل الحكم [٣].

---

(٣) زيغريد هونكة: شمس العرب تشرق على الغرب، ص٣٧٥.

(١) خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس – أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية، ترجمة: الطاهر أحمد مكي – القاهرة – دار المعارف، دون تاريخ، ص٢١٣.

(٢) مفتاح محمد دياب: ازدهار حركة نشر الكتب والمكتبات في الأندلس –مجلة كلية الدعوة الإسلامية- طرابس – ليبيا، المجلد عدد ٧، ص٢٥٧.

(٣) رينهارت دوزي: نقلاً عن محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام. ص١٢٣.

ولم تـزل مكتـبة الأمويـين في الأندلـس-قرطـبة- قائمـة إلى أن بـيع أكـثرها في حصـار البربر لها، وقد ذكرنا كيف نقلها الحاجب زمن الدولة العامرية وكم استغرق نقلها.

وقـد شـاع بـين الأندلسـيين وأهـل قرطبة من رعايا الحكم أن أقصر الطرق للوصول إلى الخليفة، وأفضـل الوسائل لإقناعه واستمالته للحصول على ما يريدون أو الفوز بالمناصب، هـو تقديـم الكتـب الـتي ليسـت في مكتبـته له. ومـن هـنا أخـذ عدد من العلماء يخصونه بمؤلفـاتهم ويهدونـه مؤلفـاتهم الجديـدة أو يقدمـون له كتـبًا نادرة. وقد وجد هذا الاتجاه حـتى بـين المسـيحيين مـن أهل قرطبة. فقد ألّف أحد الأساقفة وهو ربيع بن زيد واسمه اللاتـيني روثمونـدو كـتاب الأنـواء المشهور باسم تقويم قربه وأهداه إلى الحكم. وهو كتاب طـريف ومـثير. وبهـذه الطـريقة تقرب عدد كبير من العلماء إلى قلب الحكم، وكانت لهم عـنده حظـوة كـبيرة كـان مـن بين أولئك المتقربين ابن مفرج القرطبي. ومحمد بن حارث الخشـني. ومحمـد بـن يوسـف الـوراق الـذي كتب للحكم كتابًا ضخمًا في مسالك وممالك إفريقـيا، وكتـبًا أخرى في أخبار ملوكها وحروبها، وعددًا آخر من الكتب في أخبار بعض المدن والأمصار الأخرى [1].

ولم يقتصر الاهتمام بالكتب والمكتبات في قرطبة وغيرها من مدن الأندلس على الحكام والأمراء، بل إن غالبية المجتمع القرطبي والأندلسي عمومًا كانت شغوفة بالقراءة، ومحبة جمع الكتب، كل بما تسمح به ظروفه المالية بالطبع.

ومـن الذيـن عشـقوا الكتـب وأحـبوها حبًا جمًا قاضي قضاة قرطبة القاضي أبو مطرف وهـو عـبد الـرحمن بـن محمـد بن عيسى بن فطين بن أصبغ بن فطيس بن سليمان. وأبو المطـرف كنيته التي اشتهر بها. وقد جمع هذا القاضي من الكتب في جميع فروع العلم ما لم يجمعـه أحـد مـن أهـل عصـره بـالأندلس. وكان من كبار المحدثين والعلماء والمفسرين حافظًـا للحديـث وعلـله، مـلمًا بأسمـاء رجالـه وثقاتـه مـتقدمًا في معـرفة الآثـار والسـير والأخـبار، وكـان خطـه حسـنًا وضـبطه جـيدًا. ويـروى أنـه كـان يسـتخدم ستّة وراقين ينسـخون له دائمًـا. وكـان قـد رتـب لهـم عـلى ذلك راتبًا معلومًا. وكان متى علم بكتاب حسـن عـند أحـد مـن الناس طلبه للابتياع منه وبالغ في ثمنه. فإن قدر اشتراه، وإلا فإنه كان ينسخه ويعيده إلى صاحبه [2].

---

(١) المقري: نفح الطيب، ج٢، ص١٦٣.

(٢) ابن بشكوال: كتاب الصلة، ج١، ص٣١٠.

ويروي ابن بشكوال عن حفيد أبي المطرف أنه سمع عمه وغيره من أقاربه يحكون أن أهل مدينة قرطبة قد أمضوا عامًا كاملاً في عملية بيع كتب جده أي المطرف، وأن حصيلة بيع الكتب هذه كانت أربعين ألف دينار قاسمية. وإن دلت هذه القصة فإنها تدل على الأعداد الضخمة من الكتب التي كانت في مكتبة المطرف الخاصة. وعدت مكتبته أضخم مكتبة في قرطبة بعد مكتبة الخليفة. ومن بين الكتب التي كانت فيها. كتاب القصص والأسباب التي من أجلها نزل القرآن الكريم في نحو مائة جزء ويزيد. وكتاب المصابيح في فضائل الصحابة وهي مائة جزء. وفضائل التابعين لهم بإحسان مائة وخمسون جزءًا. والناسخ والمنسوخ ثلاثون جزءًا. وكتاب الأخوة من المحدثين من الصحابة والتابعين. ومن بعدهم من المخالفين أربعون جزءًا. وأعلام النبوة ودلالات الرسالة عشرة أسفار وغير ذلك من تأليفه (١).

وكانت مكتبة ابن مطرف قد صممت في الأصل كبناء مكتبة صممه مهندسون مهرة بحيث يستطيع الفرد من زاوية معينة أن يشاهد كل الرفوف. والقاعة الأنيقة. والجدران والسطح وشرفات المكتبة وسجادها والوسائد الغالية،وكلها باللون الأخضر الذي يرمز إلى عراقة وشرف أسرة أبي المطرف حيث إنه كان ينتسب إلى إحدى الأسر القرطبية الواسعة الثراء.

ومن بين أهل قرطبة الذين اشتهروا بجمعهم للكتب وامتلاكهم لمكتبات خاصة بهم جعفر بن محمد بن مكي بن أبي طالب بن محمد بن مختار القيسي اللغوي الذي كان عالمًا بالآداب واللغات ذاكرًا لهما متقنًا لما قيده منها ضابطًا لجميعها. عني بذلك العناية الكاملة وجمع مع ذلك كتبًا كثيرة (٢). وكان من بينهم أيضًا سلمة بن سعيد بن مطرف بن برد الأنصاري الذي سافر من الأندلس إلى مصر كان يجمع فيها الكتب من كل مكان ثم إنه رجع بكل ما جمع من كتب إلى الأندلس. وكانت الكتب التي جمعها في كل فن من العلم دفع في شرائها أموالاً كثيرة حملها معه إلى المشرق عندما ترك الأندلس في بداية الأمر (٣). وكذلك كان من بينهم عبد الله بن محمد بن أسد الجهيني الطليطلي وكان عالمًا بالأدب واللغة ومعاني الأشعار وكان لا يعير كتابًا إلا لمن يتيقن أمانته ودينه (٤).

---

(١) المصدر نفسه، ص٣١١ـ٣١٢.
(٢) المصدر السابق، ص١٣٠.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٢٥.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٤٥ـ٢٤٦.

ومنهم أيضًا محمد بن أحمد بن عون النعافري وكان فقيهًا فاضلاً يملك الكتب يجمعها ويبحث عنها. وقاسم بن سعدان بن يزيد مولى الإمام عبد الرحمن بن معاوية. وكان ضابطًا لكتبه عالمًا بالحديث بصيرًا بالنحو والغريب والشعر. وكان يعتني بكتبه عناية فائقة حتى قيل إنه لا يوجد من يعتني بالكتب في الأندلس مثله، وكان ينسخ كتبه بنفسه، ولم يزل في النسخ والمقابلة إلى أن مات ولم يحدث. وحبس كتبه فكانت موقوفة عند محمد بن أبي دلم. ويذكر ابن بشكوال أن اقتناء الكتب لم يقتصر على الرجال فحسب، بل كانت هناك نساء أندلسيات اشتهرن بجمع الكتب والعناية بها وحتى نسخها. ومنهم لبنى كاتبة الخليفة الحكم بن عبد الرحمن التي كانت حاذقة بالكتابة نحوية شاعرة عالمة بالحساب، ولها مشاركة في العلم. وكذلك عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم التي ذكرها ابن حيّان. وكانت تنسخ القرآن الكريم والدفاتر وكانت تجمع الكتب وتعتني بالعلم وتمتلك خزانة كتب كبيرة حسنة. وقد وجدت هذه الهواية عند العامة من الناس سواء في قرطبة أو المدن الأخرى وكمثال على هذه الطبقات القرطبي (حزم المعلم) الذي كان يمضي وقته في تعليم الصبيان، ويعيش من مهنته هذه حياة متواضعة ويساعده ابنه وابنته فكان يقوم بادخار جزء قليل من المال من دخله لشراء ما يستطيع من الكتب. وكان يشغل ساعات فراغه في نسخ الكتب التي يعيرها له أصدقاؤه [1].

وليس غريبًا أن يهتم الجميع في الأندلس بجمع الكتب لأن الكتاب في ذلك الوقت الوسيط الوحيد لنقل الثقافة وتداولها بين أفراد المجتمع، بالإضافة إلى المحاورات والمناقشات والدروس التي كانت تعقد في المساجد وبعض الأماكن الأخرى كالمكتبات العامة والأسواق. ونشطت حركة نشر الكتب المتمثلة في ما كان يقوم به الوراقون من نسخ للكتب المختلفة في كل فن وعلم حتى غدت قرطبة أكبر وأشهر سوق للكتب في جزائر الأندلس وأوروبا وغيرها من البلدان. كان يتردد على سوق كتبها كل من أراد الحصول على نسخة من كتاب معين أو مخطوط في حاجة إليه. وقد أورد المقري قصصًا غاية في العجب عمن كانوا يفدون إلى قرطبة لشراء الكتب.

---

(١) المصدر السابق، ص٢٥.

لقد فتح حب اقتناء الكتب وجمعها في قرطبة وبقية مدن الأندلس الباب أمام الكثيرين من الناس لكسب عيشهم من حرفة نسخ الكتب، حيث إن العديد من أصحاب حوانيت الوراقة كانت تستخدم أعدادًا كبيرة من النساخين مقابل أجر ورواتب ثابتة. وكذلك استخدمت المكتبات العامة والخاصة جمهرة من الفنيين والمهرة في فن النسخ. وقد اشتهر أهل الأندلس بالمهارة العالية والدقة الفائقة في فن نسخ الكتب وتجليدها حتى بلغت شهرتهم الآفاق في ذلك الزمن.

إن شهرة قرطبة كمركز ثقافي وعلمي جذب إليها من كل حدب وصوب أكثر العلماء علمًا وأشد الطلاب ذكاءً وحرصًا. جاءوا من المقاطعات المختلفة ومن خارج أسبانيا وجاء معهم أمهر النسّاخين وأذكى الوراقين. وتعاون الجميع على جعل قرطبة سيدة التجارة والصناعة. ولقيت صناعة الكتب وهواية جمع الكتب دفعة جديدة قوية بإقامة مصانع الورق في طليطلة وشاطبة. وبدأت تزداد انتشارًا مع اتساع التعليم [1].

الغناء والموسيقى في الأندلس

عندما استقرت الأوضاع في الأندلس في زمن الأمويين دفع الأمراء والخلفاء بالحركة العلمية والفنية قُدُمًا نحو التطور الحضاري. وقد اعتبر فن الغناء والموسيقى في الأندلس أكثر وسائل اللهو شيوعًا وتفشيًا في المجتمع الأندلسي منذ مطلع القرن الثالث الهجري وقلما تعقد مجالس لأكابر المجتمع دون أن يتخللها الغناء والرقص والموسيقى. وقد روى ابن بسام في كتابه الذخيرة أوصافًا دقيقة لمجالس الأنس واللهو التي كان عليها الأندلسيون خاصة في قرطبة وأشبيلية وغيرها من مدن الأندلس. ومن أمثلة هذه المجالس ما رواه الحميدي إذ ذكر أن عبد الله بن عاصم صاحب الشرطة بقرطبة -وكان أديبًا سريع البديهة كثير النوادر- دخل على الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط في يوم ذي غيم وبين يديه غلام بهي الطلعة جميل الزي فبادره الأمير يسأله عما يصلح لمثل هذا اليوم فأجابه قائلاً: عقار ينفر الذبان ويؤنس الغزلان وحديث كقطع الروض قد سقطت فيه مؤونة التحفظ وأرخى له عنان التبسيط، يديرها هذا الأغيد المليح فاستضحك الأمير ثم أمر بمراتب الغناء وآلات الصهباء [2].

---

(١) خوليان ريفيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، مرجع سبق ذكره، ص١٨٩-١٩٠.

(٢) الحميدي: جذوة المقتبس - المقري: نفح الطيب، ج٤، ص٢٣٠.

وأمـر المنصـور محمـد بن أبي عامر يومًا بإحضار الوزراء والندماء في مجلس أنس أعده لـلهو وحضـر في جملـة الحاضـرين الوزيـر أحمد بن عبد الملك بن شهيد في محفة إذ كان يعـاني مـن نقـرس لازمه.وقضى الجميع يومًا لم يشهدوا في اللهو مثله وطما الطرب وسما بهـم حتى تصايح القوم وأخذوا يرقصون بالنوبة حتى جاء دور ابن شهيد فأقام الوزير أبو عـبد الله بـن عـباس فجعـل ابـن شهيد يرقص وهو متوكئ عليه وارتجل أبياتًا من الشعر وجَّهها للمنصور.

وكـان من بين الحاضرين رجل بغدادي من أصحاب ابن شهيد يعرف بالضحك حسن الـنادرة فشـاهد ابـن شهيد في بداية المجلس وقد ألح عليه ألم النقرس. كلما حانت صلاة صـلاها جالسًا. فلما حمي الوطيس وأنس الجليس وطاب المجلس ودار الدور حتى انتهى إلى ابـن شـهيد فقـام يـرقص فـلم يملـك الـبغدادي نفسـه أن قـال لله درك يا وزير تصلي بالقاعدة وترقص بالقائمة [1].

ويُعـبر أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن شهيد عن حالة المرح في أبيات قالها وهو يشارك مجالس الأنس ويرقص.

ويـروي ابـن بسـام نقلاً عن ابن حيان وصفًا رائعًا كاملاً لمجلس أنس عقده المأمون بن ذي الـنون في قصـره بطليطلة. وأحضر فيه جميع آلات الأنس ثم مدت ستارة الغناء لأهل الحجاب. ونظمت نوبة المغنين زمرًا فهاجوا الأطراب واستخفوا الألباب [2].

ويـدل هـذا عـلى أن معظم مجالس الطرب في الأندلس كانت تختلف عما هي عليه في بغـداد، فبيـنما يصـطف الـندماء في قاعـة المجلس وبأيديهم كؤوس الخمر وأمامهم الموائد حافلـة بالفواكـه كانـت المغـنيات يقفـن حاملات العيدان والطنابير. وأخريات في أيديهن المزامير والأبواق والدفوف بينما تتصدر المجلس مغنية جالسة وبيدها عود وقد أسندته إلى ركبتـيها. أما في الأندلس فقد تكون هناك مجالس بمثل هذه الأبهة البغدادية كما يحدث عـادة في حفـلات العـرس والإعـذار. ولكـنَّ معظـم المجـالس الأندلسـية تجري على نسق بسـيط. فهـناك مغنـية تغني على أنغام عود تضرب عليه أو مزمار ينفخ فيه زامر أو صنج تقوم مقام الزمرة وذلك في حالة اشتراك راقصة في المجلس.

---

(١) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة – القسم الرابع ـ مجلد أول، ص١٧. وذكره المقري فينفح الطيب، ج٤، ص٢٤٣ـ٢٤٤.

(٢) المصدر السابق، ص١٠٥.

ويقال إن هذا التقليد كان في الأندلس منذ عهود قديمة إيبيرية. وإن هذه الحفلات القديمة أحياها ابن قزمان بأزجاله في القرن الثاني عشر.

وقد ساهم المشرقيون مساهمة فعالة في تطوير فن الغناء في الأندلس. فقد تدفقت شخصيات فنية على هذا البلد تدفقًا كبيرًا مما ساعد بشكل فعّال في استمرارية فن الغناء وتطويره ويعتبر زرياب العلم الأهم في هذا المضمار.

فزرياب جمع إلى جانب موهبة الغناء ومهارة العزف تحسين صناعة العود كما كانت تبشر بذلك فطنته التي تجلت حين غنى بين يدي الرشيد قبل قدومه إلى الأندلس، فهو الذي زاد في الأندلس الوتر الخامس في العود اختراعًا منه. وقد رأى زرياب استكمالاً لمجموعة النغمات المستخرجة من العود لتستوفي الطبقات الصوتية به ضرورة إضافة وتر إلى أوتاره الأربعة القديمة فزاد عليها وترًا خامسًا صبغه باللون الأحمر وجعله متوسطًا بين الأوتار. كذلك اخترع زرياب مضراب العود الريشة من قوادم النسر وكانت لا تزال حتى وقته من الخشب وهي فكرة بارعة منه كان موفقًا فيها إلى أبعد مدى إذ تجمع إلى لطف خفتها على الأصابع طول سلامة الوتر بملازمة الضرب عليه.

وما كاد زرياب يستقر في قرطبة ويعيش فيها حياة مطمئنة هادئة حتى وجه عنايته لسائر الآلات الموسيقية فنقل إلى الأندلس كل ما سبقت معرفته لبلاد المشرق العربي. ثم أخذ يبدع فيها ويبتكر حتى توافر للأندلس ثروة من تلك الآلات لم يعرفه بلد قبله. فقد كان لديهم من الآلات الوترية. العود القديم ذو الأوتار الأربعة. والعود الكامل ذو الأوتار الخمسة والشهرود. والطنبور. والقيثارة والمزهر، والكنارة والقانون، والنزهة والصنج والشقرة أو الشقير. وخمن الآلات الوترية ذات القوس الرباب على اختلاف أنواعها.

ومن آلات النفخ المزمار والسونا والسوناي والناي والشبابة واليراع والزمارة والقصبة والمقرونة. والموصول والصفارة، ومن الآلات النحاسية البوق والنفير ومن آلات النقر الدفوف والغربال والبندير والصنوج والكاسات والمصفقات والقضيب والنقارة والقصعة والطبل (١).

---

(١) زرياب موسيقار الأندلس، د. محمد أحمد الحفني – أعلام العرب ٥٤، ص١١٠-١١١.

أما العبقرية الفذة التي تجلّت عنها موهبة زرياب فهي طريقته المبتكرة في تعليم الغناء تلك الطريقة المستحدثة التي ظلت مثلاً يحتذى به في الشرق والغرب. حتى العصور الحديثة. لقد كان المتبع قبل زرياب في تلقين الألحان أن يكرر المعلم اللحن لطلابه حتى يحفظوه فاستعمل زرياب طريقته الجديدة في تلقين الألحان لتلاميذه فكان يسلك للوصول إلى تلك الغاية ثلاثة مراحل:

١- تعليم الإيقاع في قراءة الشعر وأن ينقر التلميذ الدف ليظهر له زمن الإيقاع ويضبط الحركات.

٢- دراسة اللحن في شكله الساذج الأول.

٣- ترجيع الصوت مع حلية الغناء وإظهار العواطف.

أما طريقته في امتحان أصوات تلاميذه قبل البدء في تعليمهم. فكان الطالب يجلس على كرسي صغير ويصيح بصوت عالٍ يا حجام أو يغني قائلاً آه ويرددها ممدودة على جميع درجات السلم الموسيقي، فإن سمع بها صوته صافيًا نديًا قويًا مؤديًا لا تعتريه غنة ولا حبسة ولا ضيق نفس قرر صلاحيته للتعليم مع تقدير درجة صوته من الحسن والجودة والقوة. فإذا اختار تلامذته الموهوبين لقنهم الغناء بطرق فنية. تختلف كل فئة منهم عن الفئة الأخرى تبعًا لاختلاف طبيعة أصوات أفرادها. فكان إذا بدأ الإلقاء على تلميذ لتعليم الغناء أمره بالقعود على الوساد المدور المعروف بالمسورة، وأن يشد صوته جيدًا إذا كان قوي الصوت، فإن كان لينه أمره أن يشد على بطنه عمامة فإن ذلك مما يقوي الصوت ولا يجد متسعًا في الجوف عند الخروج على الفم وقد وجه زرياب عددًا من المغنيات اللواتي استدعاهن عبد الرحمن الأوسط ممن برعن في هذا الفن بالمدينة وجرى اختبارهن في مواسم الحج، وقد تخرجن على أيدي أعلام الغناء في الحجاز ودمشق بل منهن من أتمت تلك الدراسات في بغداد ثم ابتنى الخليفة في قرطبة لهؤلاء الجواري المشرقيات دارًا خاصة أسماها دار المدنيات فكانت أول معهد موسيقي في الأندلس عميده زرياب، وقد اتخذ من أبنائه وبناته وجواريه أساتذة لمساعدته على تطوير فن هؤلاء المدنيات بما يحقق نهضة جديدة تناسب حياة الأندلس، وكان المنهاج الدراسي لهذا المعهد يشمل تعليم مختلف أنواع العزف والغناء والتلحين والشعر بسائر عروضه والرقص. وكان الإقبال عليه عظيمًا يقصده الطلاب من كل فج العرب وغير العرب من الأندلس وخارجها مما كان ذا أثر عظيم بالنهوض بفنون الموسيقى والشعر في تلك البلاد التي امتد الكثير منها إلى أوروبا.

وقد انتشرت تلك الجواري والمشرقيات والكثيرات ممن تخرجن في هذا المعهد يعلمن الأحرار من نساء الأندلس تلك الفنون في حشمة ووقار، ولم تكن المرأة الأندلسية أقل شغفاً بالغناء من أختها في العراق أو الشام لاسيّما وأن طبيعة تلك البلاد الساحرة كانت تضفي من جمالها ما يدعو الناس إلى أسباب الأنس والطرب. ولذلك سرعان ما وجدنا في قرطبة من مجالس الغناء ما لا يقل عظمة وفخامة عن مجالس بغداد. حتى أن أحد المجالس الأندلسية حوى مائتين من المغنيات والمغنيين يضربن بمختلف الآلات من عيدان وطنابير ومزامير، وبلغ من رقة عواطف أهل الأندلس أن أغرموا بالغزل واستعانوا عليه بحلو النغم فكنت تسمع في كثير من الأحايين حين تمر بالليل صوت الغناء وأصداء الموسيقى تنبعث من جوانب الدور والقصور وكثرت مجالس الغناء والطرب والرقص مع مجالس الأدب. وتعددت أنواع وألوان تلك المجالس فكانت ندوات لاجتماعات أدبية شعرية غنائية تشدو فيها الجواري المغنيات بمصاحبة مختلف الآلات وكانت النساء تحضر تلك المجالس في أكثر الحالات.

وتحوّل بلاط عبد الرحمن الأوسط من الخشونة إلى ترف قصور الحكام، وأصحاب السلطان في المشرق العربي وذلك بتوجيه زرياب وما أشاعه من أفانين الذوق وأساليب الظرف حتى أطلقوا عليه فيصل الأناقة في بلاط عبد الرحمن. وامتلأت القصور بالجواري، وقد اصطفى عبد الرحمن الأوسط من بينهن جارية (طروب) فصارت حظيته التي لم يكن يطيق مغاضبتها.

ونبغ من تلاميذ زرياب في الفترة التي عاشها في قرطبة أبناؤه الذكور الثمانية وبنتاه، وكلهم تعلموا الغناء ومارسوا هذه الصناعة وإن اختلفت بهم الطبقة فكان أعلاهم شأنًا ابنه عبيد الله. ونبغ من تلميذاته غير أبنائه جاريته متعة. ومصابيح جارية الكاتب أبي حفص عمر بن قلهيل وغيرهن من المغنيات اللاتي أتيح لهن نشر فن زرياب إلى مجالات بعيدة، وقد تسابق الأمراء والخلفاء والأغنياء في شراء الجواري المغنيات من المشرق. وقد اشتهر في فن الغناء أبناء الخلفاء وبناتهم. منهم مثلاً الأمير أبو القاسم المطرف بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط. والأمير أبو الأصبغ عبد العزيز بن عبد الرحمن الناصر والأميرة ولاّدة بنت المستكفي.

ومن الموسيقيين اشتهر موسيقيان في عهد الحكم المستنصر أحدهما أبو مقيم الزامر والثاني النكوري الزامر وكان هذا الأخير يزمر بالبوق قبل ذلك لعبد الرحمن الناصر ونستدل على ازدهار الفن الموسيقي والغناء والرقص في عصر الخلافة من تلك النقوش

المحفورة على العلب والصناديق العاجية التي كانت تنتجها دار الصناعة بقرطبة، وهي نقوش تمثل في بعض الأحيان مجالس أنس وشراب. منها نقش محفور على علبة من العاج أسطوانية الشكل من عصر الحكم المستنصر. يمثل منظرًا لمجلس من تلك المجالس. نشاهد فيه رجلين جالسين يحمل أحدهما قنينة الشراب ويعزف الآخر على آلة مستديرة الرأس يغلب على الظن أنها البربط أو الرباب. ويقف بينهما رجل يعزف على العود. وكان ابتكار الأزجال والموشحات من العوامل التي ساعدت على النهوض بفن الغناء والموسيقى في قرطبة. فقد كان المغنون في عصر الإمارة وعصر الخلافة يقتطفون من القصائد ويغترفون منها ما يتلائم مع الألحان إلى أن ظهرت الموشحات والأزجال لخدمة الغناء. ومعروف أن الموشحات العامية بنيت على أغانٍ شعبية كانت شائعة باللاتينية الدارجة أو العجمية.

وبعد أن سقطت الخلافة الأموية في قرطبة ازدهرت فنون الغناء والموسيقى في عصر الطوائف وتعددت مراكزها بعد أن فقدت قرطبة مكانتها. وحاط ملوك الطوائف أنفسهم بمشاهير المغنيين والمغنيات وفحول الشعراء والكُتّاب.

ففي هذا العصر تألق عدد كبير من المغنيين اختص بهم ملوك الطوائف في قواعدهم، وصلت إلينا بعض أسمائهم أمثال أبي يوسف المغني. والمغني السوسي.

وقد أصبحت أشبيلية بعد قرطبة مركز اللهو والغناء والموسيقى واشتهر أهلها بحبهم للهو حتى ضُرب بأهلها المثل في الخلاعة. وشغفوا بالغناء الذي توارثوه عن زرياب.

ومما لا شك فيه أن ازدهار الغناء في أشبيلية زمن الطوائف لم يكن ليتحقق ما لم يكن حظي برعاية بني عباد وتشجيعهم لأهل هذا الفن وأربابه. وكان المعتمد بن عباد شاعرًا يكثر من مجالس اللهو والشرب والطرب مع زملائه الشعراء والندماء أمثال ابن عمار وابن عبد الصمد وابن اللبانة. وحظيت أشبيلية في عهد آل عباد في مجال الغناء والموسيقى بشهرة طمست غيرها من مدن الأندلس. وظلت تحتفظ بهذه المكانة حتى سقطت في أيدي القشتاليين.

أما طليطلة فبعد سقوط الخلافة استقلت فيها أسرة بربرية أندلسية كانت في خدمة الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر، وهي أسرة ذي النون. وقد اهتم أمراء هذه الأسرة بالغناء والطرب والموسيقى.

وفي المرية. فقد اجتمع أدباء وشعراء كثيرون. واجتذبت الكثير من أصحاب المواهب في فن الغناء والموسيقى. وفي سرقسطة فقد شهدت قصورهما حفلات الغناء والطرب واهتم ملوكها بجلب المغنيين والاهتمام بهم. وكذلك الأمر في بلنسية. فقد عرف أهلها بمرحهم وإقبالهم على اللهو ومجالس الطرب. وكانت طبيعة بلنسية الجغرافية قد ساعدت على راحة الناس وميلهم إلى الغناء والطرب.

وأقبل المرابطون على اللهو والترف. وقد برع في فن الموسيقى لديهم الموسيقي الأديب أبو الصلت الأشبيلي، وكان متقنًا لفن الموسيقى يجيد اللعب بالعود، وهو الذي لحن الأغاني الإفريقية في عهد الأمير الصنهاجي يحيى بن المعز بن باديس.

وفي عصر الموحدين تألقت أشبيلية من جديد. وفي عهودهم ازدهر فن الموشحات والأزجال، وغلب الغناء على المجتمع الأندلسي من جديد في ظل حكام يرعون الفنون ويشجعون أهلها بالبذل والعطاء. واشتهر في هذا العصر أبو الحسين علي بن الحمارة من أهل غرناطة، وقد برع في الألحان وعلمها. ومنهم أيضًا أبو الحسين بن أبي الوزير الطليطلي الذي كان غاية في الظرف، وكان بارعًا في الموسيقى والغناء. وكان عبد الوهاب بن الحسين الحاجب أعلم الناس بضرب العود واختلاف طرائقه وصناعة الألحان البديعة على أنغام مزمار بشارة الزامر.

وإلى جانب هذا الاتجاه نحو الطرب والاهتمام بالغناء ظهر علماء في فن الغناء والموسيقى في عصر الموحدين نخص بالذكر منهم يحيى المرسي الذي صنف كتاب الأغاني الأندلسية على مثال كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني. ومنذ قيام دولة الموحدين راح عدد كبير من المغنيين ينتقلون منهم إلى المغرب وإفريقية منهم أبو الصلت الداني. ومنهم أيضًا أبو الحكم عبيد الله بن المظفر الباهلي الأندلسي الذي هاجر إلى دمشق، وكان يجمع بين الطب والموسيقى والغناء، وكان يتقن الموسيقى ويلعب العود. وأبو زكريا يحيى البياسي الأندلسي الطبيب والرياضي، وكان جيد اللعب بالعود وعمل الأرغن وحاول اللعب به وكان يقرأ عليه علم الموسيقى.

وقد شاع الغناء في زمن بني الأحمر في غرناطة. وكان أهلها يحتفلون في عيد جني محصول العنب بالغناء والطرب. وكان المغنون والمغنيات ينشدون الشعر الغنائي الرقيق سواء كان موشحًا أو زجلاً أو شعرًا على نغمات الموسيقى. وتشترك مختلف الآلات

الموسيقية في ذلك. وقد تعدد آلات الطرب والموسيقى في زمن الموحدين، وذكر الشقندي أسماء كثيرة من الآلات فقال: (وقد سمعت ما في هذا البلد من أصناف أدوات الطرب كالخيال، والكريج، والعود، والروطة، والرباب، والقانون، والمؤنس، والكيزة، والقتار، والزلامي، والشقرة، والنورة. وهما مزماران). وقد ذكر ابن خلدون هذه الآلات وأضاف إليها بعض الآلات الأخرى كالشبابة [1].

وبعد سقوط الأندلس احتفظ المغرب بفن الغناء والموسيقى بشكل كبير، وما يزال بعض المطربين والموسيقيين يهتمون بتلحين الموشحات الأندلسية. ولا يُنْسى أن الموشحات ونغماتها الأندلسية انتقلت إلى مصر وبلاد الشام وأفادت المبتدعين في تمثل هذا الفن والتأليف على منواله لما له من أصالة فنية وشعرية وذوق رفيع.

النظم السياسية بالأندلس

الخلافة

كان بنو أمية يتقلبون بالإمارة منذ استقر أمر عبد الرحمن الداخل بن معاوية بالأندلس عام ١٣٨هـ، حتى تولى الأمير عبد الرحمن بن محمد في عام ٣٠٠هـ. ولم يقدم الأمراء من بني أميّة خلال هذه الفترة على التلقّب بلقب الخلافة لإحساسهم بأن الخلافة وحدة لا تتجزأ، وأنه لا يجوز أن يلقب بها إلا من يكون الحجازُ في حوزته.

والأسباب التي حدت بالأمير عبد الرحمن بن محمد لتسمية نفسه بالخليفة تكمن في ضعف الخلافة العباسية بالمشرق، عندما تسلط عليها الترك خاصة في زمن المقتدر العباسي، وعبثهم بالخلفاء يخلعون من يخلعون وينصبّون من ينصبون. ورأى أن الفاطميين قد تلقّبوا بلقب الخلافة وأصبحوا يهددون الأندلس، ويعدون العدة لضمها إليهم. ويشعر الأمير أنه ليس أقل منهم قوة ونفوذًا ودفاعًا عن الإسلام.

وأمر عبد الرحمن بن محمد عام ٣١٦هـ، أن تكون الدعوة لمخاطبته والدعاء له على المنابر بأمير المؤمنين. وتلقّب بعبد الرحمن الناصر لدين الله أمير المؤمنين، وأصدر منشورًا وزعه عماله في النواحي المختلفة.

وتحولت بعد ذلك إمارة الأندلس إلى خلافة، واستمر هذا اللقب في ذرية عبد الرحمن الناصر حتى سقوط الدولة الأموية. وعندما تطرق إليه الضعف في عهد هشام المؤيد بالله،

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ص١١٢-١١٣.

تـولى محمـد بـن أبـي عامـر الحجابـة وأصـبح الحاكم الحقيقي للأندلس أما الخليفة فقد انزوى في قصره ولم يبق من الخلافة سوى الاسم.

ولـما سـقطت دولـة بـني عامـر، تـولى الخلافة أمراء من بني أمية، قُتل منهم من قتل وعُـزل من عزل حتى انقرضت دولة الخلافة الأموية من الأندلس، واستقل كثير من الولاة في المـدن الأندلسـية، وقامـت دول الطوائف، وتلقب سلاطينـها وملوكها بألقاب الخلافة. أما ملوك المرابطين فقد اكتفوا بلقب أمير المسلمين، وهو دون الخلافة في حين تلقّب ملوك الموحديـن مـنذ عهد عبد المؤمن بنْ عليٍّ بلقب أمير المؤمنين، وتسمّوا باللائحة المعصومين إشـارة إلى مذهـبهم في عصـمة الإمام وتنزّهه عن أتباعه. واتخذ ملوك بني نصر في غرناطة لقب سلطان، وكان نظام الحكم في عهدهم مطلقاً.

الوزارة

كانـت قـاعدة الوزارة في الأندلس في عهد بني أمية مشتركة في جماعة يعينهم الخليفة لإعانـته ومشـاورته في شـؤون الدولـة ولم يكـن إطـلاق لفـظ الوزير في بداية الدولة الأموية شـائعًا، كمـا كـان الحـال في الدولة العباسية في المشرق، والدولة الفاطمية بمصر، إذ كان خلفـاء بـني أمـية يـأنفون مـن اسم الوزير في مدلوله. ثم قسموا خطته أقسامًا وأفردوا لكل قسم وزيـرًا فجعلـوا لحسـبان المـال وزيـرًا، وللترسيل وزيرًا، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيرًا، وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيرًا.

ونلاحـظ أن هذا التقسيم حالة متقدمة في تقسيم المهام بين عدة وزارات، ويمكن القول أن وزيـر حسـبان المال يشابه اليوم وزير المالية. ووزير الترسيل يشابه اليوم وزير الإعلام. ووزيـر الـنظر في حوائـج المتظلمين يشبه اليوم وزير العدل أو الداخلية، ووزير أهل الثغور يشـابه اليوم وزير المناطق. ولا يخفى علينا أن السفراء الذين كان يبعثهم الخليفة أو الملك يشبه إلى حد بعيد وزير الخارجية اليوم.

وكـان الأمـير عـبد الرحمن الأوسط أول من اتخذ للوزارة في قصره دارًا للوزارة، ورتب لقاءاتـه معهـم في كل يوم يستدعيهم معه أو من يختص منهم أو يخاطبهم برقاع فيما يراه مـن أمـور الدولـة كـلٌ فـيما جُعـل له. وأفرد للتردد بينه وبينهم واحدًا منهم ارتفع عنهم بمباشـرة الأمـير أو الخلـيفة في كـل وقـت فـارتفع مجلسـه عـن مجلسـهم وخصـوه باسم الحاجـب حيـنًا وذي الوزارتـين حينًا آخر. وكان الحاجب في ذلك نائبًا عن الوزارة لدى

الخليفة. وهذا ما يشابه اليوم رئيس مجلس الوزراء. وكانت هذه الوظيفة أعظم ما تنوفس فيه في عهد بني أمية. وكان الخليفة عبد الرحمن الناصر أول من طبَّق لقب ذي الوزارتين على وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد باعتباره جامعًا بين خطيّ السيف والقلم.

ولما كانت دولة الموحدين، خص الخلفاء منهم لقب الوزارة للكاتب المتصرف المشارك للسلطان في خاص أمره كابن عطية وعبد السلام الكومي. وكان للوزير مع ذلك النظر في الحساب والأشغال المالية ثم صار بعد ذلك اسم الوزير لأهل نسب الدولة من الموحدين.

وفي عهد بني نصر أصبحت الوزارة سند عادة إلى كبار الكتّاب أمثال أبي الخطيب وابن زمرك. وكان الوزير يشرف على جميع شؤون السلطة ويوجه سياستها الداخلية والخارجية على السواء، ويذكر ابن خلدون أن بني نصر أنشأوا وظيفة جديدة هي وظيفة وكيف السلطان، ويختص بحسبان المال وتنفيذ أوامر السلطان.

الحجابة

وكان اختصاص الحاجب في عهد بني أمية واسعًا يشتمل على الشؤون العسكرية والمدنية، وكان بالإضافة إلى هذه الوظيفة واسطة بين الخليفة ووزرائه، يقوم بملازمة الأمير ومباشرته. لذلك كانت هذه الخطة أعظم الخطط قدرًا وغاية ما يرجوه كل وزير.

وقد ارتفع شأن الحاجب في أواخر عهد بني أمية، وأخذ يستبد شيئًا فشيئًا بأمور المملكة، فبرز من الحجّاب، الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي الذي ارتقى إلى هذا المنصب الكبير زمن الحكم المنتصر. وقام بتدبير شؤون الدولة الأندلسية. ثم ظهر المنصور محمد بن أبي عامر الحاجب، وارتفع شأنه واستبد بشؤون الخليفة هشام المؤيد فمنع الوزراء من الوصول إليه إلا في النادر من الأيام يسلّمون وينصرفون، وأورث ابن أبي عامر الحجابة لأولاده من بعده حتى سقطت الدولة العامرية عام ١٠٠٨م.

ولما كان عهد ملوك الطوائف انتحلوا لقب الحجابة إلى جانب ألقاب الخلافة، وكانوا يعدون لقب الحجابة شرفًا لهم. وكان لابد من ذكر لقب الحجابة وذي الوزارتين قبل ذكر أسمائهم، ومن أمثال هؤلاء الملوك: الحاجب ذو الرياستين أبو مروان عبد الملك بن رزين ملك السهلة. وذو الرياستين المنصور بالله أبو الوليد محمد بن جهور ملك قرطبة.

القضاء

كان القضاء في الأندلس أعظم الأعمال عند الخاصة والعامة، لتعلقها بأمور الدين واستقلالها عن الخلافة، ولا يقوم بأعباء هذا القضاء إلا من ولي القضاء الشرعي في المدن الكبرى. وكان القضاء ينقسم إلى شرعي ومدني.

أما القضاء الشرعي فكان القاضي الشرعي يختار من بين أفاضل الناس وأحسنهم سيرة وأوسعهم علمًا وأرجحهم عقلا وذكاء. وكان قاضي الجماعة ينظر في المواريث والوصايا والتحجير والأحباس، كما كان يقوم بإمامة الناس في صلاة الجماعة. وكان قاضي الجماعة لا يقضي إلا في قرطبة. وكان ينيب عنه في الأقاليم قضاة آخرين، في حين كان لقاضي الجماعة في الدولة العباسية الرياسة على القضاة جميعًا. وظل منصب قاضي الجماعة أرفع مناصب القضاء في الدولة الأندلسية منذ عهد بني أمية حتى عصر دولة بني نصر. وكان قاضي الجماعة في غرناطة في عهد بني نصر يجمع بين وظيفته في القضاء الشرعي وبين إمامة المسلمين في الصلاة والخطبة.

أما القضاء المدني فكان يشتمل على أربع مهام وأربع شخصيات. الأمن وصاحب الشرطة، وصاحب المدينة (المحافظ)، وصاحب المظالم (العدل)، والمحتسب (المالية).

صاحب الشرطة

كانت المسائل السياسية والجرائم وغيرها تسند لصاحب الشرطة، فكان من اختصاصه حفظ الأمن وتنفيذ الأحكام التي يصدرها القاضي، والتي يصدرها هو. ولم يكن منفذًا لهذه الأحكام فحسب بل كان يتولى الاتهام والتحقيق، ويقيم الحد دون أن يتدخل القاضي في أحكامه ويشبه اليوم قاضي الجنايات الشخصية. وكان صاحب الشرطة يعرف عند العامة بصاحب الليل لمحافظته على الأمن في العاصمة والأقاليم، ومطاردته المجرمين وأهل الفساد. وكانت خطته تسمى أيضًا خطة الطواف بالليل لأنه كان يبعث العسس والدرابين في الأزقة والشوارع والدروب للقبض على اللصوص ومنتهكي القوانين.

ونلاحظ اليوم أن هذا النظام ما زال متبعًا في بلدان العالم أجمع، وإن أصبح أكثر تطورًا وأكثر تعقيدًا، لكن المبدأ العام واحد في ذلك العصر وعصرنا الحالي.

صاحب المدينة

وكان يجمع بين يديه سلطة كبرى عند غياب الخليفة، وسلطته في هذه الحالة تعد سلطة مطلقة. واختصاص صاحب المدينة فيه غموض إذ إنه قد يجمع أحيانًا بين

وظيفته، ووظيفة الشرطة، ويشبه اليوم المحافظ في بلادنا المعاصرة، إذ إن هذا المحافظ رئيس لمدينته ويطبق القوانين بحرية.

صاحب المظالم

وهي وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء، وتحتاج إلى يد قوية ورهبة عظيمة، فهي تقمع المظالم من الخصماء وتزجر المعتدين. وكان صاحب المظالم يمضي ما عجز القضاة عن إمضائه، لأن سلطته تعوق سلطة القاضي، وتقابل وظيفة صاحب المظالم، وظيفة قاضي الاستئناف في أيامنا هذه. وكان صاحب المظالم يُختار من أفاضل الناس وأعلاهم مكانة في المجتمع، وكان يحيط به حماة وأعوان وكُتّاب وعدول.

المحتسب

وهي وظيفة ملحقة بالقضاء لأن فيها حكمًا. وكان المحتسب يسير بنفسه في الأسواق، ومعه أعوانه يحملون الموازين والأكيال الصحيحة فيدس المحتسب أحد أعوانه على البائعين، ويختبر وزن السلعة أو كيلها، فإن وجد به نقصًا جَرَسَ البائع وضربه بالسياط في الأسواق. وكان اختصاص المحتسب يتجاوز المبيعات إلى جميع شؤون المجتمع الأندلسي، إذ كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحث على عدم الغش والتدليس. ويحمل الناس على اتباع الخير، وكان يمنع الناس من تحميل الحيوانات ما لا تطيق، ويمنع معلمي الصبيان في المكاتب من ضرب الأولاد، ويحكم على أصحاب المباني المتداعية. ويمنع التسول بصوره المعروفة، إذ إن في ذلك كسلاً عن العمل. والكسل مستقبح في الأندلس، وكان يُشترك فيمن يتولى وظيفة الحسبة أن يكون من المشهورين بالعلم والمعرفة والذكاء فيُختار من بين القضاة لأن عمله مرتبط بالقضاء.

ونلاحظ أن المحتسب ونظام الحسبة يشتمل على وزارة التموين اليوم وأشياء أخرى أوسع.

الجيش

كان الجيش الأندلسي ينقسم إلى فرق، على كل منها أمير، يحمل راية، وكانت الفرق تنقسم بدورها إلى كتائب، على كل منها قائد يحمل علمًا، وتنقسم الكتائب إلى أقسام أخرى فرعية.

وكـان ينقسم مـن حيـث الأسـلحة إلى ثلاثـة أقسـام مشاة ويتسلحون بالرماح الطويلة والسيوف والتروس. ورماة يحملون القسي والسهام، وفرسان يتسلحون بالمزاريق والسيوف ويلبسـون الـدروع، وكان الجنود يلبسون على رؤوسهم مغافر تشبه الخوذات أو البياضات الصـقلبية. وكان الفرسان أهم ما في الجيش من قوة إذ كانوا يؤلفون القوة الضاربة السريعة الحركة التي تقوم بالحصار والتطويق، ومن فرسان الأندلس المشهورين ابن مردنيش.

وكـان أكـثر جـيش الأندلس في عهد بني أمية من المغرب والصقالبة والجنود المرتزقة، فلما جاء ابن أبي منصور استكثر من البربر والصقالبة، وأضعف من العرب.

وكانـت قـيادة الجـيش أهـم المناصـب في الأندلـس بسـبب الصـراع الطويل الأمد بين المسـلمين والمسيحيين الأسبان، وقد برز من القادة الولاة السمح بن مالك الخولاني، الذي استشـهد في سـبتمانيا عـام ١٠٣هـ، وعنبسـة بـن سـحيم الكلبي الذي استشهد في أرض فرنسـا عام ١٠٧هـ، وعبد الرحمن الغافقي الذي استشهد في موقعة الشهداء على بعد ٧٠ كيلو مترًا جنوبي باريس.

الأسطول

كـان الخلفـاء الأمويـون والملـوك في الأندلـس قـد اهـتموا اهتمامًا بالغًا بالأسطول، لرد هجمـات الـنورمانديين والفاطمـيين. وقـد أنشـأوا لذلك دور الصناعة على السواحل، وقد تقدمت صناعة الأسطول في عهد الموحدين ونبغ في قيادته قواد عظام أمثال ابن الرمامس، وأبي عبد الله بن ميمون. وكان الأسطول يتسلح بقاذفات اللهب.

الفصل السادس

أسباب سقوط الأندلس

لا شك أن كثيرين من الدارسين حللوا ظاهرة سقوط الأندلس، وأظهروا من الأسباب الكثير، وقد اتسعت دراساتهم، وكثر الدارسون من عرب وغربيين. وتكاد جميع الأسباب تتشابه لديهم والواقع أن المدقق في الوجود العربي منذ موسى بن نصير وطارق بن زياد وحتى سقوط دولة بني الأحمر، يرى أن أسبابًا كثيرة كانت وراء سقوط هذه المنطقة بأيدي الإفرنج، وفي المنظور المادي فقد كانت الأسباب واضحة للعيان. ولعل من الأسباب الروحية المعنوية ما هو أكثر دفعًا باتجاه السقوط.

وفي منظورنا فإن الأسباب جميعها المادية والروحية تتكاثف لتكون دفعًا للسقوط لا محالة، وعلى الرغم من أن عمر الحضارة العربية في الأندلس طويل ومديد، إلا أن أسباب السقوط كانت تكمن في البدايات كما كانت تكمن في النهايات.

١- فمنذ البداية دخول العرب أرضًا غير عربية. ووجدوا فيها شعبًا، ففي منظور الأوروبيين يبقى دخول العرب إلى شبه الجزيرة الإيبيرية استعمارًا غازيًا مهما كانت نتائج وجوده ومهما قدم من رقي وحضارة وتقدم في جميع المجالات.

على أية حال فقد دخل العرب إلى الأندلس فاتحين وناشرين لدين الله ومكونين دولة إسلامية قوية. لكن التواجد الاجتماعي المتنوع العناصر كان سببًا من الأسباب في ظهور النعرات العنصرية العرقية. فالمجتمع الأندلسي تكون من العرب والبربر وأهل البلاد الأصليين. ومع مرور الوقت تشكل جيل جديد أطلق عليه اسم المولدين. فالعرب ظلوا يتسيدون على العناصر الأخرى إلى أن قامت دويلات الطوائف، ومنها قسم كبير من البربر الذين ثاروا على الخلافة المركزية في قرطبة وعاثوا فسادًا فيها.

أما أهل البلاد الأصليون فقد ظلوا يتعاطفون مع جذورهم، على الرغم من محافظتهم على حقوقهم، لكن المحلل يرى أن هؤلاء كانوا مغلوبين على أمرهم لكونهم الفئة الأضعف بين فئات المجتمع. وعند تنامي قوة القشتاليين وبدء مرحلة الاسترداد الأسبَاني، كان لابد لهؤلاء من أن يقفوا إلى جانب أبناء جلدتهم وعقيدتهم ولا يخفى على المرء ما كان لليهود من دور في البداية وفي النهاية. فقد قدموا العون المادي والمعنوي

للعرب الفاتحين في بداية الفتح، ولكن أكثرهم ساعدوا القشتالين ضد العرب في المراحل الأخيرة من وجود العرب في هذه البلاد.

وفي الجانب الآخر كان يشعر القشتاليون والبرتغاليون ومن ورائهم الفرنسيون، أن حربهم ضد العرب هي حرب تحرير من استعمار محتل لأرضهم. وهذا ما خلق الدافع لتقوية أنفسهم على مدى قرون طويلة. والواقع أن الحروب بين العرب المسلمين وبين القشتاليين، لم تهدأ طوال تلك القرون.

صحيح أن العرب والبربر مكثوا في الأندلس مئات السنين وبنوا في مدنها حضارة واستقرارًا لكنها - أي الأرض الأندلسية - تبقى في المحصلة أرضًا أوروبية ليس لهم الحق في البقاء فيها، ولذلك رأينا أن سقوط الأندلس بيد الإفرنج دفع العرب للنزوح إلى بلاد العرب في المغرب، كونها الأرض التي ينتمون لها في الأصل.

٢ - لعل من أهم الأسباب الذاتية التي دفعت إلى انتصار القشتاليين والإفرنج على العرب المسلمين. كون روح الجهاد والغاية منه قد فُقدت لديهم، فموسى بن نصير وطارق بن زياد والقادة الأوائل جعلوا همهم من الفتح نشر الدعوة الإسلامية، ورفع الظلم عن الناس. وكان يدفعهم إلى الجهاد إيمانهم الراسخ بمبادئ العقيدة التي كان همّ أصحابها نشر ديانة التوحيد بين الشعوب على كافة انتماءاتها.

وعندما توقفت الفتوح، استقر العرب والتفتوا لتأسيس حضارتهم العربية في الأندلس، وكان الإفرنج آنذاك ضعيفي القدرات والإمكانات. فلم يصمدوا أمام قوة الحضارة العربية، أو أمام القوة الكامنة في العرب. وهذا الاستقرار الحضاري لزمه أسباب القوة والسيطرة، فأسس العرب الأساطيل وجهزوا الجيوش لصد أي عدوان خارجي يقع على مناطق تواجدهم. لم يكن القشتاليون على مستوى الرد العسكري أولاً، ولا على مستوى الرد الحضاري، فحاولوا أن يتأقلموا مع الوضع الجديد حتى تحين الساعة فيأخذوا بالتمدد مرة أخرى على حساب طرد العرب والاستيلاء على مناطقهم.

ولعل ما أضعف روح الجهاد عند العرب انغماسهم الكامل في اللهو والخمر والنساء، وقد رأينا أن الخليفة نفسه وأعوانه وكثيرون كثيرون من الشعب قد انتهكوا الحرمات وحللوا المحرمات. انتشرت الغانيات والراقصات ودور الطرب واللهو ومجالس الخمر والعربدة. في مقابل توقف حركة الجهاد أو الفتوح أو الدعوة نهائيًا. وهذا بالطبع يذكرنا

بقانون القرآن الكريم،الذي ينص في كثير من المواقع أن الابتعاد عن طريق العقيدة سبب من أسباب هلاك الأمم المنحازة إلى طريق المحرمات والشرور. ودأب الأندلسيين كغيرهم من الأمم السابقة أو الغابرة. فقد ضلوا الطريق وارتموا في أحضان اللهو، ونسوا فضل الله عليهم فعمهم البلاء بما فسدوا، وبما اقترفت أيديهم من انحراف عن العقيدة الحقة ومبادئها السامية. والذي جعلهم يستمرون طويلاً كون الطرف المعادي لهم ضعيفًا ومنقسمًا وغير متحضر.

٣- وقد كان للحروب المستمرة بين العرب والأسبان دور مهم في إضعاف الجانب العربي. وقد أنهكت هذه الحروب القوة العربية مرارًا، وأدت بالتالي إلى سقوط المدن الأندلسية عدة مرات بأيدي القشتاليين، وخاصة في زمن ملوك الطوائف.

لقد استغرق ملوك الطوائف في ملاذهم وعكفوا على حياة اللهو والترف ومظاهر الرقة التي كانت تنعم بها الأندلس. وقدموا الجزية لألفونسو ملك قشتالة اتقاء لشره ودرءًا لتهديداته ورغبة في خطب وده. وقد أخذ الاسترداد الأسباني يزحف زحفًا حثيثًا فسقطت طليطلة سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م، وكان ذلك نذيرًا لملوك الطوائف الذين ظلوا في ملاذهم منغمسين في اللهو والترف والنعيم.

٤- كانت الطبيعة التي جُبل عليها العرب والبربر طبيعة خشنة صحراوية. وعندما استقروا في الأندلس تركوا الخشونة وتمدنوا حتى أن المرابطين بعد موت يوسف بن تاشفين تراخوا في إدارة البلاد فاختل حالها. وفقد المرابطون من الناحية الحربية صفاتهم التي جعلت منهم جنودًا محاربين. وتراجعت جيوشهم أمام القشتاليين والبرتغاليين والأرغونيين. كما أصابهم انهيار خلقي نتيجة لاستغراقهم في الترف واستنامتهم على اللذة واللهو ونسيانهم مظاهر الغلظة والجفاء التي فطروا عليها في الصحراء بحثًا وراء شهوات النفس. ففقدوا خصالهم وانحطت هجماتهم فثار عليهم أهل الأندلس وطردوا عمالهم. وعاد الأسبان يجددون هجماتهم على المدن الإسلامية وعاد الأندلسيون يلتمسون النجدة من الموحدين الذين أقاموا دولتهم على أنقاض دولة المرابطين.

٥- وقد كان للحروب الصليبية أثرها على الوضع في الأندلس. فقد سقطت بيد الإفرنجة القدس وسواحل بلاد الشام. ورأى الأسبان أن عليهم القيام بحروب صليبية ضد العرب والمسلمين في الأندلس، أسوة بما قام به الإفرنج في المشرق. كما أن ذلك أثر في

المدى النفسي والروحي على مسلمي الأندلس، إذ إن أوروبا المجاورة لهم بعثت بكل قواها لاحتلال الشرق في حملات صليبية متعددة.

٦- ومما أضعف الأندلسيين أمام القشتاليين قيام ثورات متعاقبة من قبل البربر، إضافة للحروب العصبية بين قيسية ويمنية. والواقع أن ذلك كان له أبلغ الأثر في ضعف الجانب الإسلامي أمام الأسبان. وفي هذه الثورات تعرضت حواضر الأندلس للنهب والقتل والتخريب.

٧- إلا أن أهم العوامل التي كانت سببًا في سقوط الأندلس، انقسام الأندلسيين إلى ممالك وطوائف. فأصبحت كل مدينة مملكة تناوئ المدينة الأخرى وتضاهيها العداء، وقد استغل الأسبان ذلك ففرضوا أنفسهم على الملوك وجعلوهم يدفعون الجزية أو يسلمون مدنهم إلى القشتاليين دون قيد أو شرط.

فالوحدة السياسية عقب سقوط الخلافة الأموية تفككت واستحوذ الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والصقالبة على مدن الأندلس، وقسموا خطتها وتغلب بعضهم على بعض، وقامت في البلاد على أنقاض دولة الخلافة عدة دويلات، صغيرة واستقل كل أمير بدولته واستبد بأمورها. لذا أطلق عليهم المؤرخون اسم ملوك الطوائف. وكان من أعظم هؤلاء الملوك بنو عباد بأشبيلية. وبنو ذي النون بطليطلة، وبنو جهور بقرطبة، وبنو حمود في غرناطة ومالقة والجزيرة الخضراء، وبنو عامر والصقالبة بشرق الأندلس. وانتحل هؤلاء الملوك الألقاب الخلفية من معتمد ومعتضد وموفق ومستكف ومستظهر ومنصور وناصر. وكان طبيعيًا وقد انهار سلطان الخلافة بقرطبة أن يحاول كل ملك الاستئثار بتقدم مدينته أدبيًا وثقافيًا. ولكن ذلك لم يغير شيئًا أمام تقدم الزحف الأسباني.

لا شك أن انهيار الدولة، بل الخلافة الأموية في قرطبة، كان مقدمة لانهيار الأندلس كلها، لاسيما بعد أن طمع عبد الرحمن بن المنصور في الخلافة، وبه انتقل العرش إلى اليمنيين وابتعدت الخلافة عن القرشيين من أبناء أمية. وهذا ما أدى إلى انبعاث العصبية العربية القديمة.

ولكن عودة الخلافة مرة أخرى إلى بني أميّة بعد القضاء على المنصور، وجدت الأندلس، وخاصة قرطبة قد امتلأت بالفتن والإضطرابات التي تصارعت فيها فئات الدولة كالبربر والصقالبة وأهل قرطبة، وقد خرجت فيها مدن عامرة كالزهراء والزاهرة، وقد نتج عن سقوط الدولة أن انقسمت الأندلس إلى الدويلات التي ذكرناها سابقًا.

وبينما كانت الأندلس تعاني من هذا الضعف السياسي والاجتماعي تحت حكم ملوك الطوائف، إذ بدول أسبانيا المسيحية في الشمال تعمل على توحيد قواها بمساندة فرنسا والبابوية. ويجدر الإشارة هنا إلى أن الدولة الأموية كانت طوال عهدها بمثابة المحور الذي تتجمع حوله القوى لدرء الخطر الأسباني، فلما زالت الدولة الأموية أصبح الباب مفتوحًا لقوى الشمال. وكان أسباب السقوط العربي في ذلك الوقت أنه كان يحكم أسبانيا المسيحية رجل واسع الطموح والأطماع، وهو ألفونسو السادس ملك قشتالة الذي نجح في توحيد مملكتي قشتالة وليون، وبسط نفوذه على الممالك الأسبانية الشمالية. ثم توج مجده الحربي باحتلاله طليطلة قاعدة الثغر الأدنى للمسلمين سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م، وقد انهار بعد ذلك الإقليم كله. وكان سقوط هذه المدينة كارثة كبرى على المسلمين، إذ احتل الأسبان مساحات شاسعة امتدت جنوبًا حتى جبل قرطبة، وقد شطرت الأندلس بهذا الاحتلال إلى شطرين.

واستمر هذا الملك بحروبه وتوسعه وحاصر سرقسطة، وراح يضرب ملوك الطوائف بعضهم ببعض، ويغير على أراضيهم ويطالبُهم بالأموال كي يضعفهم حربيًا واقتصاديًا.

والواقع أن أسباب سقوط الأندلس كانت موجودة أواخر أيام ملوك الطوائف، لولا دخول المرابطين لنجدة أهل الأندلس. وكادت تسقط مرة أخرى عندما دبّ الضعف فيها أواخر أيام المرابطين، لولا دخول الموحدين لحمايتها والحفاظ عليها في القرن السادس الهجري.

وعلى الرغم مما حققته مملكة غرناطة على يد بني الأحمر، إلا أن مظاهر الضعف التي تنذر بفناء الكيان نفسه بدأت مع مرور الأيام. وقد رصد لنا مؤرخو الأندلس المعاصرون العديد من تلك المظاهر، سواء ما يتعلق منها بالنواحي السياسية أو العسكرية أو الفكرية والعلمية.

فقد دون المقري في نفح الطيب ما يشير إلى الضعف السياسي للمسلمين هناك. من ذلك قوله: (ومنذ وقعت الفتنة في الأندلس اعتاد أهل الممالك المتفرقة الاستبداد عن إمام الجماعة، وصار في كل جهة مملكة مستقلة يتوارث أعيانها الرياسة، كما يتوارث ملوكها الملك. ومرنوا على ذلك فَصَعُبَ ضبطهم على نظام واحد، وتمكن العدو منهم بالتفرق

وعـداوة بعضـهم لـبعض بقبـيح المنافسة والطمع فآل ذلك إلى تلف القواعد العظيمة وتملك الأمصار الجليلة وخروجها من يد الإسلام)[1].

وقـال في موضـع آخـر: (ولم تزل هذه الجزيرة منتظمة لمالكها في سلك الانقياد والوفاق إلى أن طمـا بمترفيها سيل العناد والنفاق. فامتز كل رئيس منهم بصقع كان مسقط رأسه، وجعلـه معقـلاً يعتصـم فـيه مـن المخاوف بأفراسه. فصار كل منهم يشن الغارة على جاره ويحاربـه في عقـر داره، إلى أن ضـعفوا عـن لقـاء عـدو في الديـن يعـادي ويـراوح معاقلهم بالعيـث ويغـادي حـتى لم يبق في أيديهم منها إلا ما هو في ضمان هدنة مقدرة، وإتاوة في كل عام على الكبير والصغير مقررة)[2].

وعندما ندرس الوضع الذي كانت عليه غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس، نرى أن أحد أهم أسباب سقوطها النزاع العائلي الذي حدث بين أفراد بني الأحمر.

فقـد بـدأت بـوادر الخلاف منذ تولي السلطان أبو الحسن النصري بعد وفاة أبيه سنة ٨٦٨هـ/١٤٦٣م، إذ نازعـه المُلْك أخواه يوسف أبو الحجاج وأبو عبد الله محمد المعروف بالزغل. واستقل الأخير بمدينة مالقة وما جاورها مما يعني انقسام المملكة إلى قسمين.

كـان للسـلطان أبـي الحسن زوجتان الأولى ابنة عمّه واسمها عائشة، والأخرى حسناء أسبانية ابـنة أحد قادة أسبانيا المشهورين واسمها ثريا. وقد أنجبت كل منهما اثنين من الأمـراء، فـثارت مسألة الولاية بين الجانبين تحت تأثير هاتين الزوجتين. انقسم الزعماء والوجهـاء إلى فـريقين، كـل فـريق يؤيـد واحـدة مـع ولديهـا، وانتهى الأمر بالثورة على السـلطان وجلـوس أبي عبد الله محمد الصغير مكان أبيه على عرش غرناطة في سنة ٨٨٧ هـ/١٤٨٢م. بـيد أن النصـارى أسـروا أبـا عبد الله الصغير في إحدى معاركه معهم، فآل حكم غرناطة إلى والده أبي الحسن مرة أخرى، ثم إلى أبي عبد الله محمد الزغل. فاستغل النصـارى أسـر ابـي عـبد الله الصغير بإطلاقـه نظير عهود ومواثيق تكفل تفوق النصارى وانتصـارهم في الـنهاية. إذ اشـتعلت الفتـنة والحـرب الأهلـية بـين الصغير وعمه الزغل، فاستولى الصليبيون على مدينة مالقة وعلى الحصون والقلاع الهامة.

---

(١) المقري: نفح الطيب، ج١، ص٢١٥.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص٤٤٦.

ارتقى عرش غرناطة مرة أخرى أبو عبد الله الصغير، تحت حماية ملك أسبانيا، رغم بقاء عمه الزغل حاكمًا للأنحاء الشرقية من البلاد، فتم تضييق الحصار على الزغل الذي اضطر في النهاية للخضوع والاستسلام، ومن ثم مغادرة الأندلس إلى المغرب.

لم يبق أمام الأسبان سوى احتلال غرناطة حاضرة المملكة، فحاصروها وبنوا مدينة بجوارها لتعزز الحصار عليها. واستمر الحصار أكثر من سبعة أشهر قدم المسلمون خلالها ضروبًا من الجهاد والفدائية دفاعًا عن النفس. ولكن دون جدوى، وأخيرًا اتفق السلطان الصغير مع وزرائه على مفاوضة ملك النصارى في التسليم، واستمرت المفاوضات عدة أسابيع، وانتهت بتوقيع معاهدة تسليم غرناطة عام ١٤٩١م. وبهذه المعاهدة أُسدل الستار على وجود المسلمين في الأندلس بعد ثمانية قرون كاملة من دخولهم أول مرة [(١)].

إننا لاحظنا أن الأندلس عندما كانت تتعرض للأخطار، كان أهلها يستنجدون بالشاطئ الشرقي أي بقوات المسلمين في المغرب. فرأينا كيف استطاع المرابطون وعلى رأسهم يوسف بن تاشفين إنقاذ الأندلس من السقوط، ودمر قوات القشتاليين. ورأينا كيف استطاع الموحدون أيضًا أن ينقذوا الأندلس من السقوط مرة أخرى. ولكن الأندلسيين في المرة الأخيرة لم يستطيعوا أن يستنجدوا بأحد من المغرب، وذلك كان أيضًا من أسباب الإسراع بسقوط غرناطة. إذ كانت السواحل الإفريقية قد تعرضت لهجوم الإفرنج. وضعف حكامها حتى بات من الصعب إنقاذ العرب الأندلسيين، فكانت النتيجة سقوط الأندلس وخروج أكثر العرب من غرناطة.

صحيح أن سقوط الأندلس رافقه ظهور الدولة الإسلامية العثمانية. ولكن هذه الدولة كانت مشغولة بالتصدي للغربيين في أوروبا الشرقية، ومشغولة بتأسيس دولتها الفتية الجديدة. ورغم استنجاد الأندلسيين بها، إلاَّ أنها لم تكن قادرة على التصدي للأسبان، وذلك لأسباب كثيرة، أهمها بعد المسافة بين الدولة العثمانية والأندلس. على أية حال كان سقوط الأندلس أمرًا طبيعيًا لو رأينا تلك الأسباب التي تجمعت لتهيء الأندلس للسقوط. فما من أمة تركن إلى اللهو والترف وتنقسم على نفسها وتنشغل بمتاع الدنيا، إلا وتقرّب عاجلتها بيدها وهكذا كان حال العرب في الأندلس، وهكذا سنّة الكون وطبيعة الدول. فهي كما قال ابن خلدون تمر بمراحل حتى تضعف وتسقط. طالما وجدت الأسباب المنطقية للسقوط.

---

(١) د. عبد اللطيف بن محمد الحميد: موقف الدولة العثمانية تجاه مأساة المسلمين في الأندلس، ص٢٨.

الفصل السابع

الحضارة العربية الأندلسية وأثرها في الحضارة الأوروبية

لا شك أن تأثير الحضارة العربية الإسلامية على أوروبا، لم تكن لتنتج لولا وجود العلاقات التي أقامها الأندلسيون مع القوى الموجودة آنذاك.

وتلك العلاقات لم تكن رسمية دولية فحسب، بل رافقتها علاقات شعبية غير رسمية امتدت منذ تكوين الدولة العربية في الأندلس، وحتى نهاية الدولة العربية في غرناطة، وقد أقام الحكام العرب في الأندلس علاقات متعددة مع بيزنطة من جانب، ومع المسيحيين في غرب أسبانيا، ومع الإفرنج النورمانديين، ومع غيرهم من القوى. وهذه العلاقات أسهمت بشكل فعَّال في تعريف الغرب بالحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ومآثرها.

ومن المعروف أن الدولة العباسية كانت على عداء تقليدي مع الدولة البيزنطية فوجدت الدولة الأندلسية فرصتها لتقيم علاقات ودية مع الدولة البيزنطية.

وقد بدأت هذه العلاقات بإيفاد سفارات بن الدولتين، إن كان ذلك في زمن الإمارة أو في زمن الخلافة، وذكرت المصادر أن الأمير عبد الرحمن الأوسط، قد أوفد إلى بيزنطة يحيى الغزال أحد رجاله ليرأس وفدًا دبلوماسيًا إلى الحاضرة البيزنطية. وقد حمل السفير رسالة من الأمير تتضمن رغبة الأمير باستمرار العلاقات الطيبة بين الطرفين.

ومرة أخرى بعث الأمير الأموي بالغزال بسفارة أخرى إلى الدانمارك. وذكرت المصادر أن السفارات المتبادلة قد حملت معها بعض الهدايا من قبل الطرفين. وكانت مناسبة ليطّلع كل طرف على ما وصلت إليه حضارة كل منهما.

ويذكر أن ملك ألمانيا، قد بعث بسفارة إلى الأندلس للخليفة الناصر، وقد تبادل الطرفان الهدايا، وقد امتازت العلاقات بين العرب في الأندلس وبين البيزنطيين في عهد الخلفاء، بأنها أصبحت علاقات تجارية وفنية، حيث ذكرت المصادر أن الخليفة الحكم ابن عبد الرحمن الناصر بعث إلى إمبراطور بيزنطة يطلب منه المساعدة في تشييد الجامع الكبير بقرطبة.

وقد أقام حكام الأندلس علاقات أخرى مع إيطاليا، ومع ملوك الإفرنج في الشمال.

وبعد انتصارات العرب على القشتاليين، أذعن الإفرنج بالطاعة وهادنوهم وبعثوا لهم بالسفارات والهدايا. وتذكر بعض المصادر أن الخليفة الناصر بعث إلى سانشو أمير ليون بطبيب يخفف له من سمنته، ويمده بالسلاح والرجال لينتصر على أخيه الذي استلبه

العرش بعد وفاة والده راميرو الثاني. وكان الطبيب ملمًا بلغة الشمال، وهو الطبيب اليهودي حسداي بن شيروط. واستطاع الطبيب شفاء سانشو، وأقام عبد الرحمن الناصر علاقات ودية مع أوتو الكبير ملك الفرنجة وإمبراطور الدولة الجرمانية المقدسة، بعد الغارات التي شنها الأندلسيون على سواحل بلاده الجنوبية وقد تبادل الطرفان الهدايا، وأتاحت العلاقات لهما التعرف على ما وصلت إليه حضارتهما لاسيما الحضارة العربية.

وفي زمن المنصور العامري ظلت العلاقات ودية مع الدول والقوى الإفرنجية وبيزنطة، كذلك ظلت العلاقات مع أوتو الكبير قائمة ومع ملك إيطاليا، وقد تبودلت الهدايا بين الطرفين كما هو معتاد في ذلك الزمن.

ومما تجدر الإشارة إليه أن المنصور تزوج ابنة ملك نبرة الإفرنجي، بعد أن أسلمت وتسمت باسم عيده وأنجبت له الأولاد.

وعلى الرغم من استمرار العداوة بين الدولة العربية في الأندلس، إلا أن العلاقات الاجتماعية بلغت ذروتها بين العرب وأهل البلاد الأصليين الذين ظلوا في ظل الحكم العربي، كما كانت هناك علاقات اجتماعية قوية بين العرب والبربر من جهة، وبين أهل البلاد الذين كانوا في ظل ملوك قشتالة وليون وغيرها. وقد بلغت حدًا تمكن فيه العرب من الاندماج معهم بالزواج من بناتهم. وكان حصيلة هذا التزاوج بروز طبقة من الشعب الأندلسي عرفت بطبقة المولدين. أي من كان آباؤهم عربًا أو بربرًا وأمهاتهم أسبانيات.

والواقع أن الأوروبيين آنذاك كانوا غارقين بالجهل وبالنظم السياسية المتخلفة، بينما بلغت الحضارة الأندلسية أعلى درجات القوة. ومن الطبيعي أن هذه الحضارة الأقوى، تؤثر في الأضعف، وهكذا كان حال الوضع بين أوروبا ودولة العرب في الأندلس.

لقد بدأت العلاقات بين العرب وغيرهم بفتح الطريق لنقل ما توصلوا إليه من علوم وفنون وعمران إلى الأوروبيين. وسنرى أثر ذلك واضحًا في كافة المجالات، إلا أن استفادة الأوروبيين من الحضارة العربية الأندلسية لم تقتصر على العلاقات الرسمية، أو حتى العلاقات الشعبية، إنما كان الأوروبيون أنفسهم في شغف دائم لنقل أسس الحضارة الأندلسية بعلومها وفنونها. ولذلك عملوا بشكل مباشر وغير مباشر على حمل هذه الحضارة في عقولهم ووجدانهم، وحتى بين شعوبهم ودولهم، ولعل بعض السفارات بين الدولة الأموية وبين بعض القوى اكتسبت أهمية حضارية لما كانت تحمله معها من هدايا تدل على ما وصلت إليه الحضارة آنذاك.

ففي سنة ٣٥٦هـ/٩٦٠م، وفد إلى قرطبة سفارة ملك برشلونة، وملك طركونة، وطلبت هذه السفارة من الحكم المستنصر تجديد الصلح وإقرارها على ما كانت عليه من علاقات. وكانت هذه السفارة تضم هدية للحكم مؤلفة من عشرين صبيًا من الصقالبة، وعشرين قنطارًا من فراء السمور، وخمسة قناطير من القصدير،وعشرة دروع صقلبية، ومائتي سيف فرنجية. فتقبّل الحكم الهدية ثم وافق على التماسها شرط هدم الحصون التي تضر بالمسلمين، وشرط عدم التعاون مع الملوك المسيحيين ضد المسلمين، وفي عهد عبد الملك بن منصور، طلبت إليه الممالك المسيحية التوسط بينها، فتوسط بين قشتالة وجيلقية بواسطة مبعوثه الخاص النصراني أصبغ بن عبد الله بن نيل. ولما تولى رودريجو دياز أو لذريق النصراني كما سماه ابن علقمة قيادة جيش ألفونسو السادس والسياسة العليا في البلاد، تمت المراسلات بين ألفونسو والمعتمد بن عباد ملك أشبيلية بواسطته. ولما طرد رودريجو دياز من قشتالة، أقام علاقات جيدة مع المدن الإسلامية، وحارب إلى جانب أمرائها وملوكها مثل ملك سرقسطة [1].

وفي طليطلة استقبل الملك المأمون يحيى بن إسماعيل ذي النون ملك طليطلة، ألفونسو السادس ملك قشتالة بعد خلافات وحروب – مع أخيه – سانشو. وقد استقبله بالتكريم وأعطاه بيتًا في القصر الملكي، بعيدًا عن الحي المأهول بالسكان المسلمين.

وقد تبادل الملوك الأندلسيون رسائل الود مع ملوك أوروبة حتى أن الخليفة الموحدي المرتضى بعث برسالة إلى البابا أنوصان الرابع.

وهناك رسائل صداقة ومعاهدات سلام عديدة عقدت بين المسلمين والمسيحيين، ومنها معاهدة بين السلطان إسماعيل وملك أراغون الدون خيم الاي تنص على عقد صلح بين الجهتين لمدة خمس سنين. ونصت على التبادل التجاري بين الطرفين، وتأمين السفن المتبادلة من الأعداء وفك أسرى الطرفين. وظلت العلاقات مع ملك أراغون مستمرة في عهد أولاد السلطان إسماعيل. محمد الرابع الذي واصل علاقاته الودية مع ابن ملك أراغون بعد موت أبيه [2].

---

(١) أحمد مختار العبادي. في تاريخ المغرب والأندلس، ص٤٥٦، نقلاً عن كتاب العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، للدكتور حسان حلاق، ص٨.

(٢) د، محمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمال إفريقية، ص٤٦٧، نقلاً عن كتاب العلاقات الحضارية التي سبق ذكره، ص٧٤.

وقد لحق التبادل الدبلوماسي بين الأندلس وغيرها من القوى تبادل حضاري قوي، خاصة عندما غدت قرطبة أهم الحواضر في العالم.

فقد انتشر حول المدينة آلاف القرى نتيجة الرخاء والتطور الاقتصادي، وفي عهد الأمير عبد الرحمن الثالث أصبحت قرطبة أكبر مدينة في أوروبا كلها. وكان الحكم الثاني المشهور برعايته للعلماء قد حرص على رعاية التمازج الثقافي والتبادل الحضاري بين المسلمين والمسيحيين.

ففي فترة ولايته للعهد ألّف الأسقف جودمار الجيروني كتابًا بالعربية عن تاريخ الفرنجة، كما ألّف أسقف قرطبة ربيع بن سعيد كتابًا عن العلوم الطبيعية في العربية. وقد اختار عبد الرحمن الثالث الأسقف ربيع مندوبًا عنه سنة ٩٥٥م، للقيصر أوتو الأكبر.

ومن حكام الأندلس الذين اهتموا بالتبادل الحضاري بين الشرق والغرب، وبين المسيحية والإسلام، المظفر ملك بطليوس الذي أخرج مائة مجلة نحوية، تحوي كل علوم عصره. و عصر المقتدر ملك سرقسطة.

وكذلك طليطلة فقد كانت مزيجاً من التراث الشرقي والغربي والإسلامي المسيحي. وقد ازدهرت هذه المدينة بسبب التبادل التجاري والحضاري. ويذكر المقري وصفًا كاملاً لقصور طليطلة، وما حوته من خبرات هندسية ذكرها بروفنسان، فقال بأن قصر المأمون مثل في نظر الأندلسيين وجيرانهم المسيحيين غاية في الرشاقة والترف، وقد تأثروا به كثيرًا. ويقول بأن المسلمين والمسيحيين واليهود عاشوا فيها متآخين. وكان ألفونسو السادس الذي احتل طليطلة فيما بعد، متأثرًا ببعض العادات والتقاليد الإسلامية، كما تزيًا بزي المسلمين، ورفض بعض النصائح بلبس زي الإفرنج الذين كانوا يحكمون قبل المسلمين. وعلى الرغم من احتلال هذه المدينة ظل المسلمون فيها وأقاموا علاقات طيبة مع المسيحيين. بل استطاعوا بتأثيرهم أن يُبقي ألفونسو السادس النقوش العربية الإسلامية على العملة المتداولة. وكان في طليطلة دار للترجمة، وقد عملت على ترجمة العلوم العربية إلى الإسبانية، وخاصة كتب ابن رشد وكان ميخائيل سكوت أحد علماء هذه الدار أو المدرسة. وهو أول من نقل كتب ابن رشد من العربية إلى اللاتينية، ومهّد بهذا الطريق أمام الفلسفة الإسلامية للعبور إلى الفكر الأوروبي والتأثير فيه. ومن أكثر من تأثر بآراء ابن رشد القديس توما الأكويني الذي استفاد منها، وتتلمذ عليها ثم انقلب أخيرًا ضدهما. وبعد مدة أصبحت جامعة باريس أكبر جامعة تستفيد من فلسفة ابن رشد.

وقد ازدادت حركة الترجمة من العربية إلى الاسبانية مع ازدياد التوسع الإسباني على حساب ملوك الطوائف. وعنيت بالدرجة الأولى بترجمة مؤلفات الطب والفلسفة والرياضيات. كما استتبع ذلك ترجمة القرآن الكريم، وترجمة سيرة الرسول محمد ﷺ، بالإضافة إلى تأليف المعاجم العربية اللاتينية. وذلك لفهم اللغة العربية، وتاريخ العرب والإسلام. والحقيقة فقد تطوّرت حركة الترجمة في طليطلة بصورة واضحة في عهد الملك ألفونسو العاشر الملقب بالعالم، في القرن الثالث عشر، فاستعان لتحقيق النهضة العلمية بعدد كبير من العلماء المسلمين والمستعمرين واليهود، وقد انتهت هذه الترجمات بقالب لاتيني ومن ثم قشتالي (١).

وقد ظلت طليطلة بعد سقوطها بأيدي المسيحيين عام ١٠٨٥م، مركزًا علميًا هامًا. وقد تدفق طلاب العلوم من غربي أوروبا إليها وإلى المدن الأسبانية لتعلم العلوم والدراسات الإسلامية. ونشطت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية، واستمرت ناشطة حتى القرن الخامس عشر. وقد ترجم عن العربية الكثير من مؤلفات اليونانيين المعربة مثل كتاب جالينوس وأبو قراط وأفلاطون وأرسطو وسواهم (٢).

وقد ساعد على الترجمة ونقل العلوم والمعارف العربية إلى اللاتينية، تشجيع بعض الحكام الأسبان الذين اهتموا بها واستفادوا منها، وشجعوا على نقلها ومن هؤلاء ألفونسو الخامس ملك قشتالة وليون.

وقد استمرت المؤثرات العربية الإسلامية في أسبانيا بعد خروج العرب من الأندلس. فبعد تحويل المساجد إلى كنائس، بنيت كنائس جديدة تقليدًا للفن المعماري الأندلسي، وظهر تأثير العرب في نقش الكتابات على جدران المباني العامة وكتابة الخطوط ووضعها على الأبواب. وقد استعان بعض ملوك الأسبان بالبنائين العرب لعمارة قصورهم وهناك الكثير من المهندسين الإيطاليين الذين زاروا أسبانيا، وتأثروا بالفن المعماري الإسلامي فنقلوا مؤثراته وملامحه إلى إيطاليا، رغم تطور فن البناء الإيطالي، وقد كان للتجار أثرهم البالغ في نقل معالم الحضارة العربية الأندلسية إلى بقية دول أوروبا عدا إيطاليا.

وقد كان للعرب والمسلمين الدور البارز في التبادل الحضاري مع حكام صقلية. وقد شكل العرب المسلمون نسبة كبيرة من عدد السكان.

---

(١) شكيب أرسلان: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، ج١، ص٣٦٦.

(٢) د. محمد ماهر حمادة: العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في القرون الوسطى، ص٩٧.

فالملك روجر الذي حكم صقلية فترة طويلة من الزمن أخذ عن العرب والمسلمين النظم التي اعتمدها، كما أخذ عنهم أساليبهم في إدارة البلاد. وفي الدواوين والنظم المالية والضرائبية والوظيفية، كما أخذ عنهم حصر الأملاك العامة وإدارتها، وبالتالي فقد تأثر روجر الأول بالتنظيمات العربية العسكرية، فاقتبس الأنظمة الخاصة بالجيوش البرية والبحرية وطبقها على قواته، وأدخلها النظام العسكري في صقلية. ومن الملاحظ أيضًا أن روجر الأول حرص على بناء القصور والمظاهر العمرانية على الطراز العربي، فقد شيد القصور والحمامات قرب القصر الملكي في العاصمة بالرمو، وهي تعتبر من أقدم الآثار الإسلامية التي ما زالت قائمة في صقلية إلى اليوم، والملاحظ أن زخارف هذه القصور والحمامات وطرازها المعماري لا يختلف كثيرًا عن الطراز والبناء المعماري في الأندلس. وترى بعض المصادر أن صقلية أيام روجر الأول كانت مملكة نصف إسلامية في دينها ونظامها الإداري والعسكري [1].

وفي عهد روجر الثاني أصبح التبادل الحضاري في صقلية في أوجه حيث تلقب روجر بلقب إسلامي فسمى نفسه المعتز بالله. وضرب نقودًا باللغة العربية إضافة للاتينية واليونانية، كما أصدر قراراته باللغات العربية واللاتينية واليونانية وقد اتخذ ديوانًا عربيًا. وقد وقع على المعاملات الرسمية الصادرة عن هذا الديوان بعلامة عربية إسلامية مستوحاة من القرآن الكريم. وهي الحمد لله حق حمده الحمد لله وشكرًا لأنعمه ناصر النصرانية. وقد حاكى روجر الثاني الملوك العرب في زيّهم فلبس العباءة الأندلسية الموشاة بالكتابة الكوفية. وقد أقام مصنعًا للطراز والنقوش، كانت تصدر عنه مطرزات عليها النقوش العربية والتاريخ الهجري، أما المباني التي بناها فهي أقرب إلى الفن المعماري العربي الأندلسي. كما أن أسلوب حياته في بلاطه كان أسلوبًا شرقيًا لا غربيًا. فقد كان بلاطًا سلطانيًا فيه الحريم والقيان. ويرى المستشرق أماري بأن روجر الثاني سلطان معمد وهو، كما قيل سلطان عربي يحمل تاجًا كملوك الإفرنج [2].

وقد حرص على الاهتمام بالآداب والعلوم والفنون العربية. وكان طبيب البلاط طبيبًا عربيًا. ونظرًا لإعجابه بالطب العربي وأسلوب الأطباء العرب، فقد أقر أساليب طبية عربية سائدة في صقلية قبل عهده. وقد أصدر قانونًا يقضي بإجراء امتحان للأطباء قبل إعطائهم (الإجازة) متبعًا أسلوب المسلمين. ومن الأثر العربي لديه أنه قرب المنجمين لأنه

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص١٨٣.

(٢) د. مارتينو ماريو مورينو: عن العرب في صقلية، للدكتور إحسان عباس، ص١٤٥.

يؤمن بالتنجيم. ومن المنجمين القربين إليه محمد بن عيسى بن عبد المؤمن الذي ربط بين التنجيم والفلك والهندسة باعتباره كان مهندسًا أو عالمًا هندسيًا [1].

هـذا ومـن مظاهر ثقته بالعلماء العرب والمسلمين، وتقريبهم إليه دعوته للعالم الجغرافي الأندلسـي الشـريف الإدريسـي لـلمجيء إلى بلاطـه للإطـلاع مـنه عـلى جغرافـية مملكته والعـالم، وقـد طلب منه تأليف كتاب عن جغرافية العالم. وقد قضى الإدريسي في عاصمة صـقلية خمسـة عشـر عامًـا منكـبًا عـلى إعـداد مـا طلـب منه، وقدم لروجر خريطة تفوق خـريطة بطلـيموس الشـهيرة في دقـتها ووضـوحها وقلـة أخطائهـا. وقـد ألّف كتابه نزهة المشـتاق في اخـتراق الآفـاق. وهـو يضـم تفصيلات لمعلومات عديدة عن تلك الخريطة وعن مخـتلف المـناطق. وقـد اهـتم المستشـرقون بهـذا الكـتاب الهـام فعملـوا على نشر أجزائه وترجمـتها إلى عدة لغات. وترجم العالم الهولندي دوزي القسم الخاص بالمغرب والسودان ومصر والأندلس من العربية إلى الفرنسية.

لقـد أصـبحت صقلية في عهد روجر الثاني معبدًا للحضارة العربية، وخاصة الأندلسية عـلى أوروبـا، وقـد تـبع ولـيام الأول ابـن روجـر الثاني سياسة أبيه في تقريب المسلمين، والامـتزاج الحضـاري، وسمـى نفسـه باسـم إسـلامي (الهـادي بأمـر الله)، وقـد اسـتعان بالإدريسي كوالده الذي وضع له مصنفًا في الجغرافيا على غرار ما فعل لأبيه.

وقـد اسـتمر الـنورمان في الأخذ من الحضارة العربية الإسلامية نظرًا لتطورها وتقدمها. وتظهـر الآثار العربية واضحة في قصر العزيزة في بالرمو العاصمة، كما تظهر الآثار في بناء الكاتدرائية جغلوذي. وكنيسة القصر الملكي أقبية كاتدرائية بالرمو.

ويشـبه قصـر القبة في بالرمو قصرًا من قصور بني حماد، كما أن الكنيسة الملكية تشبه إلى حـدٍ بعـيد قصـر قرطـبة وجامعهـا. وهناك آثار معمارية عربية كثيرة تظهر واضحة في البـناء الصقليّ، ومنها قصر الغوارة في بلرم الذي يعود بناؤه إلى عصر الكلبيين. وقد وصل أثـر البـناء والهندسـة الإسـلامية إلى أضرحة النورمان الغربيين. وهناك العديد من الأمثلة حول المؤثرات الإسلامية في الهندسة النورماندية [2].

---

(١) د. عزيز أحمد: نقلاً عن الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص٨٩.

(٢) د. حسان حلاق: العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في القرون الوسطى، ص١٣٢.

وعندما تسلم فريدريك الثاني عشر صقلية، اضطهد المسلمين وشتتهم، ولكنه رغم ذلك كـان شغوفًا باللغـة العربـية مـنذ صـغره، وكان للتراث العربي الأندلسي أثره الواضح في تكويـن شخصـيته. فقد أمر بترجمة المؤلفات العربية العلمية والأدبية، وأقام صلات ودية مع ملوك الشام ومصر. وقد علّمَ أولاده الشعر الأندلسي. فعرفوه حق المعرفة، وألّفوا الشعر المـتأثر بـه، حـتى برز في صقلية وجنوب إيطاليا شعر كلاسيكي متأثر بالشعر العربي، لم تشهده إيطاليا من قبل.

وفي عهـد فـريدريك الثاني استمرت مؤثرات الهندسة الأندلسية في البناء الصقلي. فقد بـنى قصـوره وأعـاد ترميم ما تـهدم على النمط العربي، وتبين أن القلاع التي بناها تُشابه تمامًـا القلاع الأندلسية العربية. وظهر الأثر العربي أيضًا في نوع الأقبية والأعمدة وخامات البـناء والـنقوش الـتي وجـدت في أبنـية صـقلية وظهـرت أسماء العمال والفنيين والتعابير العربية منقوشة في تلك الأبنية، وقد استفاد فريدريك الثاني من الأنظمة الإدارية العربية، فاقتبس قواعد الحكم والإدارة والأنظمة المالية والضرائبية العربية. والواقع أن هذه الأنظمة انتقلـت حضـاريًا إلى جمـيع أرجـاء أوروبا، وليس إلى إيطاليا فحسب. وقد تسلم عدد من العرب المناصب الإدارية في صقلية. كمنصب جامع المالية والضرائب. وقد ترجمت في زمن فريدريك الثاني بعض الكتب العربية العلمية.

وتـولى عـرش صقلية (منفرد) ويروى أنه كان شاعرًا وراعيًا ومنشدًا للتروبادور الجوالين المتأثرين بالتراث الغنائي والموسيقى العربية.

وقـد أقيم في بالرمو أو بالرم كما يسميها العرب مدرسة للترجمة كما ذكرنا سابقًا، وقد ترجمـت فـيها كتـب ابـن سينا المتوفي عام ١٠٣٧م، وأبي بكر الرازي ٩٣٢م، في الطب، وكـان مـن أعـلام الترجمـة فـيها أوجيـنوس الـبالرمي وليوناردو بينرانو. ولعل من مظاهر النهضـة العلمـية في صـقلية عامـة، وبالـرمو خاصة، تلك الآلاف من المخطوطات العربية القديمة التي ما تزال محفوظة إلى الآن في مكتبة الفاتيكان بروما.

والواقـع أن بالـرمو مـا تزال إلى اليوم تتمتع بروح عربية إسلامية في كثير من مظاهرها العمرانية والاجتماعية والثقافية.

لقـد نقـل النورمانديون عناصر الثقافة الإسلامية إلى إيطاليا وأوروبا. ومنذ القرن العاشر ظهـرت آثار العلوم العربية في حياة أوروبا، إثر تسرب الفن والأدب والعلوم الإسلامية إلى مدن ودول أوروبا.

استخدم الأوروبيون أسلوب بناء الأبراج للكنائس المسيحية، بعد أن أخذوه عن المآذن الإسلامية. كما كان معمل الحياكة الذي أسسه المسلمون في بالرمو في صقلية مصدر ملابس ملوك أوروبا. وكانت هذه الملابس تزدان بالكتابات العربية. وفي القرن الثالث عشر انتشرت صناعة الحرير على النمط العربي في مدن إيطاليا. وأصبح الطلب على هذه المنسوجات عظيمًا، بل أصبحت هذه الملابس موضة العصر في أوروبا [1].

وفي القرن الخامس عشر تعلم الأوروبيون ولا سيما البندقية أسلوب تجليد الكتب عن المسلمين وتعلموا زخرفة جلود الكتب.

وبعد أن سقطت الأندلس، وخرج العرب منها، لم يتردد ملوك أسبانيا من الاغتراف من الحضارة الإسلامية. فاستعانوا بالعلماء المسلمين لإصلاح أحوال البلاد الثقافية والفنية، وحتى الإدارية. وقد استقدم مطران طليطلة المونسيز ريمود ١١٥١م، العلماء إلى مدينته وأنشأ فيها ديوان الترجمة من التراث العربي الإسلامي، وأدخل دراسة الترجمات في مناهج المدارس المسيحية، وترجمت مؤلفات ابن سينا والفارابي والغزالي والخوارزمي على يد دمنجو جونساليه. وقد شهدت قطلونيا نهضة علمية مرموقة اعتمدت على حركة الترجمة، ونقل المعارف الإسلامية، وكان من بين المترجمين يوحنا الأشبيلي، وجيرارد الكريموني الذي ترجم الكتب العربية إلى اللاتينية في الفلسفة والمنطق والرياضة والميكانيكا والطب وهكذا تسلل العلم الإسلامي إلى أوروبا، وكان هذا اللقاح العربي الإسلامي الذي قدمه المترجمون، بدْأً من القرن الثاني وحتى القرن الثالث عشر إخصابًا لثقافة أوروبا الضحلة المتخلفة، وكانت حركة الترجمة أكثر تغلغلاً وأشد قوة، ذلك أن الأندلس أنشأت حضارة زاهية لا تقل عن حضارة إخوانهم في الشرق، فكانت السراج المنير وسط الظلمة الداكنة. وقد ساعد في انتقال العلوم الإسلامية التسامح الديني الذي عُرف به خلفاء الأندلس، وقد ذكرنا ذلك فيما سبق. فامتد أثره إلى العلماء المسيحيين الذين أقبلوا من أنحاء أوروبا لتلقي العلوم في جوار الإسلام والأندلسيين.

لقد اشتهر كثير من المترجمين الأوروبيين في نقل حضارة المسلمين الأندلسية لاسيما ليوناردو بيزانو. وأرنالدوس فيلانوفانوس. وريموندلول. وغيرهم.

---

(١) د. حكمت عبد الكريم فريحات وإبراهيم ياسين الخطيب: مدخل إلى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص١٦٥.

وحين نستعرض الأثر العربي العلمي الأندلسي في أوروبا وحضارتنا، تستوقفنا العلوم التالية:

أ- **الفَلَكْ:** أخذ الأوروبيون الكثير من المؤلفات العربية الفلكية. فقد ترجم العالم الإنجليزي ادلارد اف بات. الذي زار أسبانيا وصقلية الجداول الفلكية التي وضعها المجريطي، عن زيجات الخوارزمي إلى اللاتينية سنة ١٢٢٦م، وترجم خوان الأشبيلي كتب الفرغاني والبلخي.

وقد استخدم الأوروبيون كثيرًا من المصطلحات والألفاظ الفلكية وما زالت تنطق بأصلها العربي ومن ذلك:

١- العقرب	Acrap	٤- الجدي	Algodi
٢- الذنب	Deneb	٥- الطائر	Atair
٣- النصير	Nasir	٦- السمت	Azemuth

وفي علم طبقات الأرض يعتبر ما كتبه ابن سينا في كيفية تكوين الجبال والأحجار والمواد المعدنية، وما إلى ذلك، من أهم المراجع التي اعتمدت عليها أوروبا إبان نهضتها العلمية وهذه العلوم بدورها ترجمت عن طريق الأندلس.

ب- **الجغرافيا والرحلات:** وما تزال بعض المؤلفات العربية المصدر الرئيسي للمعلومات الجغرافية عن كثير من جهات العالم. ومن هذه المراجع وصف الهند للبيروني، ورحلة ابن بطوطة الأندلسي، ومعجم البلدان لياقوت الحموي ومروج الذهب للمسعودي، وكان الإدريسي من أهم الجغرافيين الذين نقلوا علم الجغرافيا العربية إلى الأوروبيين عن طريق صقلية.

وقد كان للعرب فضل كبير في ميدان الكشف الجغرافي، فهم الذين اكتشفوا أسرار الملاحة في المحيط الهندي، وجزر الهند الشرقية، وشواطئ الصين. وكان وصول البرتغاليين إلى الهند يعتمد على ما قدمه ابن ماجة من معلومات للغرب، بل إنه أرشد فاسكو دي غاما إلى طريق الهند.

ويعتقد أن العرب قاموا بمحاولات عبور المحيط الأطلسي إلى أمريكا. ولا شك في أن عرب الأندلس كان لهم فضل إرشاد البرتغاليين لكشف رأس الرجاء الصالح. كما أن

البوصلة التي عرفها العرب انتقل استخدامها إلى الأوروبيين واستفادوا منها في قيادة السفن عبر البحار أثناء الاكتشافات الجغرافية.

ولابد أن نشير إلى أن فن الملاحة العربي قد أثر على أوروبا تأثيرًا بالغًا وقد وضح باقتباس الأوروبيين المصطلحات التي ما زال يستخدم الغرب بعضاً منها حتى الآن:

١- أمير البحر Admiral

٢- دار الصناعة Arsenal

٣- حبل Cable

جـ- الفلسفة: ذكرنا فيما سبق كيف ترجمت كتب الفلاسفة العرب إلى اللاتينية، وكيف كان للعرب الأندلسيين نقل الفلسفة اليونانية من العربية إلى اللاتينية. والواقع أن كتب الغزالي ترجمت إلى اللاتينية سواء في الإلهيات أو في المنطق، وكان أثر ابن رشد هائلاً. وقد تحدثنا عن ذلك سابقًا والحقيقة أن شروح ابن رشد لفلسفة أرسطو ظلت تدرس في أوروبا مدة طويلة. واعتقد بعض الأوروبيين أن الغزالي قدم الفلسفة على الأديان. فصار رمز الحركة الفكرية والثورات على الكنيسة في أوروبا. ولكنه كان في الواقع يريد التوفيق بين الفلسفة والدين.

د- أما الرياضيات: فقد ترجم أدلاراداف بات كتاب الحساب للخوارزمي، في حين ترجم الإيطالي جيراردو دي كريمونا كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي، وظل هذا الكتاب المرجع الرئيسي في الرياضيات بجامعات أوروبا حتى القرن السادس عشر. وقد نقلت مؤلفات الخوارزمي عن طريق علماء الأندلس.

ولا زالت بعض المصطلحات الرياضية تحمل اللفظ العربي حتى اليوم مثل الجبرة Algebra وصفر Zero.

و- أما الكيمياء: فقد استفاد الأوروبيون من نظريات العرب وخبراتهم وتجاربهم في الكيمياء، ذلك أن العرب هم أول من وضع الأسس العلمية للكيمياء، المبنية على التجارب، وكان لجابر بن حيان اليد الطولي في نشأة علم الكيمياء وقد ترجم الأوروبيون كل كتب الكيمياء العربية إلى اللاتينية عن طريق الأندلس، وغيرها. وجابر بن حيان هو الذي نظم كثيرًا من طرق البحث والتحليل وركّب عددًا من المواد الكيماوية.

وكانت أبحاثه هي المراجع الأوّلى في أوروبا حتى القرن الثامن عشر. واقتبس الأوروبيون كثيرًا من المصطلحات الكيماوية العربية منها:

الكافور	Camphor
القلاي	Alkali
الأنبيق	Alempic
الكحول	Alchol
التوتية	Tutry
الاتمد	Antimany

هـ- **أما الفيزياء:** فقد نقل الأوروبيون عن العرب كثيرًا من بحوث الطبيعيات فقد نقل روجر بيكون إلى الغرب الأوروبي دراسات ابن الهيثم ونظرياته في علم الضوء والبصريات. إذ قام العالم العربي بتجارب على المرايا الكروية والمثلثة، وكانت أساسًا لاختراع نظارات العيون. وترجم العالم الأوروبي كبلر أبحاث ابن الهيثم الفلكية، وترجم جيراردو دي كريمونا كتاب المناظر لابن الهيثم، وأصبح هذا الكتاب المصدر الرئيسي في علم الضوء عند الأوروبيين عدة قرون. كما أن روجر بيكون اعتمد على رسالة الكندي في دراسة البصريات، وقال إن الجسم المرئي هو الذي ينفذ إلى العين مارًا خلال الفتحة الشفافة (العدسة)، وقد اعترف بأثره بيكون ودافنشي وكيبلز.

ز- **أما الطب:** فقد تأثرت الدراسات الطبية الأوروبية إلى حدٍ بعيد بالدراسات العربية. فقد كان كتاب الحاوي للرازي المرجع الوحيد الذي اعترف به في جامعات أوروبا. وقد ترجم جيراردو كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي الأندلسي، والجزء الأخير خاص بالجراحة الطبية، وكتاب القانون لابن سينا. وترجم الطبيب الصقلي أبو فرج اليهودي كتاب الحاوي في علم التداوي للرازي. وقد بقي كتاب الزهراوي في الجراحة يُستخدم بجامعة اكسفورد حتى القرن الثامن عشر. وأخذ الأوروبيون الكثير من وصفات كتب ابن البيطار الأندلسي في الصيدلة، واستخدم الأوروبيون كثيرًا من التعابير العربية مثل الشراب Syrup.

الثقافة الأندلسية وتأثيرها في أسبانيا وأوروبا

لقد أتينا على بعض التأثيرات العربية الأندلسية في الغرب، وتحدثنا عن استفادة أوروبا من العلوم العربية كالطب والكيمياء والفيزياء والرياضيات والفلسفة، وهنا لابد لنا من التوقف طويلاً أمام تاثير الثقافة العربية الأندلسية في أسبانيا وأوروبا، لنرى مدى ما أحدثته هذه الثقافة في حياة الأوروبيين.

وفي هذا الإطار لابد من الحديث عن الأزجال والموشحات الأندلسية، والقصة العربية، والملحمة العربية. واللغة العربية نفسها.

والواقع أن مدينة قرطبة أولاً وباقي المدن العربية الأندلسية ثانيًا، أصبحت مهوى أفئدة الأسبان القوط. فقد أحست هذه المدينة بتفوقها من حيث الثقافة على سائر الثقافات في الولايات المسيحية بأسبانيا. وقد فرضت ثقافتها على قشتالة في عهد فرناند جنثالث، ونافارة في عهد سانشو البدين. وتغلغلت التأثيرات الإسلامية في كيان أسبانيا، تغلغلاً عميقًا بحيث تجلّت مظاهرها في الحياة العامة والتقاليد واللغة والآداب والفنون. ولم يكن لسقوط الخلافة بقرطبة وتفتيت الوحدة السياسية للإسلام في الأندلس، بقيام دول ملوك الطوائف — أدنى أثر في إعاقة هذا السيل من التأثيرات، بل إنه على العكس من ذلك فقد أعان على تقويتها.

وقد كان الظن أن تُمحى الآثار العميقة التي تركتها الحضارة الإسلامية في أسبانيا بزوال سلطان الإسلام السياسي، وسقوط مدنه الكبرى، ولكننا نشهد نقيض ذلك، إذ تألفت في هذه المدن مراكز ثقافية إسلامية قوامها العناصر المحلية المدجنة، أو المسلمون الذين خضعوا للأسبان بعد سقوط مدنهم في أيديهم – وكانت طليطلة أولى المدن الإسلامية الكبرى التي سقطت في أيدي القشتاليين أهم مراكز المدجنين. وقد ظل القشتاليون منذ انتزاعهم لها من أيدي المسلمين، حتى القرن الثالث عشر الميلادي يستخدمون اللغة العربية في معاملاتهم التجارية ووصاياهم ومنحهم، أو كانوا يستخدمون أسماء عربية ولاتينية في آن واحد [1].

وكانت طليطلة على هذا النحو نقطة الالتقاء بين الحضارة الإسلامية في الأندلس والحضارة المسيحية التي حملها الأسبان معهم من شمال أسبانيا. فمن طليطلة انتشرت العلوم في القرن الثاني عشر، تلك التي تلقاها الأسبان باللغة العربية إلى أنحاء أوروبا عن طريق الكتب التي قام بترجمتها أسبان وافدون. وظلت طليطلة مركزًا للثقافة الأسبانية في عهد ألفونسو الحكيم الذي وضع العلوم والثقافات العربية وبخاصة الفلسفة والمنطق والطب والكيمياء والفلك في متناول أيدي علماء العالم الأوروبي، وأحاط نفسه بكبار العلماء من المسلمين واليهود.

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، ص٣٠٦.

يقول الكاتب الفرنسي روبير بريغو: "بينما بدأت قصص الفروسية الأجنبية المثيرة للمشاعر تلوح في أوروبا خلال القرون الوسطى، وأخذت الأساطير السلتية الملهبة للخيال تستنشق أولى أنفاسها، ازدهر في جنوب فرنسا شكل أدبي أجنبي هو ايضًا عن الأدب الأوروبي التقليدي. وهبت في كل مكان نفحات إلهام غنائي جديد، فنقلت الخصب إلى اللغات المحلية العامية التي كانت وقتذاك في بدء تكوّنها، وانتشرت في إقليم بروفانس أشعار عاطفية ذات معانٍ مُنتقاة، وصياغة مدروسة متقنة، فتجاوبت مع الحالة الفكرية لمجتمع إقطاعي بدأ ينشدُ متعة فراغ مُزدان بالظرف والبهجة، بعدما استشف أبهة الشرقيين في أسبانيا. وتأثر بسموّ مشاعرهم وفطن عندئذ لخشونة البربرية. وقد أمدّت هذه المنظومات العاطفية الغنائية شعراء الشبيبة بنماذج أدبية. تردد صداها في شعر ذلك العصر. وأغاني المُنشدين المُتجولين في الشمال، وهي التي انبعثت بعد حين لآلاء ذلك الشعر الإيطالي الذي أيقظ دويّه أوروبا بأسرها وبعث حتى في ألمانيا بشائر تقليد أدبي جديد" (1).

والواقع أن أوروبا بأسرها كانت تعيش قبل هبوب هذا التيار في ظل النظام الإقطاعي مقسمة إلى مقاطعات شاسعة يحكمها أمراؤها حكمًا استبداديًا مطلقًا غير مرتبطين بحكوماتهم المركزية إلا برابطة اسمية. وكانت تحكمهم حروب داخلية دائمة ويحاول كل أمير إقطاعي أن يحسن وضع إمارته على حساب ما جاوره من إمارات، ولذلك قصروا في تذوق الأدب والفن المرتبط بالمشاعر، لغلبة القسوة والخشونة على حياتهم. في ذلك تخطي عرب الأندلس جبال البرانس وأغاروا على جنوب فرنسا وتوغلوا في مقاطعات بروفانس، وخالطوا أهلها، واستمرت إقامتهم بها أكثر من قرنين. ولم تكن بروفانس، وهي وطن الشعراء التروبادور جزءًا من أسبانيا، وظل أمراؤها يناضلون منذ القرن التاسع لينفصلوا عن السيادة الاسمية الفرنسية. وقد اعتاد العرب وأمراء البروفانس أن يتزاوروا ويصحب كل منهم شعراءه ومنشديه. وكثر بينهم الاختلاط والتزاوج.

وقد امتد تأثير الثقافة العربية الأندلسية إلى جنوب إيطاليا عن طريق صقلية أيضًا. وقد تحدث المستشرق الإيطالي (جبريلي) عن احتلال العرب لجزيرة صقلية فقال: "إن أهميته لم تبلغ أهمية احتلالهم للأندلس نظرًا إلى قِصَر المدة التي تبلغ زهاء قرنٍ من

(1) مفيد الشوباشي: رحلة الأدب العربي إلى أوروبا، ص١٠٧.

الـزمان، ولكن له مع ذلك أهمية خاصة في نظر الإيطاليين، لأنه يمسهم مباشرة، ومجمل القول أن الحضـارة العربـية الإسـلامية ظلت سائدة في صقلية بعد جلاء العرب عنها مدة قرن من الزمن، وعرف المحتلون الجدد كيف يقتطفون ثمار التراث الإسلامي، ويستمدون منها ثقافة دولتهم المختلطة" (١).

تأثير الأزجال والموشحات في الشعر الغنائي الأوروبي

يتجـلى أهـم مظاهـر الـتأثيرات الإسـلامية الأسـبانية في الشـعر الشـعبي المـتمثل في الموشحـات والأزجـال. وأصـل هـذا النوع من الشعر يتمثل في الأغنية الشعبية التي كانت شائعة في الأندلس، وأهم عنصر فيها هو الخرجة، وهي بيتان تنتهي بهما الأغنية. وكان الوشاحون يصيغونها في لغة دارجة أو في ألفا رومانسية.

وأول من تنبه إلى وجود تماثل في تركيب الأبيات، وتعاقب القوافي بين الشعر الشعبي الأندلسـي وأغـاني التروبـادور والبروفانسـية في العصـور الوسطى، هو المستشرق الأسباني دون خولـيان ريـبيرا. وعـلى هـذا الأساس أقام نظريته في أن تركيب الشعر الغنائي الذي ابـتدعه أعمـى قـبرة وصـورة ابـن قـزمان. ويزودنا بمفتاح السر الذي يفسر تركيب الصور الشعرية في مختلف النُظم الشعرية الغنائية التي عرفها العالم المتحضر في العصور الوسطى إلا أنـه لم يسـتطع إثـبات نظريـته إثـباتًا أكـيدًا فكـان ذلك مثارًا للجدل بين الباحثين، فذهب فريق إلى تأييدها ودحضها فريق آخر (٢).

وقـد اختلفوا وخـاصة علماء الأسبان في مقدار انتفاعهم بمسلمي الأندلس، حتى أنكرها بعضـهم نكـرانًا تامًـا، وقـالوا إذا أردنا معرفة أصل أي شيء أسباني فلننظره عند اليونان والرومان لا عند العرب. بل قال بعضهم إن حكم المسلمين للأندلس أخَّر تقدم الأسبانيين، ولولا ذلك لنهضوا نهضة فرنسا وإنجلترا وألمانيا وغيرها. فليس من فرق إلا حكم المسلمين لهم والتطاحن الشديد بينهم مدة ثمانية قرون كاملة لا يهدأ لأحدهما بال.

ولكـن مـن حسـن الحـظ أن هذا ليس مذهب الجميع، بل من الأسبانيين من يرى من الحـق أن حكـم المسـلمين للأندلـس حلقـة في سلسـلة تـاريخ الأندلس، وأن المسلمين رقَوا الأندلـس أثـناء حكمهـم في العلـوم والحضارة، حتى إذا قيست أسبانيا بغيرها من الأمم،

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٧.

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، ص٣٠٨.

كانت أرقى منها بل ما لنا ونذهب بعيدًا، وقد قلنا إنه لولا فلسفة المسلمين في الأندلس، وانتشارها في أوروبا لما نهضت أوروبا هذه النهضة بل تأخرت قرونًا، فكيف بأسبانيا إذا لم يكن حكمها المسلمون هذه القرون (١).

أما الفريق الذي ينكر تأثير الشعر الأسباني الشعبي بالأزجال الأندلسية فيمثله العالم البرتغالي (رودريجيس لابا) الذي حاول في كتابه عن أصول الشعر الغنائي في البرتغال إثبات أن التركيبات العروضية كانت معروفة في أوروبا قبل عهد الزجال القرطبي ابن قزمان، وقد ساق لإثبات ذلك أمثلة لأبيات متحدة القافية تتألف من ثلاثة أجزاء وجدها في شعر القرن الثاني عشر اللاتيني.

وهناك فريق وقف موقفًا معتدلاً بين الفريقين، وعلى رأس هذا الفريق عالمان من أجلّ علماء الدراسات البروفسية هما (أبيل) الألماني و(جانروي) الفرنسي ويرأس فريق المؤيدين لنظرية التأثير الأندلسي في الشعر التروبادوري المؤرخ الأسباني الكبير (دون رامون مندث بيدال) الذي شرح نظريته في كتابه الشعر العربي والشعر الأوروبي، ونقض بها حجج خصومه. واستشهد بأمثلة للشعر العربي موجودة في الشعر الجليقي يتضمنها كتاب (الارثبريست دي هيتا) المعروف بكتاب Buen amor. ويعتقد مندث بيدال أن الزجل الأندلسي انتشر في الغرب الأوروبي بالسرعة نفسها التي انتشر بها في الشرق العربي. ويستند في ذلك إلى أول شاعر غنائي معروف كتب بلغة رومانسية هو جيوم التاسع دون أكيتانيا متبعًا في شعره التركيب العروضي للزجل الأندلسي.

وهناك ناحية جديرة بالاهتمام أن الوشّاحين المسلمين في الأندلس والتروبادور في أكيتانيا وبروفنس يتفقون في الموضوعات التي تقوم عليها أغانيهم. فكانت تقوم إما على الحب العذري، وإما على الحب الحسي والمدح. فأزجال ابن قزمان تتماثل في هذا مع بعض أشعار التروبادور (ماركابرو). وفي أغنيات التروبادور والزجالين تتكرر ألفاظ متماثلة كلفظ الرقيب والنمام والحاسد والعاذل، وفيها وصف لما يلقاه العاشق من آلام. ويشترك ابن قزمان مع ماركابرود جوفري روديل في التغني بالمدح. كل هذا يدل على مدى تأثر الشعر الغنائي البروفنسالي بالأزجال والموشحات الأندلسية. ويؤيد ذلك ما يذهب إليه بعض الباحثين من أن كلمة تروبادور مشتقة من الكلمة العربية طرب. أما كيف انتقلت

---

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج٣، ص٣٠٥.

هذه التأثيرات فيعزوه ليفي بروفنساله على أن جيوم التاسع أقدم شعراء التروبادور الفرنسيين كان على اتصال وثيق بأسبانيا المسيحيه. فقد زار أسبانيا وساعد ألفونسو المحارب ملك أراغون في معركة كنده عام ١١٢٠م، وأنه تزوج ابنة راميرو الراهب ملك أراغون وقتل في شنت ياقب عام ١١٣٧م [1].

ولمزيد من التفاصيل حول ذلك نرى مفيد الشوباشي يتحدث في كتابه رحلة الأدب العربي إلى أوروبا، ليؤكد مدى التأثير الأندلسي في الشعر التروبادوري.

يقول: كان إقليم بروفانس الذي أقام فيه العرب لمدة قرنين من الزمان، موطن الشعراء التروبادور، وهم السباقون إلى نظم ذلك الطراز من الشعر الأوروبي المشابه للشعر العربي، وكلمة تروبادور التي يتّصفون بها مشتقة من كلمة طرب العربية التي أُضيفت إليها الأداة الدالة باللاتينية، على اسم الفاعل وهي أدور فصارت طروبادور أي السفراء المطربون، ولا يخفى أن هؤلاء الشعراء يختلفون عن التدثير وهم المنشدون الجوالون.

وأول شاعر بروفانسي تروبادوري سجل التاريخ اسمه هو جيوم التاسع كونت بواتيه، ودوق أكيتانيا. ويعد هذا الدوق أيضًا أول من نظم شعرًا من نوع الشعر الأوروبي الحديث. ويزعم بعض المؤرخين الأوروبيين أنه ابتكر شعره الجديد اللون ابتكارًا، دون أن يتأثر بغيره من الشعراء. ويخالفهم في ذلك مؤرخون متعصبون للأدب اللاتيني، يزعمون أنه استمد شعره من حصين ذلك الأدب ويدعي آخرون أنه استمده من الأغاني الشعبية التي نبتت في باريس ثم انتشرت بعدئذ في سائر أرجاء أوروبا.

وعلينا إزاء التجني على الحقيقة أن نذكر الأدلة التي تقطع بأن هذا الأمير الشاعر إنما تأثر بالشعر العربي الشرقي والأندلسي، واتخذ منها نماذج لشعره.

وفي عام ١٠٨٦م، خلف الكونت جيوم التاسع أباه في حكم مقاطعة بواتييه، ولم يكن قد تجاوز الخامسة عشرة من عمره وفي عام ١٠٩٤م، تزوج فيليبا أرملة ملك أراغون ورحل إلى أسبانيا، وحيث قضى معها صيف ذاك العام وخريفه، وكانت له أخت متزوجة بالأمير بيدرو الأرجوانين وأخت أخرى متزوجة بألفونسو السادس أمير قشتالة، فتردد إلى أسبانيا كلما سنحت له الفرصة لزيارة أختيه وصهريه، وبهرت الفتى المتوقد الحس والشاعري المواج مباهج الحياة الأندلسية وسحر فنونها العربية.

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، ص٣٠٩.

وقد ألم هذا الكونت بالشعر الأندلسي آنذاك. ويثبت أن معظم شعره قد نظمه على نمط الشعر الأندلسي.

وقد لوحظ أن جيوم دي بواتييه احتذى الموشحات الأندلسية دون أدنى تصرف وأن الشاعرين (تركامون) و(مركبدو) نسجا على منواله وهما أشبه السفراء التروبادوريه وأقربهم عهدًا إليه. وقد عقب بريفو على هذه الملاحظة بقوله: "إن منظومات الشعراء التروبادور الأولى تطابق النماذج الأندلسية تمام المطابقة. وقد اتخذتها الأجيال التالية نقطة انطلاق ثم ابتعدت عنها بما أدخلته على شعرها من تنويع في الصياغة" [1].

لقد تعلق جيوم دي بواتييه عقب احتكاكه بالعرب، وتعلم منهم فنونه وحاكى كل ما ترامى إليه من ألوانه. ومن المعروف أن شعره بدأ ينضج في العشرينات من القرن الثاني عشر. وهي المدة التي طالت بها إقامته في الأندلس. وقد سافر إليها عام ١١٥٨م، واشترك في حملة شنها ألفونسو الأول ملك أراغون على العرب، ووصلت جيوشه غربًا إلى غرناطة، وبلغت شرقًا مشارف قرطبة. وعاد بواتييه إلى الأندلس ثانية في عام ١١١٩م، حليفًا للملك ألفونسو. وهناك استفاد من جديد من ثقافة العرب الأندلسية. وقد صادف وجوده هناك رقي حفلات الموسيقى، وجلسات الشعر المختلفة بين العرب والقشتاليين. وكان يحرص على حضور تلك المحافل، فصقل بذلك موهبته الفنية وفجر ينابيع شاعريته، وثبت أقدامه في ميدان الأدب.

وقد ورثت عنه ذريته ميوله الأدبية، فاشتهر ابنه جيوم العاشر بميله إلى الشعراء ورعايته لهم إلى حد أن رثاه التروبادور (ثركامون) بعد وفاته.

وقد اشتهر من الشعراء التروبادور الذين عقبوا جيوم دي بواتييه كل من ثركامون ومركبدو. وقد سبق ذكرهما وأليجويه وجيري دي كالونسون. وبير دو فيرن الذي يُعد من أهم من دعموا أساس فن الشعر البروفانسالي وجيرو دي بورنيل، الذي يُعد أستاذًا لمعاصريه من الشعراء التروبادور. فأرنو دانييل. ثم بير فدال الذي يحتل في نظر الكثيرين مركز الصدارة بين شعراء عصره. والجدير ذكره أن أغلب هؤلاء الشعراء كان يتردد على قصور الأمراء في الأندلس، مثل ترددهم على قصور أمراء بروفانس.

---

(١) مفيد الشوباشي: رحلة الأدب العربي إلى أوروبا، ص١١٣.

ومن أسباب التأثير الفني العربي في الشعر التروبادوري أن قصور الأمراء المسيحيين في أسبانيا وبرفانس من الشعراء العرب، بل إن أي رجل ميسور الحال في هذين البلدين لم يكن يقيم حفلاً إلا دعا إليه أولئك الشعراء. وكان بلاط الملك سانكو الرابع يضم ثلاثة عشر شاعرًا عربيًا، واثني عشر شاعرًا مسيحيًا وشاعرًا يهوديًا واحدًا. وهكذا كان الشعراء الأوروبيون يختلطون بالشعراء العرب ويتلقنون منهم أسرار فنهم وينظمون شعرًا يماثل شعرهم في أسلوبه ومعانيه.

وقد ساعد في التأثر أيضًا ترجمة كتب أدب العرب إلى جانب ترجمة علومهم، ولقيت هذه الترجمات رواجًا كبيرًا بينهم. والشاهد الواقعي على أنها أحدثت أثرها فيهم، وأسفرت عن محاكاة شعرائهم للمنظومات العربية قبل تألق نجم جيوم دي بواتييه، هو ملحمة أغنية رولان الفرنسية التي انعقد الإجماع على أنها الشعاع الأول الذي بزغ في أفق الأدب الغربي الحديث. فهذه الملحمة باعتراف بعض المؤرخين ومنهم مؤرخون فرنسيون يعود أساسها في وجودها لاتصال الأوروبيين بعرب الأندلس في أثناء الاشتباكات العسكرية التي وقعت بين الطرفين [1].

ويرى المستشرق ريبيرا في كتابه الملاحم بين الأسبان والمسلمين أن جميع قصص البطولة التي نُظمت باللغات المُشتقة في ذلك الوقت من اللاتينية كانت مقتبسة شكلاً من أهل أنديس، وأغنية رولان مستوحاة من المعارك التي نشبت بين العرب والأسبان منذ أوائل القرن الحادي عشر إلى أوائل القرن الثاني عشر، واشترك فيها عدد غير قليل من الفرسان الفرنسيين، ولا شك أن قصص البطولة كانت واسعة الانتشار، ولكنها لم تكن مقفاة. أما أغنية رولان فهي في شكلها لا تختلف عن القصيدة العربية.

لقد قام المستشرق ريبيرا عام ١٩٤٣م، بشرح نظريته التي ذهب فيها إلى أنه ظهرت في كتب التاريخ الأندلسي القديمة آثار ملاحم رومانسية، لعلها ازدهرت في الأندلس في القرنين التاسع والعاشر. وذكر أنه وجد بعض القصائد الأندلسية في الوصف، وفي بعض المدونات العربية كثيرًا من الأساطير والقصص الشعبية كُتب بعضها باللاتينية، وبعضها الآخر يؤلف جزءاً من التراث اليومي الذي كان شائعًا بين الأسبان بالرومانسية. فقصة أرطباس وأسطورة أزراق بن منتيل اللتين ذكرهما ابن القوطية في كتابه تاريخ افتتاح

---

(١) فيليب حتّي: تاريخ العرب، ص٥٦٢، نقلاً عن كتاب رحلة الأجب العربي إلى أوروبا، لمفيد الشوباشي ص١١٧.

الأندلس هما قصتان تنطبقان على حقيقة واقعة تنشأ منهما أسطورة شعرية تضمنتها المدونات التاريخية بعد ذلك مع بعض التغيير. وتتميز هذه الملاحم بأنها تروي حوادث قريبة العهد نسبيًا. فهي لا تزال تحتفظ بحرارة الصراع الذي كثيرًا ما ينشأ بين أبطالها، كما تستخدم شخصيات تاريخية. وتحتشد فيها أخبار من الفروسية كالمبارزة. وملحمة السيد (الكبنيطور) تصور مغامرات السيد تصويرًا تاريخيًا على نحو السير التاريخية منذ غادر قريته وحارب في صف المستعين ملك سرقسطة من عام ١٠٨٢–١٠٨٧م، ومن المعالم العربية في هذه اللحمة كلمة Miogid المشتقة من الكلمة العربية سيدي.

وملحمة أبناء لارا السبعة مثل آخر من أمثلة التداخل بين الحياة المسيحية والإسلامية في الأندلس، فالبطل فيها عربي أبوه مسيحي وأمه مسلمة كما زعمت القصة أنها أخت المنصور بن أبي عامر.

وقد شاع بين المريسكيين نوع من القصص يدور حول بعض الشخصيات الغرناطية في بلاط ملوك بني الأحمر مثل قصة زفرة العربي الأخيرة. وقصة ابن سراج وشريفة الجميلة وفيها يتنافس المعسكران الإسلامي والمسيحي في إبداء الكرم. وإظهار روح الفروسية النبيلة، وقد وضع بيرت دي هيتا كتاباً عن هذا الموضوع سمّاه الحروب الأهلية في غرناطة، وصاغه بأسلوب قصصي روى فيه أخبارًا ووقائع تاريخية تتخللها أشعار رومانسية. وقد تُرجم هذا الكتاب إلى الفرنسية في النصف الثاني من القرن السابع عشر. واتخذ كثير من الكُتّاب الفرنسيين من بعض الشخصيات الغرناطية المذكورة فيه أبطالاً لقصص ومسرحيات مثل قصة شاتوبريان عن آخر بن سراج وقصص وشنطن أرفنج عن أساطير قصر الحمراء [1].

ولعله يبدو أن الصلة التي قامت في ذلك الحين بين الشعر الأوروبي المستجد، والشعر الأندلسي، أوضح من أن يحتاج إلى كل هذه الأدلة والأسانيد.

ولعل المستشرق بريغون من أهم من قالوا بتأثير الشعر البروفانسي بالشعر الأندلسي، وقد قال في ذلك ردًا على بعض المستشرقين الذين أنكروا التأثر: "ولكن الأمر لم يعد اليوم كما كان بالأمس. فبينما لم يقم أي دليل على وجود نشاط أدبي في أوروبا المسيحية قبل القرن الثاني عشر، له صلة بفن التروبادور، تتوافر لدينا تفاصيل عن نشاط الشعر

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، ص٣١٣-٣١٤.

العـاطفي الأندلسـي الـذي انتشـر في أوروبـا مـنذ القـرن العاشـر. وفي أيامنا الحاضرة على الأخـص تـزايدت معرفتـنا بذلـك الأدب وتأثيره في البلاد المجاورة له إلى حد أنه لم يعد مسموحًا لنا أن نتمادى في التزام الصمت إزاء هذه الحقيقة دون أن نعترف بغفلتنا. ولابد أن يحـين الوقـت الـذي نـتخذ فيه موقفاً أقرب إلى الفهم الصحيح بدلاً من التمسك بآراء ظلـت مدة طويلة شائعة بين الأكاديميين، آراء لا تعبر على أية حال إلا عن حالة خاصة مـن حـالات انحـراف قديـم منبعـث على الأغلب من تصور تاريخ غير ملم بأي شيء عن الإسلام، يأنف من أن يعترف بأن المسيحية كانت بربرية.

ثـم يقـول بـيد أن الذيـن تغنوا بهذا الشعر العاطفي لم يتورعوا عن الالتجاء إلى العرب بحـثًا عـن آلات العـزف الـتي ينشـدون شـعرهم عـلى وقـع نغماتهـا. ثم إن حماة أولئك الشـعراء كانوا يقصدون العرب، كذلك بحثًا عن مظاهر الأناقة والأبهة التي ابتعثت فيهم الـذوق المهذب، وقد سمحت أموالهم المتكاثرة أن ينعموا بمثل تلك المتع ويستزيدوا منها، ولم تتغدق عليهم تلك الأموال إلا من بلاد العرب عن طريق التجارة.

وكانـت أوروبـا في القـرنين الحـادي عشر والثاني عشر تلتجئ إلى العرب لتنقل عنهم أسـرار الصـناعات الجديـدة وتلقـن المعـارف وفـنون الملاحـة التي طورتها فيما بعد وعلوم الرياضة والفلك والطب والكيمياء وتجلب مؤلفات أرسطو وابن سينا وابن رشد وجيرار دي جريمون وجيربير دوريلاك وريمون لول بحثًا عن جذور عالم جديد من عوالم الفكر والعلم ورحل إلينا (ريحو مونتانوس) بحثًا عن الجدول اليومي لمواقع الأفلاك ذلك الجدول الذي مكـن هـنري المـلاح وفاسـكو دي جامـا وخريسـتوفر كولومـبوس مـن جـنوب المحـيطات والانطـلاق إلى أبعـد الآفاق،وذهـب أديـلهارد إلى قرطبة بحثًا عن النسخة الخطية لكتاب أقلـيدس الـذي ظلـت معـاهد العـلم الأوروبـية تدرّسـه للطلـبة حتى عام ١٥٣٣م. وذهب أفلاطـون بـيزا وفيـبروناكي إلى الأندلس سعيًا وراء علوم الجبر والحساب والفلك. وراحت الكنيسة تنشد العرب تفسير الفكر اللاهوتي. وذهب ألبير الأكبر وتوماس الأكويني إلى ابن سـينا والفـارابي وابـن رشـد بحـثًا عـن فلسـفة العقـيدة الكاثوليكية، وبينما كان الشعراء التروبـادور يـرددون أشعارهم الأولى وهم على مشارف الأندلس العربية جاهر روجر بيكون في أكسفورد بأنه لولا الإلمام بكتب العرب لما تيسّر وجود أي علم وأية مذاهب فكرية.

لقد استيقظت أوروبا فجأة في العصر الوسيط بعد أن غاصت زهاء خمسة قرون في البربرية، وهي مدينة بهذه اليقظة للعالم الإسلامي، في حين أنها لا تكاد تكون مدينة بشكل لروما التي لم تمدها فيما يتعلق بالأدب، إلا ببعض مقطوعات شعرية لأوفيد وكاسيودور وبويتشي. وإذا افترض أحد أن الشعر العاطفي الغنائي الذي ترامى إلى الأسماع من جوانب البساتين الأندلسية شذ عما تقدم، ولم تقبل عليه أوروبا فإنه يكون عجبًا أن يحتاج المرء لإثبات حدود هذا الإقبال على حجج يدحض بها تلك التنبؤات المتخبطة التي يجازف أصحابها بترويجها [1].

ويقول المستشرق نيكلسون في كتابه تاريخ العرب الأدبي: ليست المشاعر الرومانسية التي تجلت في أغاني الحب والتي حلت في العصر الوسيط محل روح البطولة الحربية، وليست خلجات التأثر بالطبيعة إلا انعكاسًا لملامح الشعر العربي الأندلسي الذي هو أقرب إلى مخاطبة الذوق الأوروبي من الشعر العربي القديم.

ولم يقتصر شعراء بروفانس على محاكاة زملائهم الأندلسيين في نظم الشعر المعبر عن العواطف الرومانسية بأسلوب رقيق مهذب ولكنهم حاكوهم أيضًا في استعمال القافية التي لم تعرفها أوروبا من قبل، وقد أشار (دي ساسي) إلى ذلك في كتابه بحث أولي في العروض عند العرب إذ قال: "العرب هم الذين نقلوا القافية إلى الشعر الأوروبي".

ولم يسبق الشعراء التروبادور غيرهم إلى فكرة نظم الشعر باللغة الدارجة كما يخيل إلى مؤرخي الأدب، فقد حاكوا العرب حتى في ذلك فإن الأندلسيين نظموا الزجل وقامت بين أنصاره وأنصار اللغة الفصحى معركة أدبية تجاوزت أصداؤها جبال البرانس، وترددت في أرجاء بروفانس قبل أن يبدأ فيها شاعر بنظم بيت واحد من الشعر، ومما يؤيد هذا الرأي أن ابن قزمان أشهر ناظمي الزجل في الأندلس، وأنشط المدافعين عن الكتابة باللغة الدارجة كان قدوة لشعراء بروفانس الذين لم يقتبسوا معاني أزجاله فحسب. ولكنهم ترسموا تلك الأزجال من ناحية أوزانها وترتيب قوافيها ونسجوا على منوالها.

والواقع أن الشعر الأندلسي والأزجال لم تؤثر في التروبادور فحسب بل امتد تأثيرها إلى أوروبا كلها إلى الأدب الفرنسي والإيطالي وغيرهما.

---

(١) مفيد الشوباشي: رحلة الأدب العربي إلى أوروبا، ص١٢١.

فقد تردد صدى منظومات التروبادور في شعر ذلك العصر، وفي أغاني المنشدين الجوالين في الشمال. يقول بيرديكس: "قام عرب الأندلس خلال القرن العاشر الميلادي بنشر حضارة جديدة أصيلة، ابتدعوا شعرًا عاطفيًا نقله الشعراء التروبادور إلى الشمال وتدل المراجع التاريخية على أن الأسبان بعد غزوهم الأندلس العربية وجدوا قصورهم ملأى بالشعراء العرب الذين وقعوا في الأسر وظلوا يعيشون في كنف الأمراء الجدد ومن السخف أن يتجنب مؤرخو الأدب الفرنسي ذكر هذه الحقائق المؤيدة بالأدلة الثابتة".

وقال تيودور جيرولد: "كثيرًا ما أشار النقاد إلى افتقار منظومات الشعراء الفرنسيين في الشمال إلى الأصالة لا سيما شعرهم الغزلي، فالعواطف التي عبروا عنها وطريقتهم في عرضها وفنون صياغته كل ذلك حاكوا فيه الشعراء التروبادور".

وقال ج. بديه" وب. هازار: "أشعار وسط فرنسا كلها سابقة بجيل أو بعدة أجيال على أقدم أغاني الشمال والأصل الذي أوحى بها جاء من بروفانس".

وقد تاثر الشعر الإنجليزي أيضًا بالشعر العربي وتتضح هذه الحقيقة إذا ثبت تاثره بالشعر البروفانسي الذي سبق أن دللنا على أنه لا يختلف عن الشعر العربي في شكله ومضمونه.

وقال أوديو: أثر الشعراء التروبادور في الشعراء الإنجليز تأثيرًا لا يختلف عن تأثيرهم في سائر شعراء أوروبا.

وقال تشيتور: "من الواضح أن الشعر الغنائي الإنجليزي مدين إلى حد كبير للشعراء التروبادور. ودراسة المقطوعات الشعرية الإنجليزية ينبغي ألا تبتعد عن اتخاذ الشعر البروفانسي العاطفي نقطة الانطلاق" (1).

أثر الأدب العربي في القصة الأوروبية

لم يعرف الغرب لا سيما غرب أوروبا من فنون الأدب قبل احتكاكه بالعرب غير القصص الخرافية والملاحم الأسطورية. ففي الشمال تغنى الشعراء المنشدون والجوالون بالمنظومات القصصية الاسكندنافية المنسوجة من خيوط الأوهام والخرافات.

ولم تتغير هذه الحال إلا عندما خطفت الحضارة الأندلسية أنظار أمراء الجنوب الفرنسي وخلبت ألبابهم وأشعرتهم بتأخرهم فراحوا يأخذون بأسباب الرقي الحضاري

---

(1) المرجع السابق، ص١٢٤-١٢٥.

ويحيطون أنفسهم بمظاهره، ويحاولون احتذاء العرب في كل حركة وفي كل مظهر. وقد هيأ ذلك لهم أن يتذوقوا الأدب العربي. وراحوا يحاكون العرب في أدبهم. وجاء شعر التروبادور نتاجًا لهذا التأثر بالأدب الأندلسي.

وإذا كان قد أحدث هذا التأثير نهضة شعرية فإنه أحدث في شمال فرنسا نهضة قصصية قد امتزج ميل النورمانديين القديم إلى القصة الخرافية بميلهم الجديد إلى الشعر العاطفي، وتولّد من هذا المزج نوع أدبي مُستحدث هو القصة الشعرية العاطفية المعبرة عن الواقع الجديد. وظهرت القطوف الأولى لهذا النوع الأدبي في منتصف القرن الثاني عشر وحفظ لنا التاريخ منها ثلاث قصص.

تغير الفرنسيون في الشمال، كما تغير مواطنوهم في الجنوب، ونما إدراكهم العقلي فتخطوا مرحلة الاهتمام (بالقول) الذي يعيش في جوف الظلام ويُغير على الناس فيلتهم دماءهم وأجسادهم دون أن يشبع وتخطوا أيضًا الاهتمام بالأرواح الشريرة التي تلوذ ببطون الوديان ومجاهل الغابات وضفاف المستنقعات.

لقد وقعت على الأدب العربي مسؤولية تغيير ذوق الأوروبيين في ذلك الوقت، كما وقعت على العلوم العربية مسؤولية تغيير عقليتهم الأوروبية، وساهمت في ذلك فلسفة اليونان التي كان للعرب فضل نقلها إلى الأوروبيين. فنفروا من الأسلوب الأدبي الطنان بعد أن تذوقوا الأسلوب الرقيق الجميل، ورفضوا التغيير الخرافي بعد أن أصبحوا أوسع إحاطة بأسراره.

وقد أعادوا صياغة الموضوعات التقليدية مع تغير أساليبها ومضامينها. وتحدث برديكس عن ذلك فقال: "إن تلك الأعمال الأولى التي سميت قصصًا وهي (ثيبة) و(إنياس وطروادة) تختلف اختلافًا واضحًا عن الملاحم القديمة. وتتميز عنها بأسلوبها الشعري الموزون المتحرر من التراكيب المعقدة وباقتصارها على القافية الثنائية".

وقال عن تلك القصص المنظومة أيضًا أنها أعمال أصلية. فقد نشطت في فرنسا وقت ظهورها حركة أدبية كبرى تميّزت بالخصائص التي تميز بها فيما بعد أدب عصر النهضة وقد عاش مؤلفو قصص طيبة وإنياس في زمن انتقض خلاله الفكر الإغريقي وانتشر الفكر العربي.

لقد صيغت قصة ثيبة (طيبة) المذكورة صياغة جديدة يستسيغها ذوق ذلك العصر وابتدع مؤلفها المجهول حلولاً واقعية لمشكلاتها يقبلها عقل الناس آنذاك.

ونحـا مؤلـف إنـياس نفـس المـنحى فأعـاد صياغتها الرومانية وأبدع في ذلك إبداعًا لم يصل كاتب ثيبة إلى مستواه.

ويعلـق بيير ديكس قائلاً نحن لا نستطيع إلا أن نتصور ما توشج من صلة بين كل من الصـليبيين وأمـراء الأقالـيم الفرنسـية الشـرقية مـن ناحـية، والحضارة العربية من ناحية أخرى. ويتابع قوله إن هذه النفخة وهذا الموضوع هما الجديدان في تلك القصص الأولى فلم يستبق أن تعرض أحد لمثل هذه الحكايات.

وبيير ديكس يعبر أصدق تعبير عن الرد على من تعصبوا للأدب الأوروبي تعصبًا أعمى حـين قـالوا إن المعاني العاطفية التي رددها الشعراء التروبادور وحاكاهم في ترديدها مؤلفو القصـة في الشـمال الفرنسـي مُسـتمدة مـن أعمال فيرجيل صاحب الإلياذة الرومانية، ومن كتاب فن الحب لأوفيد. ونحن نسأل المتحيزين لماذا لم يحدث فيرجيل وأوفيد أي أثر في فرنسا. ولم يبتعثا فيها تلك النهضة الأدبية الباهرة إلا بعد أن هبت عليها نفحات الأدب العربي مع أن أعمال هذين الشاعرين اللاتينيين كانت متداولة بين المثقفين الفرنسيين منذ فتح الرومان لبلادهم.

ويقـول بـيير ديكس: إنه لم يجد لمعاني قصة إنياس نظيرًا في أدب الغرب، ومع ذلك لا يقول لنا من أي بذور نبتت.

(فالشعر العربي الذي حاكاه التروبادور ونشروا تقاليده في أرجاء أوروبا الغربية هو أول إنتاج أدبي نبع من التطبيق العملي. من التجربة الذاتية. ولكن الواقع أن كُتَّاب القصة في الشمال الفرنسي آنذاك قد تتلمذوا على التروبادور واستفادوا منهم في كتابة قصصهم) [(1)].

إن الأندلـس تُعـدُّ الجسـر الـذي عـبر كثيراً من المظاهر الأدبية الأندلسية إلى أوروبا في العصـور الوسـطى، ويـتفق مؤرخو الأدب الأوروبي عامة على التأثير الحاسم الذي أحدثه الأدب الأندلسـي في تطـور القصـة الأوروبـية في العصـر الوسـيط، وقد تلقى الأدب العربي كـثيرًا مـن القصـص الشـرقية مـن الهـند وفـارس ونقلها بدوره إلى الأدب الأوروبي. وكان (بدرو ألفونسو) في طليعة القرن الثاني عشر أول من نشر في العالم المسيحي عددًا كبيرًا من المجموعات القصصية التي تقوم موضوعاتها حول الأمثال والحكم والمواعظ.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٥٩.

ويدل على ما أثارته هذه القصص من اهتمام في العصور الوسطى، وجود أكثر من ٦٣ مخطوطًا من كتاب (أدب العلماء) لألفونسو. محفوظة إلى اليوم وكلها مكتوبة بلغات أوروبية مختلفة كالألمانية والفرنسية والعبرية والإيطالية القطلانية والقشتالية. كما أن موضوع هذه القصص عولج في أكثر من ٦٠ كتابًا في العصر الوسيط، وعصر النهضة لمؤلفين مشهورين أمثال. دون خوان مانويل. وبوكاشيو وبوزون. وشوسر وجير الدين.

وانتشرت بعد ذلك بعهد قصير المجموعة القصصية التي يتضمنها كتاب كليلة ودمنة الذي ترجمه ابن المقفع عام ٧٥٧، من البهلوية إلى العربية. ولقد ترجم هذا الكتاب إلى القشتالية عام ١٢٦١م، بأمر الملك ألفونسو الحكيم ثم ترجم إلى العبرية في القرن الثالث عشر ونقله خوان دي كابوا بعد ذلك إلى اللاتينية وعرف هذا الكتاب من هذه الترجمة اللاتينية وفي لغات مختلفة كالألمانية والدانمركية والإيطالية والأسبانية.

أما الترجمة القشتالية فهي أدق من ترجمة خوان دي كابوا إذ إنها نقلت مباشرة من العربية بدلاً من اللاتينية. وأصبح هذا الكتاب أساسًا لما كتب بعد من قصص في الشرق والغرب في أكثر من أربعين لغة اشتملت على حكم وأمثال تُقال على ألسنة الطير والحيوان ويكفي أن نذكر الكتب التالية لبيان أثر كتاب كليلة ودمنة في الآداب الأوروبية.

كتاب لبوزون. وكتاب لدبرافيوس وللكاتب ريشيه وللكاتب فربوكيه. وكتاب بعنوان الحيوان للكاتب رايموندو لوليو.

وهناك كتاب آخر لقي شهرة وانتشارًا ما لقيه كتاب كليلة ودمنة وهو كتاب السندباد وقد تُرجم هذا الكتاب إلى القشتالية بأمر الأمير دون فدريكي شقيق الملك ألفونسو العاشر عام ١٢٥١م، وجعل عنوانه (خدع النساء وكيدهن) وقد وصل هذا الكتاب إلى أوروبا من فريقين أحدهما الترجمة القشتالية التي ترجمت عنها عدة لغات.

وعرفت أسبانيا المسيحية كتاب ألف ليلة وليلة عن طريق الأندلس فقد وردت بعض قصصه في المدونة العامة لتاريخ أسبانيا التي وضعها ألفونسو الحكيم، منها قصة تيودور الحسناء التي أخذ منها المسرحي الأسباني لوبي دي فيجا في إحدى مسرحياته الكوميدية. وتنعكس في مسرحية كلدون دي لا بر كا قصة النائم اليقظ ويمكننا أن نشاهد قصة الحصان المسحور في مسرحية أخرى وقصة قمر الزمان في إحدى الروايات الشعبية.

ويذهب بيلايو على أن هاتين القصتين الأخيرتين نقلتا إلى الأدب الأوروبي شفاها أيام الحروب الصليبية وإن كان وجود مخطوطات أسبانية تشتمل على قصة قمر الزمان تدحض هذه النظرية.

ومما يدل على أن كتاب ألف ليلة وليلة كان شائعًا في الأندلس في العصر الإسلامي أن الموريسكيين سجلوا بعض قصصه باللغة الخيمادو التي كانوا يكتبون بها ومن هذه القصص قصة قصر الذهب ومدينة أفلاطون. كما يمكننا اليوم تعقب أثر قصص شهرزاد في اللغة الأسبانية. ففي قصة الغيور العجوز التي كتبها سرفانتس تجد الموضوع نفسه الذي نسجت حوله قصة القاضي وابنة التاجر. وفي الأسطورة الشعبية التي أوحت إلى ثوريليا بذكرياته في مدينة بلد الوليد شبه كبير بقصة تدور حول عدالة السماء.

وليس الأمر وقفًا على القصص الأسبانية، وإنما نرى لكتاب ألف ليلة وليلة صدى في القصص الأوروبية تسبق الترجمة الفرنسية التي قام بها جايان في بداية القرن الثامن عشر. ففي رحلة براندان للبحث عن الجنة نطالع قصة الجزيرة المتحركة التي ظهر أنها حوت كبير. وقصة الطيور الضخمة التي تشبه الرخ وفي قصة شميد الألماني المعروفة باسم Das schloss inderhuttxaxa وقائع مماثلة لقصة علاء الدين والمصباح السحري.

وانتشر في أوروبا في العصر الوسيط نوع من القصص التاريخية تختلط فيه الوقائع بالخيال على نحو ما جمعه هيرودوت عن مصر وقد ترجم منها الكثير مثل قصة اسكندر ذي القرنين.

وقد وصل التأثر الأوروبي أوجه في أعمال عظماء الأدب الذين يعتد بهم الأوروبيون ويعتبرون بحق من أشهر المبدعين في أوروبا.

فدانتي الذي ألف الكوميديا الإلهية التي تعتبر من أهم الإبداعات الإيطالية كتبها متأثرًا بإبداعات عربية إسلامية. وبعض دارسي الأدب المقارن قالوا إنه كتبها متأثرًا بكتاب المعري رسالة الغفران لما فيهما من تشابه في وصف الجنة والنار وما إلى ذلك. لكن البعض الآخر رأى أن دانتي كان متأثرًا جدًا بمعراج ابن عربي الفيلسوف الصوفي الأندلسي المسلم. وهذا أقرب إلى موافقة المنطق العلمي. وسبب ذلك يعود إلى أن كتب ابن عربي الأندلسي ترجمت إلى اللاتينية وانتقلت من أسبانيا إلى إيطاليا مثلما انتقل كثير من كتب العرب الفلسفية والأدبية وغيرها.

وقد رأى بعض الباحثين أمثال المستشرقة ريغريد هونكه أن دانتي استفاد جدًا من كتاب ابن حزم الأندلسي المعروف بطوق الحمامة. وهذا الكتاب مليء بالأفكار المتعلقة بالحب. فالحب هو وسيلة من وسائل حبه لله وهذا قريب الشبه من افكار دانتي وتقول هونكه: يبدو الشبه كبيرًا بين دانتي وبين ابن عربي فقد أخذ عنه دانتي تشبيهاته بعد ما يقرب بمائتي عام فكما ارتفع حب دانتي الشاعر الإيطالي لبياتريس به إلى الجنة درجات ودرجات نجد ابن عربي أيضًا يقول نفس الأوصاف في محبوبته. وبياتريس عند دانتي هي نيسام عند ابن عربي الذي يعلق على أحد كتب أشعاره قائلاً لقد جعلت مني نيسام ملهمًا لكل ما كتبته في هذا الكتاب من قصائد فهي كل أملي ورجائي. وكل اسم ذكرته في قصائدي قصدتها به. وكل منزل حننت إليه هو منزلها. واضطر ابن عربي كما اضطر دانتي أن يعلق على أشعاره الصوفية التي غناها في حب نيسام ليظهر طهارة حبهما على عكس ما ادعاه حساده [(1)].

وفي ضوء ذلك انتشر شعر الغزل وخرج من الأندلس عبر الحدود إلى الغرب ليصبح فنًا عالميًا. ولم يكن الغرب يعرف مثل تلك النغمة في الحب، ولم يكن أحد من الشعراء في الغرب ليعبر عن حبه في ذلك الأسلوب. ولم يكن أحد منهم ليقذف بنفسه تحت أقدام المحبوبة يتلمس رضاها.

وتقول زيغريد هونكه: يتساءل الكثيرون كيف بدأ الدوق فيلهلم التاسع في جنوب فرنسا وغيرها من الشعراء والمغنين في نعت أنفسهم بالخدم والعبيد أمام محبوباتهم وفي أشعارهم وأغانيهم. وكيف رفعوا المرأة إلى تلك المكانة العالية وركعوا أمامها ساجدين. وكيف أصبحت المرأة التي كانت أقل شأنًا من الرجل في ظل تعاليم الكنيسة لأول مرة كائنًا مقدسًا يتوسل إليها الرجل كما يتوسل إلى الله. حتى الأشعار الدينية التي كانت قبل ذلك تصف مريم أم المسيح بخادمة الرب وبالفتاة الذليلة قد جعلت منها الآن السيدة الكريمة والحبيبة العزيزة وغزا ذلك الأسلوب الغزلي كل فرنسا وبريطانيا وإيطاليا وصقلية والنمسا وألمانيا. وكما قلدوا العرب في أسلوبهم وطريقتهم كذلك أخذوا عادة عباس بن الأحنف في عدم ذكر اسم محبوبته في قصائده الغزلية والاستعاضة عن ذلك بأي اسم آخر.

---

(١) زيغريد هونكه: شمس العرب تشرق على أوروبا، ص٥٢٢.

ومـنذ أن تعـرف بورداخ على مصدر شعر الغزل الأوروبي فالكثيرون يحاولون جاهدين إرجاع مصدره لغير العرب برغم أن كل الدلائل تشير بوضوح إلى قدومه من الأندلس عابرًا نفس الطـريق الـتي عـبرتها مخـتلف الـثقافات الغربـية والـتي كانـت الأندلس بموقعها السياسي والجغرافي أبكر مورد لها [1].

اللغة العربية وأثرها في اللغات الأوروبية

كـان لابـد من أن تتأثر اللغة الأسبانية باللغة العربية في أثناء العهد الإسلامي الطويل الـذي تفوقـت فـيه من حيث الاستعمال على سائر اللغات الأسبانية ويتجلى هذا بأوضح صورة في آلاف الألفاظ العربية التي يزخر بها قاموس اللغة الأسبانية والتي تشهد بما كان بين المسلمين والمسيحيين من صلات وثيقة في جميع نواحي الحياة نتيجة طبيعية لمعاشرة المستعربين للمسلمين والمدجنين للمسيحيين.

ولا تقتصـر هـذه الألفـاظ عـلى العلـوم الـتي ذكرناها سابقًا كالطب والفلسفة والرياضة والفلـك والكيمـياء والموسيقى وإنما تتجاوز ذلك إلى الحياة الاجتماعية والسياسية والتقاليد العسكرية، ونظم الزراعة والتجارة والصنعة والعمارة والعمران وهي أبلغ سجل خلدت فيه الحضارة الأندلسية:

إنـه مـن الطبـيعي أن تتسرب اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية ثم إلى اللغات الأوروبية بعـد أن تكونـت محلـيًا في بلدان أوروبا. فقد بقي العرب في الأندلس ثمانية قرون وكانت كفـيلة أن تصـدر لغـتها إلى أوروبـا وأن يسـتفيد منها الأوروبيون الذين كما ذكرنا ترجموا مـئات الكتـب ومـن كافـة الاختصاصات إلى لغاتهم. وإضافة لاستفادتهم من اللغة الأدبية استفادوا من المصطلحات العلمية والفلكية والفلسفية والرياضية والجغرافية وغيرها. وظلت هذه المصطلحات العربية سارية المفعول في اللغات الأوروبية إلى يومنا هذا.

ومـن الطبـيعي أن يـدل هذا على حيوية اللغة العربية وعالميتها. فالعرب سبقوا أوروبا بكثير من العلوم والأفكار وكانت اللغة العربية وسيلة عظيمة لنقل علومهم وأفكارهم. وهي بطبيعتها مطواعة ذات مفردات كثيرة غنية.

وقـد لعبـت الترجمـة العربـية عـلى سواهما دورها المهم والفعال في نقل مفردات اللغة العربية إلى تلك اللغات. وقد أشار الباحثون إلى أن هذه المفردات التي لا تعد و لا تحصى

---

(١) المرجع السابق، ص٥٢٤.

قد سدت فراغًا كبيرًا في الثقافة الأوروبية وفكرها وعلومها. ولولاها ظلت أوروبا في جهلها وتخلفها الكبيرين.

أسماء الأنهار والمواضع:

Guadalquiver	الوادى الكبير
Guadalaviar	وادى الأبيار
Guadalajara	وادى الحجارة
Alcala	القلعة
Alcolea	القليعة
Alcala de Guadaira	قلعة وادى أيره
Calatayud	قلعة أيوب
Calatrava	قلعة رباح
Algeceras	الجزيرة الخضراء
Alcira	شقر (جزيرة)
Tarifa	طريف (جزيرة)
Ibiza	يابسة (جزيرة)
Baza	بسطة (مدينة)
Almodovar	المدور (مدينة)
Albacete	البسيط (مدينة)
Aldovera	الدويرة
aznalcazar	حصن القصر
aznalfarache	حصن الفرج
Medina Azzahra	مدينة الزهراء
Medinaceli	مدينة سالم
Belda	بلدة
Valladolid	بلد الوليد
Almaden	المعدن (مدينة)
Calahorra	قلعة الحرة
Zonaica	جبل طارق
Gibralfare	جبل فارو
Gibraleon	جبل العيون

Aljarafe	الشرف (منطقة)
Algarve	الغرب (منطقة)
Almeria	المرية (مدينة)
Alhama	الحامة (مدينة)
Alejar	الحجار (مدينة)
Alcacer do sal	قصر أبي دانس (مدينة)
Arrecefe	الرصيف (مدينة قرطبة)
Benamexir	بني بشير (حصن)
Zafarraya	فحص رعين
Alqueria	قرية
Jerica	شارقة (مدينة)
Zoco	سوق
Zocodover	سوق الدواب
Alhambra	الحمراء (اسم قصر)
Alhandega	الخندق (اسم موضع)
Vega	فحص
Alfoz	الحوز
Ajarquia	الشرقية (اسم حي في قرطبة)
aldea (Daya)	ضيعة
Arrabal	ربض
Adarve	درب
Aceite	زنبقة

الألفاظ الخاصة بالزراعة والري:

Acequia	ساقية
Noria	ناعورة
Aljibe	الجب
Munya	منية
Rauda	الروضة
Alberca	البركة
Azud	السد

Generalife	جنة العريف (موضع)
Arriate	الرياض

أسماء الزهور والفواكه :

Jazmin	الياسمين
Arrayan	الريحان
Albaricoque	البرقوق
Azucena	سوسنة
Alhucema	الخزامى
Naranjo	النارنج

أسماء المأكولات والبقول :

Arroz	الأرز
Berenjenas	الباذنجان
Altramaco	الترمس
Almojabanas	المجبنات
Ginraltar	الزيت
Alubia	اللوبيا
Azafran	الزعفران
Algarroba	الخروب
Azucar	السكر
Aceituna	الزيتون

أسماء المؤسسات الاقتصادية والدينية :

Atahona	الطاحونة
Atarazana	دار الصناعة
Almacen	المخزن
Alcaiceria	القيسارية
Alhondiga	الفندق
Aluana	الديوان الجمركي
Mederza	مدرسة
Rabita	رباط
Mezquita	مسجد

الألفاظ الشائعة في العمارة والزخرفة:

البناء	Albanil
العريف	Alarife
القبة	Alcoba
الطوب	adobe
المنارة	Alminarete
سقف سماء	Zaqui Zami
بنيقة العقد	Atalaya
تربيعة العقد	Albanega
الربع المحيط بالعقد	Atarabea
الإزار الزخرفي	Arraba
الإفريز الزخرفي	Alizar
البربخانة	Aafiz
البكرة (في الأبار)	Barbacana
الستارة (الحائطية)	Albacara
برج الطليعة	Citara
برج البراني	Albarrana
الغرفة	Algorfa
الغرفة العليا (المصرية)	Mazaria
التوريق	Ataurique
التوشية	Ataujia
الترصيع	Ataracea
السطح	Azotea
المقربص	Almocarabe
أسطوان الدار	Azaguan
جائزة السقف	Jacena
صبة الباب	Aldaba
زرقون	Azarcon
نزلة (في الزخرفة)	Nacela
تشبيكة	Tabique

Alecrim	أكليل زخرفي
Azacaya	سقاية
Ajimes	شماسة
Alcantara	قنطرة

المنسوجات والمفروشات:

Albornos	البرنس
Alizar	الإزار
Almaizer	المئزر
Acitara	الستارة
Algodon	القطن
Almohada	المخدة
Alfombra	الحمرة (سجادة)
Chupa	الجبة
Zaraguelles	السراويل
Alifafes	الخفاف

آلات الطرب:

Alauo	العود
Tambwre	الطنبور
Adufe	الدف
Atabale	الطبل
Alboque	البوق
Guitarra	القيثارة

أدوات المطبخ:

Almerez	المهراس (الهاون)
Acetre	السطل (الدلو)
Arrope	الربع (كيل الزيت)

خاتمة

ثمانية قرون من الحضارة العربية العريقة في الأندلس. ثمانية قرون لم يعرف العالم فتحًا حضاريًا مشابهًا لما فعله العرب في شبه الجزيرة الإيبيرية. ماذا يمكن أن يكتب الباحثون عن تلك الحضارة؟ عن ذلك الإنسان العربي الذي نقل حياة كاملة إلى أرض يغص بها الظلام والجهل والتخلف والظلم.

لقد سرنا مع العرب منذ بداية الفتح للأندلس، وحتى سقوط بني الأحمر ودولتهم. عرفنا كيف كان الدخول والتوسع وعرفنا الاستقرار. عرفنا عصور الإمارة والخلافة وملوك الطوائف. وسرنا مع القرون الثمانية، وأدركنا أن العرب الذين فتحوا تلك البلاد أقاموا عليها صرح حضارة نقلت علومها وآدابها إلى أوروبا فكان لها الأثر الواضح والكبير في مسار الحضارة العربية.

ولكن أليس لنا الحق في وقفة مع من تبقى في الأندلس بعد السقوط؟ كيف عامل الأسبان المسلمين الذين آثروا البقاء في المدن والمناطق الأندلسية؟

لقد شهد الأسبان حربًا صليبية متعصبة ضد مُسلمي الأندلس، يدعمهم البابا الكاثوليكي نفسه، وعمّ الخراب بلاد الأمس الحضارية واندثرت حضارة نادرة في العالم. وبقي المسلمون في بلادهم على أمل أن يلاقوا تسامحًا من المسيحيين مثل ما كانوا يفعلون مع المسيحيين الذين عاشوا بين ظهرانيهم إبان القوة العربية.

ولكن رياح التعصب المسيحي الصليبي هبت قوية على بقايا المسلمين فمنهم من طُرد وشُرِّد، ومنهم من تستر على دينه وأعلن النصرانية. ومنهم من تعرض لمحاكم التفتيش ثم القتل والإبادة.

لقد أُطلق على المسلمين الذين ظلوا في الأندلس بعد السقوط بالموريسكيين. وتعرضوا لأعمال إرهابية مستمرة حتى اختار فريق منهم البقاء مع المعاناة، واختار الفريق الآخر الهجرة إلى البلاد الإسلامية هربًا بدينهم، ولم ينج القسم الثالث من السجن والتعذيب.

والواقع أن المسلمين هؤلاء تعرضوا للقهر والتعذيب مدة طويلة من الزمن، قبل أن يطردوا نهائيًا من الأندلس.

لقد حاولت السلطات الأسبانية تنصير المسلمين، ولكن المسلمين ثاروا في عدة بلدان وقاموا بمعارك مسلحة. ولكن حملة التنصير ظلت مستمرة. فرض الأسبان على المسلمين لباسًا خاصًا. وفرضوا عليهم التعميد. وراحت القوى الأسبانية تصدر القوانين تلو القوانين لتضيق الخناق على المسلمين. فمنعتهم من مزاولة بعض المهن. ونهبت أراضيهم وخاصة بين عامي ١٥٥٩-١٥٦٨م، عندما صدر قرار تحدد فيه الأراضي من خلال الوثائق، ومن لم يكن معه وثيقة تثبت ملكيته للأرض تصادر أرضه ويُعاقب ويدفع غرامة.

ثم دفع الأسبان بالنصارى للسكن في أحياء المسلمين بشكل إجباري، وذلك حسب خطة تخلخل الوضع الديموغرافي لأحياء المسلمين. ثم حرّموا الكتب العربية.

حاول المورسكيون المسلمون التمرد والثورة على قرارات العنصريين الأسبان. فأصدر الأسبان قرارًا بطردهم من غرناطة، وخلال أيام قليلة غادر خمسون ألفًا مساكنهم الأصلية ولم يعودوا إليها مُطلقًا. وشن الأسبان حرب إبادة على المسلمين، ففي عام ١٥٦٩م، توجه أكثر من ٨٠ مسلح على منطقة إينوكي فدافع المسلمون عن أنفسهم بالحجارة، ولكن الأسبان هاجموهم بالسلاح الأبيض فقتلوا منهم ٤٠٠ وأسروا خمسين وساقوا النساء والأطفال عبيدًا. واستولى الأسبان على الأموال والمتاع. وتابعوا سياسة الإبادة فاستولوا على حصن غواخار وقتلوا من فيه من النساء والرجال.

وظل الموريسكيون يتعاطفون مع العالم الإسلامي. فلم يقطعوا علاقاتهم مع أبناء دينهم. وقد حاول الأتراك والجزائريون مساعدة مُسلمي الأندلس ولكن المساعدة لم تكن كافية لدرء خطر التنصير. وعلى الرغم من ذلك فقد لعبت المساعدات دورًا لا يستهان به في الدفاع عن مدينة أينسكس.

ولكن الأسبان جمعوا المسلمين عنوة في إحدى القرى، حيث أجبروهم على الهجرة نفيًا بمراقبة حراسة مشددة إلى خارج مملكة غرناطة. وقد شمل النفي جميع الموريسكيين المسالمين الذين استسلموا دون تفريق بين المدنيين وحاملي السلاح. واستمر الترحيل أسبوعًا عانى منه المسلمون العديد من الويلات. وتمكن بعضهم من الاختفاء، وبعضهم من الهرب. لقد جمعوهم داخل الكنائس والمصحات في سبعة مدن وكانوا أكثر من خمسين ألف شخص منهم خمسة آلاف من مالقة وروندا، واثني عشر ألفًا من غرناطة، ومثلهم من جواديكس. وكان بصحبتهم عدد كبير من العجائز والمسنين والأطفال. وسيروهم مشيًا

على الأقدام. وسار المسلمون لمدة أسبوع في ظروف صعبة وقاسية. وقد مات منهم العديد في المسير الطويل والمعاناة من الظروف الجوية. وقد تبع ترحيل الغرناطيين ترحيل سكان كويباس ديل المنصورة عام ١٥٧٠م. وقد بلغ عدد الذين رحلوا قبل الطرد عشرين ألف شخص.

وحتى تكتمل دائرة التضييق على المسلمين الموريسكيين فقد أخذ الحكام النصارى يتنصرون كتبًا تطعن بالإسلام وبالرسول محمد ﷺ. وأخذوا من خلالها يقولون بتفوق الإنجيل على القرآن، والتعميد على الإسلام. وقد كان ذلك أولاً في كتاب عنوانه في مواجهة القرآن لبرناردو الذي ظهر في أشبيلية عام ١٥٢٨م، وفي بلنسية عام ١٥٣٢م. وظهرت ثانيًا كتابات أخرى تؤكد على فظاظة وفحش النبي محمد ﷺ حسب زعمهم وحقدهم وقالوا إنه فرض القرآن بالسيف وجمع أتباعًا عن طريق إغرائهم بالشهوات.

وقالوا إن بعض العبارات في القرآن أصلها من التوراة والإنجيل أو أصلها نصراني أو يهودي، ومن بين الكتب الهامة في هذا الموضوع كتاب (إزهاق القرآن للراهب فلورسانس ريكولدو دي فونتكروثي. الذي عاش بين المسلمين سنوات كثيرة في آسيا، وقد عرض على رجال الدين المسيحي مواد لم تكن في حوزتهم. وتاريخ نشر وترجمة هذا الكتاب بواسطة الراهب أنطونيو دي لابينا له معنى كبير. فقد ظهر في أشبيلية عام ١٥٠٠م، باللغة اللاتينية وفي طليطلة عام ١٥٠٢م.

ومن بين الكتابات التي ظهرت فيما بعد نذكر كتاب (نور الإيمان ضد القرآن)، وهو من تأليف خوان دي تين، وقد ظهر في بلنسية عام ١٥١٩م. وهذا المؤلف يدين فيه اللذات الحسية الموجودة في أخلاق محمد ﷺ (حاشاه من ذلك).

وبالنوايا نفسها الحاقدة العنصرية وبأدلة مشابهة نجد ذلك في كتاب (مواجهة ضد القرآن وضد النحلة المحمدية من خلال كتابها وحياة محمد ﷺ نفسه)، وهو من تأليف لوبي أوبريقون وهو مطبوع بإشراف محاكم التفتيش في غرناطة عام ١٥٥٥م. وكتاب آخر لخوان أندريس يحوي اثني عشر بابًا وهو يستحق اهتمامًا خاصًا ليس بسبب محتواه، فهو يشبه الكتب الأخرى حيث يركز الكاتب على التناقض بين نزول القرآن في ليلة واحدة بواسطة الملاك، وبين استمرار هذا النزول عشرين عامًا. وإنما يستحق الاهتمام بسبب النجاح الذي لاقاه وبسبب شخصية مؤلفه. وقد طُبع هذا الكتاب في بداية عام

١٥١٥م، في بلنسية، ثم في أشبيلية ١٥٣٧م. وفي غرناطة عام ١٥٦٠م.ومؤلفه ابن أحد الفقهاء. وكذلك هو نفسه كان فقيهًا وزعيمًا روحيًا لمسلمي خاطبة، وقد تحول للنصرانية عام ١٤٨٧م. وأصبح قسيسًا، وأسندت له مهمة التبشير المسيحي بين أبناء قومه ودينه في غرناطة، وأراغون. وينسب له ترجمة القرآن وكذلك كُتب السنة السبعة (ولم يذكر المؤلف أسماء الكتب السبعة) وإضافة لنشر الكتب التي تشوّه الدين الإسلامي وشخصية الرسول ﷺ فقد جند الملوك النصارى جيشًا من القسيسين والرهبان يتعلمون العربية وتعاليم الإسلام ثم يتفرعون لعملة التنصير بين الموريسكيين. ورافق ذلك إقامة عدد كبير من الكنائس لاستيعاب الموريسكيين المسلمين حيث تم إنشاء ١٢٠ كنيسة أقيم أكثرها فوق المساجد ودور العبادة الإسلامية. وقد عمدوا بالإجبار إلى تعميد عدد من المسلمين في تلك الكنائس. ونظمت حملات أخرى للتنصير عام ١٥٢٥م، وصرف على ذلك الكثير من الأموال. وقد ساعد في عملية التنصير غير الكاثوليك. من الدومينكان والأغسطيين واليسوعيين. وكان المطلوب منهم تعليم أطفال الموريسكيين تعاليم العقيدة المسيحية، وقد أقيمت المدارس الخاصة لهذا الشأن. وكان من مهمات هذه المذاهب المسيحية، مراقبة المسلمين في صلواتهم وأعيادهم وعاداتهم الإسلامية، إضافة لغرض إقامة الطقوس الخاصة بالأعياد المسيحية والعبادات النصرانية.

وقد لجأ الأسبان إلى التنصير بالقوة عندما شعروا بفشل محاولاتهم السابقة. وقد شكلوا لذلك جهازًا قضائيًا متشعبًا، وكان عمله محاولة إظهار ربط التصرفات الفردية أو الجماعية بأصلها التاريخي الإسلامي السابق. وقد نفذوا من خلال ذلك حرق كتب العقيدة الإسلامية التي كانت بحوزة الموريسكيين علنًا. ولم يستثن من ذلك سوى كتب الطب والفلسفة والتاريخ. ومع ذلك أحضروا هذه الكتب وراجعوها وحددوا ما ينتشر منها وما يُحرق.

وضُيق على المسلمين أكثر حينما فرض الأسبان جزارين نصارى يذبحون للمسلمين لكي يمنعوا الذبح على الطريقة الإسلامية. وعملوا جاهدين لعدم ترميم الحمامات بحجة الخوف من ممارسة المسلمين شعائرهم خفية فيها، وحاولوا أيضًا منع الختان ففرضوا على القابلات الرقابة. وفرضوا التعميد بدل الختان في محاولة منهم لتنصير المسلمين. ثم مُنع المسلمون من استخدام التسميات الإسلامية. وفُرض عليهم أن يسموا أولادهم بأسماء نصرانية.

أما حياة الموريسكيين الاجتماعية فقد كانت في الأدنى من المستويات من حيث طبيعة أعمالهم المستحقرة، ومن حيث القوانين التي فرضت عليهم نوع هذه الأعمال والمهن، وقد شن الأسبان قوانين تمنع المسلمين من تعلم الحرف الهامة والتجارة وأقتصرت مهنهم على الزراعة والعمل بصناعة الجلود والسيراميك والحديد.

وقد مُنع المسلمين من دخول نقابات عمالية كثيرة مثل منعهم من دخول نقابة صانعي الأحذية.

وقد حدَّت القوانين حركتهم التجارية تمهيدًا لمنعهم من ممارسة التجارة. وكان لا يسمح للواحد منهم بالتنقل من مكان إقامته إلى بلد آخر إلا بتصريح يُعطى من السلطات يُحدد فيه نوعية السفر ونوعية أداة النقل والمواد المنقولة إن وُجدت، وكان رد فعل الموريسكيين المسلمون على هذه الإجراءات التعسفية الهرب. فبعض الأفراد منهم لا يطيقون الاستمرار في العبودية والقمع فاضطروا للهرب إلى شمال إفريقية، أي إلى المغرب وتونس والجزائر. وقد عمد الموريسكيون إلى التمرّد عدة مرات وفي فترات متباينة لكن الأسبان العنصريين كانوا لا يخفون عنصريتهم فبمجرد قيام أي تمرد كان يُقمع ويُقتل الرجال وتُسبى النساء والأطفال.

على أية حال فإن الأسبان الذين استردوا الأندلس وقمعوا المسلمين تناسوا تلك الحضارة الإنسانية الإسلامية والتسامح الإسلامي. وكانت التغذية العنصرية هدفهم الأول وطرد الموريسكيين المسلمين هدفهم الأخير.

وقد تم لهم ذلك مع نهاية القرن الثامن عشر حيث تمت عملية الطرد الجماعية المشهورة إلى شمال إفريقية حيث سبقتها حملة تغذية إعلامية لكافة نصارى الأندلس وحثتهم على طرد كافة من يُشتبه أنه من المسلمين. وقد قاد عملية الطرد رجال الدين المسيحي إلى جانب السلطات الحاكمة.

وقد انتشر بعض الموريسكيين في أوروبا وفي إيطاليا وفرنسا وغيرهما وحاول بعضهم العودة إلى الأندلس. لكن مأساتهم لم تنته فقد ظلوا يُعانون من الاضطهاد العنصري وما ذلك إلا جزاء لنشرهم حضارة إنسانية راقية مدة ثمانية قرون كانت أوروبا تحلم بالوصول إلى مثلها.

المصادر والمراجع

أ - المصادر:

١- ابـن أبي أصيبعة (موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم الغزرجي): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة بيروت، عام ١٩٦٥م.

٢- ابـن بشـكوال (أبـو القاسـم خلـف بـن عبد الملك): كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، نشرة فرنثيسـكو كوديـره، في جـزأين، مدريـد عـام ١٨٨٣م، وطـبعة القاهـرة عـام ١٩٦٦م، (مجموعة تراثنا).

٣- ابـن بسـام (أبـو الحسن علي الشنتريني): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة القسم الرابع، مجلد أول، تحقيق: د/ إحسان عبّاس، بيروت- عام ١٩٧٩م.

٤- ابـن جـلجل (أبـو داود سـليمان بـن حسـان الأندلسـي): طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق: الأستاذ فؤاد السيد، المعهد العلمي الفرنسي- القاهرة، عام ١٩٥٥م.

٥- ابن عذارى (أبو عبد الله محمد المراكشي): البيان المغرِب في أخبار الأندلس والمغرب، ج٢، دار الثقافة- بيروت، عام ١٩٤٨م.

٦- ابـن الفرضـي (أبـو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف): تاريخ علماء الأندلس، القسم الثاني، تحقيق فرنشسكو كوديره، جزأين، مدريد.

٧- أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج٣، دار القلم- بيروت، ط٣، عام ١٩٧٤م.

٨- الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشر: دوزي ودي غويه، ليدن عام ١٨٩٣م.

٩- محيي الدين بن عربي: تفسير القرآن، مجلدان.

١٠- المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله المعروف بالبشاري): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، نشر دي غويه، ط٢، (ليدن، عام ١٩٠٩م).

١١- المقري (أحمد بـن محمـد التلمسـاني): نفـح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٢ تحقيق: محـيي الديـن عـبد الحمـيد- القاهـرة، عـام ١٩٤٩م. د. إحسان عبّاس، دار صادر- بيروت، عام ١٩٦٨م.

ب - المراجع:

١- أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية، عام ١٩٧٤م.

٢- د. أمـين توفيق الطبي: دراسات في تاريخ صقلية الإسلامية، دار اقرأ للطباعة والترجمة والنشر والخدمات الإعلانية- ليبيا، الطبعة الأولى، عام ١٩٩٠م.

٣- أحمد باب التنبكجي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس- ليبيا، عام ١٩٩٠م.
٤- أمين أسعد خير الله: الطب العربي، ترجمة: مصطفى أبو العز، عام ١٩٤٦م.
٥- أنطونيو دومنغير هورتز وبرنارد بنثنت: تاريخ مسلمي الأندلس الموريسيسكيون- حياة ومأساة أقلية، ترجمة: عبد العال صالح طه، دار الإشراق للطباعة والنشر، قطر- الدوحة، ط١، عام ١٩٨٨م.
٦- جوستاف لوبون: حضارة العرب، ط٤، ترجمة: عادل زعيتر- القاهرة، عام ١٩٤٨م.
٧- د. حكمت عبد الكريم فريحات وإبراهيم ياسين الخطيب: مدخل إلى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، دار الشروق- عمّان، عام ١٩٨٩م.
٨- حسان حلاق: العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، الأندلس- صقلية- الشام، الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، عام ١٩٨٦م
٩- خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس- أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية، ترجمة: الطاهر مكي- القاهرة، دار المعارف.
١٠- زيغريد هونكه: أثر الحضارة العربية في أوروبا، (شمس العرب تسطع على الغرب)، تعريب: فاروق بيضون- كمال دسوقي، مراجعة وتعليق: مارون عيسى الخوري، دار الآفاق- بيروت، عام ١٩٦٩م، ط٥، عام ١٩٨١م.
١١- رينهارت دوزي: نقلاً عن محمد حمادة: المكتبات في الإسلام.
١٢- د. السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع- الإسكندرية، عام ١٩٨٥م.
١٣- د. سحر السيد عبد العزيز سالم: تاريخ بطليوس الإسلامية أو غرب الأندلس في العصر الإسلامي، ج١، مؤسسة شباب الجامعة- الإسكندرية، عام ١٩٨٩م.
١٤- د. سحر السيد عبد العزيز سالم: تاريخ بطليوس الإسلامية أو غرب الأندلس في العصر الإسلامي، ج٢، مؤسسة شباب الجامعة- الإسكندرية، عام ١٩٩١م.
١٥- د. السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج١، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية، عام ١٩٨٤م.
١٦- د. السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج٢، دار النهضة العربية- بيروت، عام ١٩٧٢م.
١٧- د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، طبعة بيروت، عام ١٩٦٢م.

١٨- شكيب أرسلان (الأمير): الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، ج١، منشورات المكتبة التجارية- فاس، المطبعة الرحمانية- مصر، ط١، عام ١٩٣٦م.

١٩- د. صلاح الدين محمد نوار: نظرات في تاريخ المغرب والأندلس في العصر الإسلامي، دار الدعوة للطباعة والنشر والتوزيع- الإسكندرية، ط١، عام ١٩٩٤م.

٢٠- عبد اللطيف بن محمد الحميد: موقف الدولة العثمانية تجاه مأساة المسلمين في الأندلس ١٤٨٦ - ١٦٠٩م، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، عام ١٩٩٣م.

٢١- عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه.

٢٢- عمر فروخ: عبقرية العرب في العلم والفلسفة، ط٥، بيروت- المكتبة العصرية.

٢٣- فيليب حتي: تاريخ العرب، ترجمة: الأستاذ محمد مبروك نافع، القاهرة- عام ١٩٥٣م، وترجمة: د. ادوارد جرجي والدكتور جبرائيل جبور، بيروت عام ١٩٦١م.

٢٤- فريد جحا: تراث العرب القديم في ميدان علم النبات.

٢٥- فاضل السباعي: ابن جلجل القرطبي، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس- ليبيا، العدد ١١.

٢٦- قدري حافظ طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك.

٢٧- د. محمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمال إفريقيا.

٢٨- مفيد الشوباشي: رحلة الأدب العربي إلى أوروبا، دار المعارف- مصر، عام ١٩٦٥م.

٢٩- د. محمد فتحي الشاعر: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، دار المعارف- مصر، عام ١٩٩١م.

٣٠- د. محمود أحمد: زرياب موسيقار الأندلس، أعلام العرب، رقم ٥٤، القاهرة.

٣١- مفتاح محمد دياب: ازدهار حركة نشر الكتب والمكتبات في الأندلس، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس- ليبيا، المجلد ٧.

٣٢- د. مارتينو ماريو مورينو: المسلمون في صقلية، منشورات الجامعة اللبنانية- بيروت، عام ١٩٦٨م.

٣٣- عبد العاطي محمد الورفلي: "أوراق أندلسية"، جمعية الدعوة الإسلامية، دار الكتب الوطنية - بنغازي، طبعة أولى، عام ١٩٩٠م.

محتويات الكتاب

تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس

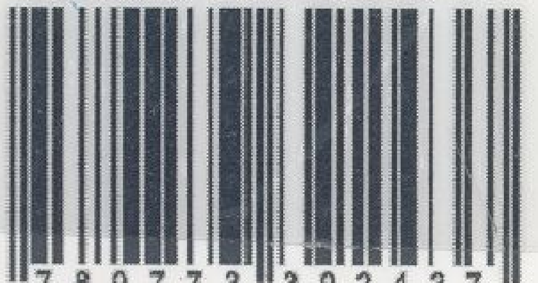
الأندلس . . .

لهذه الكلمة وقع في الوجدان الإسلامي يحمل تضارباً عميقاً بين الإحساس بالفخر أو الأسى ، بالنصر أو الهزيمة ، . . . وقد آن الأوان للمسلمين للتخلى عن الشعور بالمرارة والألم إلى الرضى والامتنان لدورهم في نشر العلوم والمعارف والتحضر المدني والاجتماعي ليس على أوروبا فحسب بل على البشرية جمعاء وبما قدمته الحضارة العربية من عمران وفكر ما زال حياً في الوجدان البشرى الإنساني بما تلمسه من بحوث ودراسات علماء الغرب المنصفين .

ويقدم هذا الكتاب دراسة تاريخية لدور الحضارة الإسلامية وأثرها في الأندلس خاصة والغرب عامة وقد عمد المؤلف إلى تقديم البراهين العلمية المستمدة التاريخ ودراسات العلماء والمؤرخين سواء من الغرب من العالم الإسلامي

الناشر




ISBN 977-339-243-0
9 789773 392437